رواية

هانا دوبغن

عن بلد

ترجمتها عن الألمانية

د. نجاة عيسى حسن

عَنْ بلَدْ

عن بلد

هانا دوبغن

ترجمتها عن الألمانية: د. نجاة عيسى حسن

عنوان الكتاب باللغة الألمانية:

Über Land

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

About A Country

By Hannah Dübgen

Translated by Dr. Najat Issa Hassan

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2022 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب عن بلد، بالاتفاق مع منشورات dtv، ميونخ/ألمانيا.

This book *Über Land* was translated & published by arrangement with

DTV VERLAGSGESELLSCHAFT mbH & Co. KG

Copyrights@ dtv Verlagsgesellschaft mbH & Co. KG, Muenchen/Germany٢٠١٨

Arabic Translation Copyrights@Dar Al ـ Rafidain 2020

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 35 - 2

هانا دوبغن

عَنْ بلَدٍ

ترجمتها عن الألمانية

د. نجاة عيسى حسن

www.daralrafidain.com

مقدمة المترجمة

المكان هو برلين في ربيع 2013 حيث يجمعُ حادث دراجة بين كلارا، طبيبة ألمانية شابة، وآمال، طالبة شابة عراقية فرَّت من العراق وتأمل الحصول على حق اللجوء في ألمانيا. بمرور الوقت تتوطد تلك الصداقة بينهما بالشكل الذي يجعل كلارا تقرر السفر فجأةً إلى العراق في نفس الوقت الذي يُدير فيه صديقها المهندس المعماري تارون، الذي ينحدر من الهند ويعيش في برلين منذ سنوات، لأول مرة في حياته مشروعَ بناءٍ في مدينته الأصل كالكوتا.

(عن بلد) رواية من ثلاثة فصول تحكي بأسلوب مثير ومؤثر عن صداقةٍ غير عادية، عن رحلة البحث عن الحقيقة، عن الحياة في الغربة وعن تقرير المصير لتجعلك تتساءل عن القيود التي ينبغي لك تجاوزها من أجل أن تعيش حياةً تقررها أنتَ بنفسك، وتدعك تفتش عن المسؤولية التي ينبغي لك مواجهتها حتى تظل صادقاً مع نفسك!

في هذه الرواية يبدأ كل شيء بحادثٍ مفاجئ لكنه ينتهي بمأساة.

الفصل الأول

آمال

تواصلُ الجري كما لو كانت أرجلها لا تعود إليها، تُطاردها ضربات صدرها وأنفاسها اللاهثة. رأت آمال أمامها عموداً على الرصيف فالتجأت إليه وأحاط جسدها بالحديد المخدد حتى هدأت أرجلها أخيراً. مكثت بمكانها، أرست جبينها مرهقةً على العمود فإذا بالهواء البارد الجاف يلسعُ جوف قصبتها الهوائية ويخدشها كأنه ذراتُ غبارٍ هبَّت في عاصفةٍ رمليةٍ. أجبرت نفسها على التنفس ببطء وأغلقتْ فمها وعينيها لتواصل السير مع التركيز على أنفاسها. إن التحكم في الأنفاس يعني السيطرة على الذات، وهذا يعني أن نتأمل العالم جيداً مرةً ثانية: فالشارعُ هادئٌ أمامها والسياراتُ واقفة بعناية ومصطفّة على جانبي الطريق كما لو كانت أحجاراً ملونةً مرصوصةً في قلادة، وإلى الخلف منها كانت توجد عند التقاطع محطةُ وقوف الحافلات مزودةً ربما بخارطة المنطقة، خارطة ستُبين لها طريق العودة.

تنهدت آمال وأبعدت خصرها عن العمود وفركت جبينها بكُمّ سترتها المَطَرية الواسعة جداً، ثم أخذت خصلة شعرها التي انسدلت في أثناء الجري وعقدتها ولفتها بثباتٍ ثلاث مرات حول عقدة شعرها قبل أن تُثبّت أطرافها تحت المشبك، في «العش» كما تسميه جدتها، نسبةً إلى تسريحة عشتار {وهي عقدة شعر مدوّرة}: «إنها تدوم ليوم كاملٍ يا آمال». ليوم كاملٍ تقضيه في الحديقة، في الجامعة، بل إن العقدة تبقى كما هي حتى عند المكوث في طوابير الازدحامات أمام نقاط التفتيش على جانبَي الطريق، لكن عقدة شعر عشتار لا تستطيع الصمود إزاء الهروب المحموم.

كلارا

ما تزال الهاربةُ تحدُّق إلى الشارع المقفر خلفها كما لو عادَ إليها ثانيةً ليوضح لها ما حدثَ بالضبط ولماذا لم تكن حقيبة ظهرها في سلة الدراجة وإنما مُلقاة على الرصيف، حيث كلارا تقفُ بدراجتها في منتصف الطريق، ترتجفُ كأنها هي من اصطدمت بالدراجة وليست السيدة الشابة تلك، وربما لم تكن سيِّدةً بعد بل ما زالت فتاةً. في الحقيقة لم تتمكن السيدة من معرفة ذلك بالضبط حينما ألقت الفتاة بجانبها على الأرض، إذ قفزت بعدها مسرعةً وهربت، ثم ركضتْ سريعاً بنشاطٍ منقطع النظير ولكن بخطواتٍ كبيرة غير مسبوقة، الأمر الذي جعل كلارا تتساءل إن كانت هذ الطريقة في الجري تعود إلى حذائها العالي الضيق ذي رباطٍ لا يتناسب مع ملابسها، ومع ذلك البنطال الفضفاض والسترة المَطَرية التي تدورُ حول الفتاة كالمظلة.

انتبهت كلارا إلى نفسها فاكتشفت على حافةِ بنطالها الجينز أثراً لنعل حذاء، وكان هناك على واقي الطين لدراجتها شيئاً معتماً عندما تفحصته جيداً وجدته عبارة عن مجموعة خيوطٍ نسيجية، لا إرادياً ظنت كلارا أنها أثر قصاصات من ملابسها وربما من بنطالها، وعندما وضعت الخيوط على يدها شعرت بأنها لزجة وملطخة بالدم. وعليه، فإن السيدة التي هربت كانت مصابة بالجروح، فهل إصابتها بالغة يا تُرى؟ وهل هي بحاجة الى مساعدة؟ ولكن عندما هربت لم يكن هناك جروحٌ لديها، وكذلك لم يكن هناك دمٌ في أي مكان من الشارع. لمست كلارا شعرها وأمسكت بخصلاته المجعدة القصيرة. وإن كانت الفتاة الشابة تعاني من إصابةٍ خطيرة أو كسر في القدم أو قد عُرِّضَت لإصابة دماغية رَضّية على الرصيف عند الاصطدام بها، فإنها بالتأكيد لن تهرب بسرعةٍ هكذا أيضاً. ومع ذلك كانت ردة فعلها سريعةً ودقيقة للغاية. إلا أن كلارا كانت واثقةً بحسب ظنها أن هروب الفتاة كان نتيجة لذعرها بحيث إنه لا يمكن لألم في الساق أو الكوع أن يوقفها عنه. كذلك لم توقفها الصيحات التي تذكرتها كلارا الآن: إذ نادت على الهاربةِ مراتٍ عدة، مرتين في الأقل: «يا»!، حتى شعَرتْ بأن صيحاتها ارتطمت بقفا الهاربة مثلما ترتطمُ بجدارٍ ما.

ما زال الشارع الذي حدث فيه كل هذا فارغاً وساكناً تحت شمس الصباح. إنه سكونٌ جعلَ كلارا تبدو مرتابة منه. لو لم تكن الخيوط النسيجية موجودةً لكان من الممكن التصور ببساطة أنها أغفلتْ للحظة وغرقتْ في حُلم ما كما يحدثُ غالباً بعد مناوباتها الليلية... ولكن هناك بالفعل خيوطاً تلتصق بعضها بالبعض الآخر ملطخةً بالدماء. وضعت كلارا بحذر الخيوط في منديلٍ وطوته ثم دسّتهُ في محفظتها بجانب النقود المعدنية.

آمال

كانت الشوارع فارغةً كما لو كان بنزين السيارات قد نفدَ منذ أسابيع، وكانت الأرصفة مقفرةً كأنها في حالةِ تأهب لانفجار قنبلة، ولكن لو تأملنا ذلك أكثر لوجدنا أن الحقيقة عكس ذلك، إذ إنه حتى في حالة التأهب ستكون هناك حتماً آثار واضحة لخطى مُسرعة وفواكه منكوبة على الرصيف وكرة قدم في مزراب وأبواب مفتوحة تختبئ وراءها قطط خائفة... كان كل شيء هنا في هذه الشوارع مرتَّباً ويمكثُ في مكانه. كانت السياراتُ موصدةَ الأبواب والنوافذ تتراكمُ عليها أوساخُ أيام عديدة. العناية هي الدليل الذي يعكس الحياة هنا: حياةٌ رتيبة ونومٌ هادئ. ما زال الجميع نائمين هنا، همستْ آمال بسرّها وحاولت أن تبتسم ولكن تشنجات قدمها اليسرى حالت دون ذلك.

أخذتْ آلامُ ركبتها المنسلخة تتفاقم بعد أن مشت الأمتار القليلة المتبقية، وعلى الرغم من أنها لم تبلغ ذروتها بعد، لكنها كانت غير مريحة بالقدر الذي يجعل مواصلتها السير أمراً غير ممكن. نظرت آمال حولها في جميع الاتجاهات باحثةً عن مقعدٍ أو أريكة على جانب الطريق، عن مقهى أو بعض الكراسي أمام كشكٍ مفتوح، ولكن يبدو أن لا شيء من هذا كله موجودٌ هنا بين البيوت الكائنة خلف المروج والشجيرات، فالخضرة المورقة المتلألئة في الربيع بشكلٍ غير مألوف، وتألق الأوراق المفعمة بماء المطر جيداً، تجعل المرء ينجذب إليها.

الطبيعة الخلابة تكمنُ ما بين اللون الأبيض الثلجي لجدران المنازل واللون الرمادي الموحد للأرصفة. رفعت آمال رأسها محدقةً، فهي تحبُّ هنا في ألمانيا الأفياء النقية المنتشرة في كل مكان وأضواء الربيع النابضة المتوهجة وهي تسقط على الأوراق أو السيقان أو حتى على جلدها، على مادةٍ حية، وليس على الواجهات المصقولة أو الخرسانة الباهتة المهيمنة على البيوت المحيطة بالسكن.

إن هذا اللون الرمادي الأدكن الباهت، كما أوضح مدير السكن، هو «ما تبقى من أيام الزمن الماضي عندما لم يكن للحرية مكان بيننا ولم يكن هناك لاجئ تقريباً».

أخذَ ألم ركبتها يزداد كثيراً إلا أن آمال لا تريد أن تستسلم له فقبضت على يديها بحدة وهي تواصل المسير. ولكن ما الذي جعلها تخرج اليوم الأحد من السكن ذي الخرسانة الرمادية الدكناء اللون في براندنبورغ وتتوجه إلى برلين؟ تمضي بلا هدف، نحو المدينة ليس إلا، لا للبحث عن عمل أو لتأمل سوق بيع المواد القديمة التي يقال عنها إنها مكان تجمع العرب. إذن هل كان خروجها ضرورياً؟ وهل كان ذلك حكيماً؟ أليس من السخف المجازفة بالحياة في بادئ الأمر من أجل الهروب من الخطر، ومن ثم الوقوع بسهولة فيه؟ توقفت آمال، نظرت حولها وصفّرت بأسنانها بازدراء: ماذا يعني الخطر هنا؟ من أجل التورط بحادث سير في الشوارع هنا يتطلب الأمر بعضاً من الموهبة.

ربما أزعجتها حدة الصمت هنا وجعلتها تتهور، فهي لم تعتد الصمت الشديد في مدينةٍ كبيرة كهذه، إنها طفلة من منطقة خطرة! قبل عشر سنوات كانت الشوارع في حي سكناها في بغداد تُعد خطرة، وقد حَذّر الأمريكان من حدائق الجدة بأنها فخ الموت المحتمل، وذلك عندما رأوا أن حديقة عشتار متاخمة مباشرة للجدار الخلفي من المسجد القديم. ولكن ماذا يعني هذا؟ أسرعت آمال وهي تفكر: مَن يقرر خطورة الأمر؟ مَن يقرُّ إن كانت الحدائق خطرة أم الشوارع؟ ألم يثبت مصير أبي أن الخطر لا يكمن في الفضاءات المفتوحة، بل في الأماكن المغلقة المألوفة للناس سلفاً؟

تشابكت الطرق أمام آمال وعليها أن تتخذ قراراً، فسلكت الجانب الأيسر. حينها وقبل كل شيء بدا لها شيء واحد مهم فقط، ألا وهو أن تستمر في السير مع الحفاظ على حركتها وتوَخّي الحذر، وألا تثق بأي شخص بسهولة. إنَّ الشيء المثير للسخرية كان هو ثقبُ بنطالها.

سخيفَ أيضاً هو الجرح الصغير وألم الركبة إذ لا يمكن مقارنته بآلام الظهر والرأس، لا سيما عندما ارتفعت حرارتها وهي مستلقية ليلا على الأرض في الغابة... توقفت آمال الآن ووجهت نظرها مباشرة صوب الشمس: ينبغي الحفاظ على الحركة في الإيقاع ذاته وتحت وطأة الضوء. «كل الحياة تتلاشى دون الضوء». كلمات عشتار تلك تبين الشيء الأهم. الليالي على الأرض في الغابة، على فراش عفن في السجن – ما معنى هذا كله إن لم تكن هي اليوم هنا تتجول كما يحلو لها! أسرعت آمال الخطى الآن باتجاه الشمس تقريباً، حيث الطريق أمامها يستمر بشكلٍ منحنًى وينتهي أخيراً عند شارعٍ عريض مزدحم.

كلارا

إن الدافع الذي يحتم على كلارا الرجوع دوماً الى القواعد المرورية على شبكة الإنترنت يجعلها لا تشعر بالارتياح على الرغم من أنها علمت قبل أكثر من ساعة تقريباً بكل ما كانت تود معرفته: وذلك بأن الاصطدام هذا الصباح لم يكن ذنبها، لأن على المشاة أن يتوقفوا أيضاً عند عبور الشارع «مع الإنتباه إلى حركة المرور» وتجنب القفز بين السيارات الواقفة على الطريق. أغلقت كلارا النافذة الإلكترونية. هكذا هو الأمر إذن من الناحية القانونية. ولكن ذلك لم يغير شيئاً من شعورها المرتاب. ماذا لو لم تكن المرأة الشابة تعرف اللوائح القانونية على الرغم من أنه كان يتوجب عليها معرفتها؟ ولكن ما فائدة هذا لو كانت الشابة غريبةً هنا واعتمدت على نباهة الآخرين وتعقّلهم في المنطقة السكنية الهادئة؟ تُرى هل يتعلق الأمر هنا بالذنب وحده أو في الحذر أيضاً، ذاته الذي تراه كلارا بأنه يحتم عليها أن تتفحص مرضاها بنفسها... ففي صالة الطوارئ ترى كل يوم أمامها على النقالة الناس الذين يُعَرّضون لحادثٍ ما، والمرضى الذين يعانون من كدمات خفيفة، كسور معقدة أو نزيف يهدد حياتهم. وكم من مرةٍ حينما ترد في التقرير عبارة «دُعِسَ» أو «مُلقى على الأرض متصدعاً» تسأل فيها كلارا نفسها إن كان ممكناً تجنب هذا كله؟ إذ إن تقرير المسعفين لا يذكر مَن هو المسؤول عن ذلك الحادث أو ما إذا حُدِّدَ الجاني، بل فقط عندما يكون ذلك مهمًّا لحالة المريض فإنه تُذكَر عبارة: «فجأة»، أو: «انزلقت {السيارة} بسبب خلل فني في الدعامة»... وفي معظم الحالات فإنها كانت ترى النتيجة فقط وأحياناً تسأل نفسها بعد خياطة الجروح، أو تسأل يورغ، رئيسها في العمل حينما تساعده في إجراء العمليات الصعبة، عن الشيء اللازم لتجنب كدمات القفص الصدري أو الغيبوبة الاصطناعية.

هل هو الحظ، أو الطقس، أو إنه مزيدٌ من الانتباه لكلا الطرفين؟ عضَّت كلارا على شفتها السفلى قائلةً: انتباه كلا الطرفين... لأنه حتى لو كانت الشابة لم تنظر حولها بتأنٍّ هذا الصباح قبل أن تعبر الشارع من بين السيارات الواقفة – فهل كان من الممكن أن تتجنب حادث الاصطدام هذا لو كانت ردة فعلها مختلفةً نوعاً ما؟ لو سارت مثلاً بشكل أبطأ؟ وكم كانت سرعة القيادة، سألت كلارا نفسها وأدركت مدى صعوبة الإجابة عن هذا السؤال. في الحقيقة هي لم تُسرع، وهذا أمرٌ مؤكد، لكنها في الوقت ذاته لا تستطيع أن تجزم بالضبط مدى السرعة التي كانت عليها لحظة الاصطدام أو حتى إلى أين كان ذهنها شارداً. إن ذاكرتها مشوشةٌ لدرجةٍ تحيلُ الاعتماد عليها، وهذا ما يزعجها.

كلّما فكَّرَت كلارا في الحادث بِرَوِيّة كان يتولد لديها انطباع بأن الشابة تبدو بالفعل كما لو كانت لم تعرف المِنطقة جيداً، إذ كانت تنظر حولها بذعر وهي تمضي مسرعةً، بل حتى حالة الذعر تلك تدلُّ على أنها ليست سائحة. أغلقت كلارا عينيها لتحاول أن تتخيل الشابة بشكل أدق قدر الإمكان: شعرها الكثيف الأسود المنسدل من عقدة خلف الرأس، وبشرتها التي لم تكن غامقة كثيراً عن نسق شحوب بشرة الألمان على الرغم من أن كلارا لمحتها بشكل عابر فقط. وهل كان شعرها مجَعَّداً؟ ربما. إلا أن الصورة الواضحة والثابتة في مخيلتها عن الشابة من خلال ملابسها المزركشة غير المناسبة، وقفاها، وحذائها العالي، وطريقة ركضها المتباطئة تدل على أنها ليست عَدَّاءة جيدة، ولكن لديها لياقة جيدة، أي إنه كان بإمكانها أن تهرب بسرعة وبقوة أكثر. ولكن لماذا، ومِمَن كانت تركض مذعورةً هكذا؟

دقَّ الباب، فتحهُ تارون للمرة الثانية – بل ربما للمرة الثالثة – ليرى بحذر إنْ كانت كلارا تشعرُ بالجوع الآن، وبدلاً من أن تجيبه نهضتْ وتوجهت نحوه واحتضنته وسألته: «وأنت»؟ سحب تارون خديه بصمتٍ وفتح عينيه ومسك بطنه، فما كان على كلارا إلا أن تضحك «مُدْرِكةً» موقفَ تارون فقبّلته من فمه وغادرا الغرفة معاً.

عندما وزَّعَ تارون لحم الضأن بالكاري مع الأرز على طبقيهما كان يبدو عليه الفرح المرتقب، فإن يوم الأحد هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي يطبخ فيه تارون مساءً، لأن الطهو، كما يقول هو، يتطلب «وقتاً وموسيقى وراحةً». فالموسيقى تعني له أن يستمع عادة إلى واحدة من الفرق الموسيقية التي أقسَمَ على «الإخلاص لها مدى الحياة» منذ بداية عيشه في ألمانيا وحتى الآن: بورتيشيد، كروسويندز، وكذلك رامشتاين. في أثناء ذلك فاحت رائحة لحم الضأن المنقوع بالماء المملح منذ الصباح. سكبت كلارا النبيذ الأحمر. لامستْ أقداحهما بعضهما بعضاً لفترةٍ وجيزة، وتبادلا الابتسامة بدلاً من التفوه بشيء. تبع ذلك قعقعة السكاكين ومَضْغ صامت بوتيرة سَلِسة. خلعت كلارا نعليها ووضعت أصابع أقدامها فوق أصابع أقدام تارون التي تمايلت مرتين كما هي الحال دائماً. بعد مدة قصيرة بدأ تارون الحديث ليُخبرها بأنه كان قد اتصل هاتفياً بعد الظهر مرات عدة بمدير الموقع في هاورا.

«هذا اليوم، الأحد»؟ سألته كلارا.

أومأ تارون برأسه: «لقد تحدثنا عن أساس **{المبنى}. فالرياحُ الموسمية ستبدأ في غضون شهرين لذا ينبغي أن يكون الأساس قد صُبَّ بأكمله في غضون ذلك الوقت».**

«فهمتُ» أجابت كلارا، أمسكت بالشوكة وبدأت تأكل وهي تصغي لوصف تارون: «وُضِعت حواجز فولاذية كبيرة أفقياً في قوالبَ في الأرض وصُبّت الخرسانة في القوالب عبر أنابيب ووضِعت بجانبه أجهزة مقياس للضبط والسيطرة». إنَّ الأساس المستدير، كما تعلم كلارا، يعود إلى بناية ذات طوابق ستة، وتحديداً إلى «البرج»، الذي يسعى إلى توفير مكان للعمال القادمين من المدينة المتنامية هاورا، ومدينة كالكوتا المجاورة، مكان مختلف عن الأكواخ المشيدة بأوراق النخيل والبلاستيك المشمع الممتدة على طول مسارات السكك الحديدية أو عند ظلال المنشآت الصناعية. وبالاتفاق مع المدينة فإنَّ الشركات الصناعية تبني حالياً شققاً لعشرات الآلاف من العمال وأسَرهم، ثم إنه اخْتِيرَ مكتب العمارة الذي يعمل فيه تارون في برلين من قِبل مدينة هاورا وحكومة الولاية ليُصمم إلى جانب المساكن الجديدة مكاناً للاستراحة بمثابة «مكانٍ لاستنشاق الهواء النقي»، بمعنى أن الهواء في البرج ينبغي أن يكون أفضل مما في الشوارع وفي قاعات المصنع، مكاناً للتنفس يأخذ في نظر الاعتبار أيضاً أن سكان المدينة الجديدة يكون بإمكانهم الأكل أو القراءة أو التأمل أو ممارسة الرياضة في طوابق البرج.

وتابع تارون: «حتى عندما يُوضَع الأساس فإنه ينبغي اتخاذ قرارات مهمة بشأن نصب الأنابيب، وكذلك التهوية والمرافق الصحية والإلكترونيات في جميع أنحاء المبنى، ثمّ إن أي إهمال لأية جزئية في جزيئات التصميم أو أي خطأ في وضع الأنابيب فيما بعد سيكون له عواقب أزلية ومكلفة»، عَبسَ تارون: «وإن ما يجعل الأمور معقدة بعض الشيء هو إن كان ينبغي للمبنى المُنجز أن يحتوي على أشياء أخرى مثل مجرى مائي في الممرات ونوافير صغيرة لتلطيف الهواء، كذلك إن لم يكن حتى الآن معروفاً مَن سيقوم بترميمات الطابق الثاني، ثم إن لوائح قوانين البناء المعمول بها محلياً لم توضح وتفسر العديد من الأشياء التي تختلف عن ما هو مألوف لدينا هنا في أوربا». ضحك تارون كثيراً وسرعان ما عاد ثانيةً للحديث بجدية: «ولمجرّد التأكد أنه لم يُتَجاهل أو يُنسَى أي شيء مهم، فإن التفحص المستمر للأساس مهمٌّ للغاية».

«بالتأكيد لا يمكنكَ التحقق من التفاصيل التي تخص الأساس من هنا بنفسك، أليس كذلك»؟، سألته كلارا ومدت يدها نحو وعاء الأرز.

«بشكلٍ محدودٍ فقط»، أجاب تارون مستطرِداً: «أستطيع فقط أن أرى نتائج القياسات والصور التي أرسلها إليّ مشرف البناء لمعرفة المقدار الذي أنجزناه وللاطلاع على بعض الأشياء قبل أن تُسَوَّى لاحقاً».

أومأتْ كلارا برأسها. فمنذ ما يقارب عامين ونصف العام التي تعرفتْ فيها إلى تارون ليلة رأس السنة 2010 كان هذا المشروع هو أول مشروع أسهمَ تارون بتصميمه وأشرفَ عليه منذ البداية، إنه مشروعٌ ليس كبقية المشاريع التي انضم إليها تارون أو ساعد فيها فقط مثل محطة القطار في السويد أو مباني برلين، بل إن هذا «البرج»، وكما يسميه تارون: «نقطة تحول في عملية البناء»، هو المشروع الذي كان هو الهندي الوحيد في مكتبٍ مملوء بالألمان والإنكليز، ذلك الهندي الذي قضى طفولته وتعليمه في كالكوتا، مسؤولاً عن التصميم الأول له، إنه المشروع الذي جاء فيه تارون بفكرة البناء المستدير ذيْ النافورات المائية والسلالم المتعرجة في الداخل منه.

وهنا بادرَ تارون بالقول: «إن ما فتنني كطالب يحلل رسومات المباني هو ذلك التحدي الكبير في البناء»، وتابعَ القول مبتسماً: «إنَّ كل شيء مرتبط بعضه ببعض، المرئي في النهاية مع اللا مرئي، القاعات الرياضية مع فتحات التهوية، حمامات الأطفال مع نظام الأنابيب في الأرض، وحتى القاعة الفارغة في الطابق العلوي تحت السطح تحتاج إلى تكييف هواء فعّال ومد خطوط طاقة كافية».

ثم مالَ تارون إلى كلارا قائلاً: «في الأيام الأخيرة فكرتُ كثيراً في أول أستاذ لي في لندن والذي قال لنا ذات مرة: «إن المهندس الجيد يجب أن يبحث عن كل تفصيلة في الأساس، وأن يكون قادراً على تسمية كل شيء فوقه، كل طابق، كل أنبوب وكل طبقة عازلة، كل التفاصيل الأخرى وصولاً إلى السقف، من ناحية الكَم والنوع».

وجدت كلارا في ذلك مطلباً مثيراً للاهتمام، إلا وهو تشريحٌ مبنيّ على أسس علمية. وضعت أدوات الطعام على المائدة وسألته مبتسمة: «هل هذا يسري على الأطباء أيضاً؟ أينبغي لي أن لا أكون متمكنة فقط من تشريح كل نقطة في جسم الإنسان بالمِشرط والمقص بدءاً من الجلد عبر الأوردة مروراً بالعظام والطبقة الدهنية ووصولاً إلى الأعضاء، بل عليَّ أيضاً تسمية الطبقات المختلفة للرأس كمًّا ونوعاً؟ وهل يشمل هذا أيضاً الفروق الفردية في سُمك الطبقة الدهنية وحجم الكبد»؟.

ألقى تارون رأسه جانباً وسأل: «إذا كان الأمر كذلك، فهل ستستطيعين ذلك»؟.

فكَّرت كلارا بالسؤال بجدية وقالت: «نعم، في مهنتي أعتقد أن الواجب، إن جازَ هذا التعبير، هو أساس كل شيء».

مدَّ تارون يده الدافئة كالمعتاد، أمسكَ بيدها، مسحَ على أصابعها وقالَ مداعباً: «ولكن لا ينبغي التقليل من شأن حاستك اللمسية يا سيدتي الطبيبة لأنها من المؤكد ستقودك إلى معلوماتٍ جديدة حول عظامٍ وفقرات محددة».

إن كلارا تعلم إلى ماذا يُلمِّح تارون، إلى أول مرة وضعت فيها يديها على شعره وصدره المفتول المُشعر بحجة إجراء «فحصٍ طبي» له أمام سريره.

فأجابته مبتسمةً: «حول عظام وفقرات»، ولفّت أصابعها حوله. بقيَ كلاهما صامتاً للحظة، ربما يتذكران تلك الليلة التي وضعت فيها كلارا يديها على جسد تارون وجلده الناعم اللامع كالكهرمان، وهي تتلمس عضلاته وتسمي له العظام حتى قاطعها تارون عندما أمسكَ بخصلات شعرها الشُقر المجعدة المتلألئة التي أضفت على كلارا سابقاً في المدرسة اسم «ألبينا». «إنه ناعمٌ كالزغب»، همسَ تارون وبينما أدنى شفتيه نحو رأسها لفّت يديه شعرها بلطف، ثم همسَ ثانيةً: «إنه كالكشمير»، وأخذَ يقبّلها بدءاً من شعرها، وجبينها، وجفنيها ثم في كل مكان، قبّل كل جزء من أجزاء جسمها. وبلطفٍ جعل كلارا تنسى مرة واحدة قوة جسده إلى أن شعرت بأنها لا تستطيع استنشاق الهواء لثقل وزنه ــ الأمر الذي دفعها إلى أن تُرَبّت على ظهره مما جعلهما يضحكان عالياً. شفاهه كانت طرية ووَجِلة وشغوفة جداً بحيث إن كلارا أدركت في نهاية الليلة: إن تارون وجد بشرتها، وشعرها، وكل شيء فاتح لونه ورثته عن جدتها بخلاف بقية أفراد عائلتها، وجده ليس جذاباً فقط وإنما جميلاً أيضاً، بل وأكثر من ذلك: أنثوياً.

«وأنتَ»؟، سألته كلارا وهي ما تزال مبتسمةً: «كيف هو التشريح لديكَ: هل يمكنكَ تشريح البرج من الأسفل إلى الأعلى في مقطعٍ عرضي»؟.

أفلتَ تارون يديه منها، رجَع إلى الوراء وبَدتْ على تعابير وجهه ملامحُ جدّية: «أعتقدُ ذلك»، قالها بهدوء وكلارا تعرف أن «أعتقد ذلك» بالنسبة إلى تارون تعني: نعم، أستطيع فعل ذلك.

تابعَ تارون قوله: «عليَّ فقط أن أذكّر نفسي باستمرار بأني حقاً أستطيعُ فعل ذلك»، ثم رفع السكين عالياً: «بدءاً من الأساس فوق الأرضية الحجرية للطابق الأرضي وصولاً إلى أنابيب صنابير الماء ثم إلى الطوابق بأرضياتها المطلية ومفرّغات الروائح تحت السقف مروراً برفوف الجدران وصولاً إلى الصالة الكبيرة «قاعة الهدوء» في الطابق العلوي تحت سقف القبة المكسو بألواح خشبية». وكالمعتاد، عندما يتحدث تارون عن «قاعة الهدوء» تحت السقف في الطابق المفضل لديه يتغير صوته، يصبح هادئاً أكثر ويصبح نَفَسهُ أعمق كما لو كان موجوداً بالفعل هناك في القاعة الواسعة الفارغة تحت سقف القبة المصنوع من خشب الساج الهندي.

كان تارون يقول دائماً: «بشكلٍ أو بآخر ينبغي أن تكون هذه القاعة مفتوحة ليلاً ونهاراً»، وكررَّ ذلك الآن مرة أخرى وهو يعلم أنه لا يستطيع فعل شيء إزاءه، لكنه يعرف تماماً ما ستوفره القاعة تلك تحت السطح، إنه التوق إلى الهدوء في خضم المدينة المزدحمة، التوق إلى الراحة عبر ستة طوابق فوق الشوارع والقطارات، فوق نهر «هوجلي» والجسر الذي يوصل هاورا إلى كالكوتا، مسقط رأس تارون، ذلك الجسر الذي عبر عليه تارون وكلارا في فجر يومٍ ما أثناء زيارتهما كالكوتا.

«كلارا»؟ نادى تارون ودقَّ على زجاجة النبيذ ليسألها فيما لو كانت ترغب بشرب النبيذ الأحمر.

أومأت كلارا برأسها دون تردد ورفعت كأسها. وبعد أن قدم لها النبيذ سألها تارون، الذي فسَّر عدم اهتمامها على أنه إشارة إلى بُدُوّ التعب عليها، عن الليلة الماضية في المستشفى وكيف قضتها:

«هل كانت مرهِقة؟ هل كان لديكم في غرفة الطوارئ أيضاً شباب راقصون جرّاء تشنجاتٍ في {شظية القدم} ومن توسع حدقات العيون»؟.

أومأت كلارا برأسها.

ثم سأل تارون: «وإصابات خطيرة ناجمة عن تسممٍ شديد»؟

«حالةً واحدة»، أجابت كلارا واستطردت قائلةً: «كانت الليلة هادئة نوعاً ما في المستشفى». وهنا مرَّت أمام عينيها ثانيةً المرأة المجهولة التي ركضت مسرعةً بشكل غير طبيعي.

صمتَ تارون وتساءلت كلارا مترددة: هل ينبغي لها أن تخبره عن حادث هذا الصباح؟ لماذا تتردد تماماً في البوح بكل شيء كما هو؟ ماذا يمنعها؟ سألت كلارا نفسها وخمّنت الجواب: بأن حادث هذا الصباح كان أمراً مزعجاً لها وقد يكون ذلك الأمر سبباً لترددها بالتأكيد ولكنه ليس قطعياً، فهي ببساطة وعلى العكس من والدتها لا تعتقد بأن الحديث يجدي دائماً نفعاً ويقود إلى مزيد من الوضوح، وفيما لو كان التحدث عن شيءٍ ما منطقياً من الأساس، فإن ذلك يعتمد تماماً على الموقف ذاته. تُرى هل ستخبر تارون عن حادث الاصطدام في هذا الصباح، وهل سيكون وصفها مملوءاً بثغراتٍ غامضة كثيرة مثل: كيف حدث ذلك بالضبط، أين أُصيبت المرأة ولماذا هربت مذعورةً هكذا؟ إنه من المستحيل استخلاص ذلك كله بصيغةٍ مفهومة، فكلارا تعرف نفسها جيداً بأنها ستتزعج وستتذمر بالتأكيد من جُملها غير المكتملة، لذا فإنه من الأفضل لها أن تتريث لحين إيجاد تفسير دقيق لكل شيء، مثل لماذا هربت المرأة المجهولة وكيف هو حالها الآن؟

بدأ تارون بالتحدث عن بيير، زميله في رياضة الجَري، الذي دعاهم إلى العشاء ليوم غد. وفرحت كلارا لتغيير الموضوع.

بعد ذلك وقبل أن تخلد كلارا للنوم وهي مستلقية في فراشها بعد أن أطفأت الأنوار، أدركت أن صورة المرأة الهاربة لا تزال عالقةً في مخيلتها، وبسرعةٍ ساورها مرة أخرى شعور الظهيرة المريب، فسألت نفسها عما كانت تقصده من حديثها أثناء وجبة العشاء: وماذا تعني بأنها تريد الانتظار لحين أن تتأكد تماماً ما حصل فعلاً ومن حال الشابة حالياً؟ هل تريد أو ينبغي لها أن تتقصى عن تلك الشابة المجهولة؟ ولكن كيف يمكنها أن تفعل ذلك وهي لا تعرف حتى اسمها ولا تعرف أين تعيش، ولماذا كانت هذا الصباح في الحي المملوء بالـ□يلل؟ وقبل كل شيء، ما الذي كانت تخاف منه هذه المرأة الشابة جداً؟ أن تُحاكَم على الحادث؟ أن تضطر إلى الإدلاء بالشهادة أمام الشرطة؟

وهل أرادت تجنب ذلك فعلا لأنها كانت مطلوبة بسبب جريمة ما؟ لأنها لا تمتلك جواز سفر، أو لأن الشابة غير مسجلة هنا في ألمانيا، أو لن يُسمح لها رسمياً في أن تكون حيث كانت هي موجودة صباح هذا اليوم؟ وفجأة خطرَ في ذهن كلارا حذاء الدانتيلا الذي كانت ترتديه الشابة، وتساءلت عن سبب ارتداءها ذلك الحذاء الذي يناسب التَّجوال وصعود الجبال هنا في المدينة الكبيرة ــ ألإنها لا تملك سوى تلك الأحذية؟ وأين تكون هذه الأحذية الآن قبل منتصف الليل، أفي ممر الشقة الصغيرة المكتظة؟ وهل تملك الشابة شقةً أصلاً، منزلاً؟ هل هي جوّالة تباتُ هنا أحياناً وهناك أحياناً أخرى على الأريكة لدى بعض الأصدقاء والمعارف أو لدى مَن لا تعرفهم تماماً... لكن كلارا استبعدت فكرة أنها بلا مأوى، بل ونفت ذلك بإيماءةِ رأسٍ سريعة، إذ صحيحٌ أن ملابسها كانت مبهدلةً وربما فقيرة، ولكن حيويتها وعزمها لا يدل بأية حال من الأحوال على أنها فقيرة مُشرَّدة كأولئك المشرَّدين الذين ترعاهم كَلارا في المستشفى. أغلقت كلارا عينيها فرأت صُوَراً للمرضى ذوي العيون الزجاجية نصف المفتوحة والشعر المقمل والأقدام المتورمة التي تركت عليها الأحذية ذات المقاس غير المناسب آثارها...وتذكرت كلارا أنها حتى في الشتاء المنصرم لم يحدث أن عثرت في صالة الانتظار لغرفة الطوارئ على زوج من أحذية الدانتيلا العالية هذه عندما مرت من النقالة التي كانت تحمل الشاب الأفغاني ذا الأنف المزوي الذي كان يعاني من التهاب الزائدة الدودية. ونقلاً عن الممرضة ميكي فإن طالب اللجوء رفض ترك حذائه: «قلت له أن عليه أن لا يقلق بشأنها فنحن سنحتفظ بها له، لكنه كان يمسك بها ويردد دائماً: «انها حذاءي»!.

تذكرت كلارا الآن جيداً بأن الرجل قد خضع لعملية جراحية فور فحصه لأن أمعاءه كانت ملتهبة منذ وقتٍ طويل وقد أُحيل عليهم مباشرة من الطبيب المسؤول. «كان يرتجف عندما جئتُ مع الاستبيان ويصرخ بأن آلام بطنه قد لا تكون نتيجة شِجار، وعلينا أن نصدقه»!.

رفعت كلارا رأسها عن الوسادة وجلست في السرير: إنه خوف المرأة الهاربة... نعم بالتأكيد! هل هذا يفسر هروبها صباح اليوم، هل هي طالبة لجوء أيضاً، هل تأمل في الحصول على حق الإقامة هنا وهل هي خائفة؟ هل هو الخوف من أن يلومها أحدٌ ما ويحاسبها على شيء ما حتى لو كان مجرد مخالفة مرورية؟ أمسكت كلارا بجبينها وشعرت للمرة الأولى بأن كل شيء يمكن أن يكون منطقياً: تُرى هل الشابة الآن في وضعٍ لا يمكن أن تكون هي مذنبةً فيه، كما قيل لها، بحيث إنها بدافع الحذر تجنبت كل شيء أمامها كي لا يقال: إنها هربت قبل كل شيء من كل ما يخفي بطياته أدنى إمكانية تُحمِّلها شيئاً سلبياً؟ ربما، ظنت كلارا ذلك وبينما اتجهت نحو زر الضوء خطرَ شيءٌ آخر لها الآن: إذا كان الأمر كذلك فهل الخوف ذاته منعها من الذهاب إلى الطبيب؟ هل تفضل معالجة جرحها بنفسها على أن تفصح بالضبط كيف وقعَ الحادث؟ ولكن ماذا لو كان الجرح ــ التهاباً في الألياف النسيجية؟ لا سيما إذا لم يكن هناك مطهِّر في متناول اليد وقد تعاني المرأة من صداع أو ارتجاج طفيفٍ في الدماغ. ارتفعت درجة حرارة كلارا، لمست رقبتها وأدركت أنه في كل الأحوال هناك شيء واحد مؤكد وواضح كالشمس، ألا وهو: إن ألم حادث صباح اليوم سوف يُبقي المرأة الشابة مستيقظةً طوال اليوم، سواء تحدثت عن ذلك أم لا.

آمال

ضجيجٌ مزدَوِجٌ متواصل يُشيرُ إلى تسارع أنفاس ــ «أبو»، إذ إن آمال تسمعُ وهي جالسةٌ على منضدتها كيف أن صوت شخير ذلك السوري العجوز الذي يسميه كل مَن في السكن بـ«أبو»، أي «الأب»، يمرُّ عبر باب غرفتها، وفي كل مرة يُقدِّم فيها «أبو» ساقه اليسرى يأخذ نفساً عميقاً وعندما يؤخر ساقه اليمنى يُخرج زفيراً. وهكذا يتكرر هذا الإيقاع المختلط ما بين الشخير والزفير بالشكل الذي يجعل كل من يسمعه يستنتج أن «أبو» على هذه الحالة منذ سنوات عدة وأنه ليس هناك أدنى احتمال لإحراز أي تقدم لديه في كل يوم ولو بالشيء البسيط، كما هو الحال في إصابة ركبتها في الأسبوع الماضي، بل على العكس من ذلك: عندما تحدَّثَ الأطفال مؤخراً إلى «أبو» عن تنفسه الشاق، ما كان عليه إلا أن يوضح السبب مبتسماً بأن قلبه كان قد «استُنفِد منذ مدة طويلة لكنه عنيدٌ بشكلٍ مدهش». عندها ربَّتَ «أبو» على صدره كأنه يريد أن يتمنى لقلبه حظاً أوفر.

وضعت آمال القلم جانباً ونظرت إلى الباب الذي تلاشى خلفه تدريجياً التنفس المزدوج. «إن الرجل العجوز ليس قطاراً سريعاً! أتعلمين يا آمال أن الألمان يقولون ذلك هكذا: ليس قطاراً سريعاً، ولكن ماذا يعني ليس قطاراً سريعاً؟ أتعلمين أيضاً أن الألمان يقولون غالباً: إن الرجل العجوز ليس مرسيدس!»؟. ابتسمت آمال لذلك، فمن الواضح أن دعابة «أبو» لا يمكن تجاهلها، إذ قال لها ذات مرة همساً بأنه هو الذي يقترب من الموت يتحمل مسؤولية الجميع هنا. آنذاك في كانون الأول وبعد وصولها بوقت قصير أرادت أن تعارض «أبو» في بادئ الأمر وتردّ عليه بأنه لا يستطيع قول شيء كهذا، إذ لا أحد يعرف هنا في السكن على وجه الخصوص ما سيحدث للآخرين بالضبط ومَن سيكون بالفعل الأقرب إلى الهاوية... ولكنها مع ذلك لم تردّ بشيء، إذ أن شيئاً ما في عيون «أبو» الزرقاوَيْن ونظرته الحاذقة غير المألوفة منحها انطباعاً بأن الرجل العجوز يعرف تماماً ما يقول ولماذا.

نظرت آمال إلى أجساد الحيوانات ورؤوس البشر المرسومة أمامها على الورقة، متسائلةً فيما لو أنها سبق ومنحت «أبو» رسماً لحيوانٍ ما، على سبيل المثال شيئاً ذا ساقين نحيفتين وعينين جاحظتين وأذنين ضخمتين؟ وبحسب ما تراه من فوضى الورق على مكتبها، فإن هذا لم يحدث بالتأكيد. ربما في باكورة أيامها الأولى في السكن قد تكون رسمت «أبو» عندما خربشت منفعلةً في دفتر ملاحظاتها عند المساء وانتهى الأمر بمجرد قلبها للصفحة. عسى أن يفعل كمُّ الرسومات تلك شيئاً بدلاً من التحديق إليها مثل الآن؟ «لديك موهبة، يا سيدة الشرهاني. يجب أن تحاولي وتستمري العمل فيها لتجعليها أكبر من ذلك، ككتاب مثلاً»!، هزت آمال رأسها: كلا، لا ينبغي لها أن تدع نفسها إلى وجهة النظر تلك ولا حتى إلى ذلك التساؤل بهذا الشأن والذي سيقود حتماً إلى سؤالٍ آخر: لماذا كل هذا؟ فما هذا سوى إفساد لمتعتها وشغفها في الرسم ليس إلا! ورسومها الآن مبعثرةٌ ولا تدل على شيءٍ محددٍ، وهي ليست رسامة كاريكاتير تحكي قصةً ما ولا تلك الفنانة التي تجسِّد رسومُها جزءاً من مشروعٍ كبير. إن خربشات رسومها هي دائماً عَفوية، بعضها تلقائي وبعضها حقيقة، وهكذا كان حالها فعلاً في المدرسة ومن بعد ذلك في المحاضرات أيضاً. إلا إن الفرق الوحيد لهُ في بغداد هو أنها كانت ترسم آنذاك أشخاصاً وأشياءَ محددة، ولم تبدأ برسم البشر بهيئة حيوانٍ إلا في أواخر الصيف الماضي عندما هربت وأُودِعَتْ السجن، حيث كان يُقدَّم لها طبق الطعام وكوب الماء على الأرض في الزنزانة ثلاث مرات يومياً. نعم، على الأرضِ مثل الكلب بحُجّة أنه قبل مجيئها بوقتٍ قصيرٍ اندلعت في غرفة الطعام «اضطرابات خطيرة»، ولكن لم يستطعْ أحدٌ القول على مَن كان يشكل ذلك خطراً أو من أية ناحية.

وفجأة رأت آمال في الحلم حارسات السجن بأفواهٍ كبيرة وقد تحولت أيديهن المشعرة إلى مخالبَ وفتحات أنوفهنَّ إلى خياشيم... مسحت آمال جَفْنَيْها. وما زالت «الزرافة» لا تعلم شيئاً عن هذا كله، وكيف لها أن تعلم ذلك؟ فإن الزرافة ذات الشعر الأحمر المتوهج كانت حسنة النية مثل جميع أولئك الذي يأتون إلى السكن صباحاً من أجل العمل معهم: «نحن نريد حقاً مساعدتكم»!، يقولون هذا وهم ينظرون إلينا مشجعين حينما لم نبتسم لهم على الفور بامتنان. المشكلة الوحيدة هي أن هذه النوايا الحسنة في بعض الأحيان قد لا تجدي نفعاً. إذا كان هناك شيء يمكن أن يساعد الناس هنا ويبهجهم ويعيد لهم بعض الثقة المفقودة فإنه ابتسامة «أبو» أو واحدة من طرائفه، أفضل من قضاء ساعة ثقيلة على كرسيٍّ بلاستيكي صلب في مكتب الزرافة.

فُتح باب الغرفة ودخلت نوريج وأومأت لآمال برأسها قليلاً قبل أن تخلع حذاءها وتلبس نعلها الذي كانت قد وضعته صباح اليوم عند المدخل قبل أن تغادر الغرفة. انتبهت آمال إلى نصف الغرفة الأيسر المنظَّم الذي يعود إلى نوريج والذي يبدو مناقضاً تماماً لنصف الغرفة الآخر الذي يعود إليها، بينما كانت غرفتها في بغداد مرتبة جداً على الرغم من أنه كان لديها أشياء أكثر من هنا. استلقت نوريج على سريرها دون أن تتفوه بكلمةٍ واحدة، أدارت وجهها نحو الحائط وقرفصَت ساقيها حتى كادت ركبتاها تلامسان بطنها. بكل هدوء تركتها آمال وشأنها دون أن تسألها عن تمارين الجمباز التي قامت بها ثلاث مرات بالأسبوع، من أجل تخفيف الحرقان في أسفل باطن قدميها، فكلتاهما تعلم أن الحرقان لا يزول في بسط الساقين أو قرفصتهما، ثم إنه لا يمكن تهدئة الحكة في ساق نوريج تحت الغطاء ليلاً أو إيقاف صراخها وفرط تنفسها. كلاهما قررت الصمت مراعاةً لوضعهما، ففي المرة الأولى وبينما استيقظت آمال على بكاء نوريج وذهبت إلى سريرها ووضعت يدها على كتفها لتهدئها، ضربتها نوريج بعنف وبصقت عليها لتشعر بعد أيام لاحقة بالخجل من تصرفها هذا.

في الوقت ذاته، لم تعلم نوريج على الإطلاق بأن آمال كانت تشعر بالخجل أيضاً وتُلقي على نفسها اللوم مراراً وتكراراً لحقيقة أنه كان يجب عليها أن تعلم بأن كل يد توضع على كتف نوريج عند النوم تذكرها بيد جلادها.

رصّت آمال رأس قلمها في الورقة، وقد رسمت نوريج بالفعل في المرة الأولى بهيئة قنفذ بسبب وضعية نومها، ولكن هذا كان من ناحية شكلها الخارجي فقط، لأن نوريج ليست قنفذاً وإنما خروف ملفوف بالجلد.

فقط حينما فُتِحَ الباب ومدَّت «فرس النهر» رأسها في الغرفة لتوزيع الملابس بتنورتها الإسكتلندية، أدركت آمالُ أن الباب قد طُرِقَ. وضعت آمال إصبعها على فمها، وطلبت منها أن تتكلم بهدوء كي لا توقظ نوريج. قطّبت فرس النهر جبينها، وألقت نظرة على نوريج في سريرها ولمحت الغرفة بريبة ثم قالت بصوتٍ عالٍ جداً لا يسع آمال إلا أن تسمعه: «إن مدير السكن يريد أن يلتقيك يا آنسة الشرهاني».

«الآن»؟، سألتها آمال بدهشة.

أومأت فرس النهر برأسها قائلةً: «بعد خمس دقائق في مكتبه».

أُغلق الباب مرة أخرى، تحركتْ نوريج قليلاً ثم نامت ثانيةً. شعرت آمال بدقات قلبها تتسارع.

لماذا يريدون رؤيتها؟ هل اشتكى شخص ما عليها؟ ربما محمد الذي يسكن في الطابق العلوي لأنه سألها عدة مرات عن سبب عدم ارتدائها الحجاب، أو أن صوتها كان عالياً جداً في الممر مساءً حين كان الأطفالُ نياماً؟ ومع ذلك فهي دائماً ما تكون هنا في الغرفة على منضدتها بينما نوريج تمكثُ في سريرها... ولكن قد يكون هناك أيضاً شيء إيجابي، قالت آمال في سرِّها، فوقفتْ وأجبرتْ نفسها على أن تتنفس بعمق. وبغض النظر عما سيدور في اللقاء فإنه ينبغي لها فقط الحفاظ على الهدوء وإظهار الاحترام والبقاء مهذبة. وبمجرد أن أُغلق باب الغرفة خلفها بهدوء أسرعت آمال عبر الممر. في هذه الأثناء أدركت أن آلام ركبتها أصبحت أقل حدة، وهذا أمرٌ جيد مما جعلها تشعرُ بالارتياح، على الأقل من هذه الناحية.

عندما أرادت الجلوس على الكرسي قرب باب مكتب مدير السكن أمام الحائط، اكتشفت آمال حروفاً عربيةً صغيرةً مكتوبة على حافَةِ الكرسي داخل الجلد الممزق: اللّه أكبر، اللّه أكبر. ارتجفت آمال، ترددت، وقررت عدم الجلوس على الكرسي، وبدلاً من ذلك ذهبت نحو النافذة. إن في هذا التوقيت، أي قبل الظهيرة، يكون من المستحيل تقريباً العثور على ممرٍّ هادئ في جميع أنحاء السكن. ولكن هنا في الجناح الجانبي حيث مكتب مدير السكن لا يوجد أحدٌ، وليس هناك لعبة موسيقية على عتبة النافذة مفقودة أثناء اللعب، ولا شيء من أتربة الشارع يمكثُ على المشمع. حتى الرائحة هنا مختلفة، حيث القليل من رائحة التعرق والكثير من عبق البرودة.

كلارا

عندما فُتح الباب الذي يطل على غرفة الزوار تعرفت كلارا مباشرة إلى آمال، ليس فقط بسبب السروال ذي الشق المرقَّع عند ركبتيها، بل بسبب شيء آخر – هل هي كومة الشعر التي تبدو كالبرج خلف رأسها أو السجية الحيوية التي تقترب فيها تلك الغريبة منها؟ رأت كلارا على وجهها دهشةً بلا خوف أو حتى فضول، وسألت نفسها فيما لو ستتعرف إليها نظيرتها التي بادرت وسألت كلارا بالإنكليزية:

«هل نعرف بعضنا بعضاً»؟.

أجابت كلارا مندهشةً من الإنكليزية الجيدة والصوت الواثق من نفسه: نعم، في يوم الأحد قبل تسعة أيام... أومأت الشابة برأسها كأنها تذكرت ذلك.

فقال مدير السكن: «لدينا هنا امرأة عراقية تتناسب مع وصفك، اسمها آمال. سِنُّها إحدى وعشرون سنة، أتت إلينا بمفردها».

«أنا آمال»، قالت آمال على الفور ومدت يدها نحو كلارا.

صافحتها كلارا وقدمت نفسها بأن اسمها كلارا، طبيبة تتحدرُ من برلين، وتساءلت بعد لقائهما مؤخراً في الشارع عن حال آمال وفيما لو أُصيبت... أدركت كلارا كيف تغَيَّر صوتها وأصبح حَذِراً بشكل أكثر: «هل أنتِ بخير»؟، سألت بهدوء ولكن بصوت عالٍ بما فيه الكفاية.

نظرت آمال إليها، رفعت حاجبيها واكتنز فمها بطريقةٍ لم تفهمها كلارا، إنها ليست ابتسامة، ربما سخرية؟ سخرية؟ هل قصدت آمال أن تقول شيئاً من هذا القبيل: أتريدين حقاً أن تعرفي فيما إذا كان كل شيء على ما يرام؟ هل تقصدين بذلك الحادث ذاته، أو حالي هنا في السكن بشكل عام؟ ولكن فجأة ابتسمت آمال بهدوء قائلةً: «أنا بخير»، وأشارت إلى ركبتها اليسرى بأن الأمر بسيط والجرح شُفِيَ تقريباً.

ترددت كلارا بعض الشيء لأنها لا تريد أن تسأل مباشرة، وإنما تريد في الوقت ذاته معرفة المزيد، الأمر الذي جعلها تقاطع آمال أخيراً وتذكر لها أعراضاً محتملةً لترى ما إذا كانت فعلاً متأكدة مما تقول: هل كان هناك صداع في الأيام القليلة الماضية؟ دوارٌ أو قيء؟ ولا حتى اختلال في البصر؟

ابتسمت آمال فجأة وأجابت: «لا، كذلك لم أرَ خيالات، ولا اختلالاً في الذاكرة – وليس هناك اضطرابات كبيرة، أو في الأقل ليس أكثر من ذي قبل». وضعت آمال قدميها بعضهما بجانب بعض وأرادت مازحةً أن تعرف ما إذا كان عليها أن تغلق عينيها وتوجه ببطء السبابة نحو أنفها.

اندهشت كلارا لذلك، إذ كيف لجأت آمال بسرعةٍ وبدقةٍ إلى هذا التشخيص الذي يقوم به الطبيب عادة عند اشتباهه بوجود إصابات في جمجمة الدماغ؟ تُرى هل كانت عند شخصٍ ما وخضعت لفحصٍ طبي؟

«لا، هذا ليس ضرورياً»، أجابت كلارا مُحرَجَةً لأنها أرادت التأكد ليس إلا... ولكن هل فهمت آمال ذلك؟ نظرت كلارا إلى آمال وصارحتها القول: «لقد شعرتُ بالذنب لأني دعستك».

«عليكِ أن لا تشعري بالذنب»!، ردت آمال بكل ثقة وجدية كما لو كانتا تتحدثان عن مسألة مبدأ وليس عن حادث وقع بالفعل.

سكتت كلارا مندهشةً من الشابة آمال ذات الحادي والعشرين ربيعاً والتي بهذا تكون أصغر منها بعشر سنواتٍ تماماً، إذ إنها لا تبدو من أولئك الذين يستسلمون للخوف بسهولة، بل على العكس من ذلك لمست كلارا فيها نوعاً من الإصرار العنيد ومن ذات القوة التي تتمتع بها ناقرة الطبل في الفرقة الموسيقية المفضلة لدى كلارا والتي تنقرُ بقدميها وبعصا النقر بحدة على الطبل مراراً وتكراراً، والتكرار هنا يعبر عن الحرية وليس عن طريق مسدود. لكنها لم تُدرك بأنها هنا هي الضحية، المدَّعى عليه، وهذا ما جالَ في خاطر كلارا الآن عندما أشارت آمال إلى النافذة التي يبدو من خلفها شجر الأسفندان العالي لغرض استكمال حديثهما في الخارج معاً.

وافقت كلارا وذهبتا معاً نحو الباب. وقبل أن تغادرا الغرفة وقفت آمال، التفتتْ إلى كلارا كأنها مَدينةٌ لها بتوضيح شيءٍ ما، فقالت: «أبي طبيبٌ أيضاً – كان طبيباً».

سارتا معاً عَبر ممرٍ طويل، انعطفتا وخرجتا من الأبواب الجانبية المحدثة صريراً عند فتحها. هذا الصرير يُذكِّر كلارا بأبواب المستشفى، فضلاً عن الأرقام الموجودة على اللافتات بجوار إطارات الأبواب. أسرعت آمال خطاها ولفتَ انتباه كلارا الكبار والصغار الموجودون في الممر أو أولئك الذين يلعبون متمتمين قرب الحائط، لذلك لم تسنح

الفرصة لكلارا كي تسأل آمال عن سبب تحدّثها عن أبيها بصيغة الحاضر في بادئ الأمر ثم بصيغة الماضي.

في الخارج أمام السكن وبعد أن سحبت آمال بقوة باب مدخل الثكنة السابقة سألت كلارا نفسها فيما لو أن آمال ستشعر بالبرد بسبب ملابسها تلك التي ترتديها، إذ بدا لكلارا أن بنطال آمال ذا الشق المحشو وبلوزتها الخضراء كانا رقيقين جداً إزاء رياح نيسان التي تعصف بالأشجار. نزلت آمال بسرعةٍ هائلة درجات السلّم الأمامي، انعطفت نحو طريقٍ معبَّد بالحصى واستطردت بأنها تشعر أحياناً هنا ــ مشيرةً إلى السكن ــ بـ«الاختناق جرّاء نقصٍ في الأوكسجين»، الأمر الذي منع كلارا من طرح سؤالها. ربما يكونُ هذا تكتيكٌ من آمال كي تحافظ على حرارة جسدها من خلال المشي السريع أو ضم ذراعيها إلىً جسمها.

إنَّ كلارا التي غالباً ما يقال لها بأنها كأنما في «سباق» {كونها تُسرع في خطواتها أثناء المشي} أعجبها إيقاع خطواتهما المتسارعة التي شكلت معاً معزوفةً من تراصٍّ نعل كلارا الجلدي مع ضربات نعل آمال المطاطي. لم ترتدِ آمال اليوم حذاءها الدانتيلا وإنما زوجاً من الأحذية الرياضية المسطحة، الأمر الذي جعل كلارا تشعرُ نوعاً ما بالارتياح.

«كيف عثرتِ عليَّ»؟، سألتها آمال عند مغادرتهما الشارع الكائن فيه السكن وانعطفتا نحو شارعٍ أوسع وأكثر ازدحاماً.

«سألتُ نفسي عن سبب هروبك بعد حادث الاصطدام بسرعة»، أجابتها كلارا مضيفةً: «عندها تبادر لذهني..»، هنا تحاول كلارا ترتيب صياغة كلامها، «بأنك قد تكونين طالبة لجوء».

نظرت إليها آمال وهزت رأسها ببطء:

«إذن تعرفين الكثير عنا وعن طرائق هروبنا»؟، أجابت آمال وأضافت: «أندهشُ دائماً من كيفية معرفة الناس هنا في ألمانيا بطرائق الهروب ومخاطرها».

لم تفهم كلارا لماذا تتطرق آمال الآن إلى طرائق الهروب فقالت: «أعلم فقط ذلك الجزء الذي تكشفه لنا وسائل الإعلام»، ثم أضافت بحذر: «ولكن ما الذي جعلكِ تتطرقين الآن إلى طرائق الهروب»؟.

وقفت آمال مندهشةً: «ولكنكِ هكذا أي {من خلال هذه الوسيلة} وجدتيني أيضاً، لأنني هربتُ منكِ! ولأنكِ فهمتِ لماذا هربتُ منك».

ما زالت كلارا لم تفهم ما تقصده آمال ولكنها اعتقدت أنه هناك سوء فهم: «اعتقدتُ أنكِ هربتِ مسرعةً خوفاً من أن الحادث سيلقي الضوء بشكل سلبي عليكِ وسيؤثرُ سلباً في طلبكِ في اللجوء».

نظرتْ إليها آمال بدهشة وضحكتْ فجأةً وقالت: «أوه، حقاً؟ في الحقيقة لم يخطر هذا في ذهني! ولكنكِ على حق، ربما كان عليّ أن أفكر في ذلك»؟.

ومن المحتمل أن يكون سؤالها هذا سؤالاً مبَطَّناً بلاغياً نوعاً ما، لأن صوت آمال لا ينمّ عن أنها تلوم نفسها لعدم تفكيرها بذلك.

«بماذا فكرتِ إذن»؟، سألتها كلارا بفضول واضح.

اختفت ملامح الضحك عن وجه آمال ونظرت صوب الأرض وقالت: «حقاً لم أفكر بأي شيء». ثم واصلت السير وأردفتْ: «هروبي منكِ كان له علاقة بهروبي الأول، الفاشل». تنحنحت آمال وتحدثت بهدوء: «مكثنا على الحدود التركية ليلاً على مقربةٍ من اليونان. كنتُ مستلقيةً على الأرض وشعرتُ فجأة بضربة في أضلعي حينما ناداني سامي، الشاب الذي سافرتُ معه، قائلاً: «اركضي، لقد أتوا!»، وركضتُ حسب الاتفاق: «اركضي عندما يصادفك أحد»!، وركضتُ عبر الغابة إلى الحدود، ركضتُ بكل ما أُوتيتُ من سرعة، ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا لم يُجْدِ نفعاً..»، انحسرَ صوتُ آمال ومدتْ يديها في الهواء الطلق قبل أن تقبضهما.

«أفهمُ ذلك»، قالت كلارا ببطء وهي تواصل السير والتفكير معاً: إن السرعة التي تغير مشاعر الهزل والجِد لدى آمال كانت عالية بصورة غير طبيعية.

مرّت كلتاهما من أمام المنازل ذات الواجهات البنية القذرة المزرية والمزاريب المكسورة والحدائق الأمامية المقفرة التي تبدو كأنها مهجورة، بل وقد لا تكون هناك أضواء خلف النوافذ أصلاً أو حتى ستائر مفتوحة. إنَّ المشهد هذا وَلَّدَ لدى كلارا شعوراً كئيباً جعل هذا السكن أو الثكنة المرممة بطلائها الأبيض تبدو أكثر مقبولية وأنسب على الأقل من ناحية منظرها الخارجي.

تأملت كلارا الكيفية التي ينبغي للون البني الباهت الممل أن يؤثر في آمال، لا سيما وأن هذا الشارع هو الرابط الوحيد بين السكن والمحلات التجارية في مركز المدينة. تُرى هل يستعمل العراقيون في البناء أيضاً هذا الجص القاسي الذي تعتبره كلارا دائماً تعبيراً نموذجياً عن ضيق الأفق الألماني؟ حتى عندما أخبرها تارون ذات مرة بالفوائد الكثيرة لهذه المادة: بأنها تقي من تقلبات الطقس وتساعد على العزل الحراري ومن السهل نسبياً العناية بها، ما كان على كلارا إلا أن تضحك موضّحةً أن هذه المادة ممكن أن تكون عملية ولكن فقط في عيون أولئك الذين يجدون جمالها يكمن في مدى فائدتها للبناء.

«من أين أنت بالضبط»؟، سألتها كلارا، أجابتها آمال: «من بغداد، مدينة في العراق».

«بغداد»، كررت كلارا ذلك، لم يقُلْ مدير السكن بأن آمال تأتي مباشرة من العاصمة العراقية. مرّت أمام كلارا صُوَر شتى، صور لأخبارٍ خاطفة: سقوط تمثال صدام، سيارات مفخخة على جانبي الطريق، هروب المارة... بالإضافة إلى نمط شريط الأخبار والكلمات الرئيسة والعناوين الفرعية: البلد في حالة فوضى... جلاء آخر ما تبقى من القوات الأمريكية... بعد عشر سنوات من الغزو العسكري بقيادة بوش... تصاعد حدة التوتر... الأقلية السنية... الحكومة... الوزراء... الميليشيات... الأئمة... تصعيد... تعصب ــ ثم قاطعت كلارا سيل الصور والكلمات في رأسها قائلةً: «كيف لكِ أن تتحدثي باللغة الإنكليزية جيداً هكذا»؟.

لم تُجِبْ آمال مباشرةً، بل تأكدت أولاً من وضع عقدة شعرها جيداً قبل أن توضح احتمالية وجود المزيد من الكتب عن بابل والحضارة السومرية باللغة الإنكليزية والعربية أو حتى الألمانية، ثم ضحكت قائلةً: «وقد كُتِبَ الكثير عن بابل باللغة الألمانية وكذلك العربية»!.

حاولت كلارا أن تواصل الحديث معها: نعم بالتأكيد، بابل وبلاد ما بين النهرين، الفرات ودجلة. إنها تلك المدن الأثرية نينوى، وبابل، وأور... لكنها في الحقيقة لا تعرف عن ماذا ينبغي لها أن تسأل أولاً، لا سيما حينما أدركت آمال بنفسها أن جوابها سيثير في الوقت ذاته أسئلةً أخرى.

«أمي هي منقبة آثار»، بادرت آمال بالقول: «عَمِلَتْ سابقاً في المتحف الوطني حتى عادت حكومة صدام لا ترغب في وجودها هناك، ومنذ ذلك الحين درَّسَتْ في الجامعة فقط».

«فقط»؟، كررت كلارا ذلك وهي ترى كيف يسرع والدها صباحاً إلى سيارته متأبِّطاً كومة الورق.

«لو كنتِ منقبة آثار هل سترغبين في أن تتناولي الماضي بين يديك وتتحسسيه بأصابعكِ»؟، قالت آمال ذلك ورفعت يديها عالياً كأنها تحملُ وعاءً انتشِل للتو.

«وهل كان ذلك ممكناً في المتحف»؟، تحاول كلارا معرفة ذلك.

أومأت آمال برأسها: «في الأرشيف، نعم. وَوُرش عمل الإصلاح والترميم كذلك. في الأقل لغاية سلب المتاحف وإغلاق الأرشيف بعد الاحتلال الأمريكي للعراق». نظرتْ إلى السماء وغاصت في ذكرياتها أو أمسكت هي بها.

واصلتا السَّيْر معاً وانتظرتْ كلارا ولم تطرح السؤال التالي على الفور بل أخذتْ تتصتُ لإيقاع خطواتهما ولا سيما لذلك الصدى الخفيف لحذاء آمال الرياضي حينما يلامس إسفلت الشارع.

وبعد مدةٍ وجيزة سألتها كلارا: «أما زالت أمكِ في بغداد»؟، التفتت آمال إليها وابتسمتْ كما لو كانت قد توقعت السؤال هذا أو كأنما لمست شيئاً ما كانت تفكرُ به آمال للتو، ثم أجابت:

«نعم».

«وأبوك»؟، سألتها كلارا.

وقفت حينها آمال وقالت: «أبي اختفى، لذلك أنا هنا».

عندها حاولت كلارا أن تستكمل الحديث معها وتَلحق بآمال التي أسرعت خطاها ثانيةً. والدة آمال ما تزال في العراق، والدها اختفى هناك، وهي الآن هنا في ألمانيا. ولكن ماذا يعني اختفى؟ هل يعني اختُطِف، أو قُتِلَ، أو أنه اختفى من تلقاء نفسه؟ هل لدى آمال أشقاء؟ ألا تكون العائلة ذات الطفل الوحيد في العراق أمراً غير مألوف؟

«في الصيف الماضي، في يوليو»، بدأت آمال حديثها باللغة الإنكليزية التي تدلُّ على أنها لم تتحدث مع نفسها: «لم يعد والدي إلى المنزل في إحدى الليالي بعد انتهائه من العمل. انتظرناه، بحثنا عنه، سألنا عنه، ولكن دون جدوى. وحتى يومنا هذا لم نعثر عليه».

«هل أُختُطِفَ»؟، سألتها كلارا بحذر.

رفعت آمال كتفيها: «عندما يتعلق الأمر بالمال، فعادةً ما يتصل الخاطفون على الفور»، أخذتْ نَفَساً عميقاً وواصلت القول: «إما أن يكون ميتاً منذ وقت طويل أو أنه في قبضة أناسٍ متَنَفِّذين يرجون منه فائدةً لهم».

«ومَن ممكنٌ أن يكونوا هؤلاء»؟، سألتها كلارا.

التفتت إليها آمال ونظرتْ بوجهٍ متألم: «أتعلمين كم فكّرنا أنا وأمي في ذلك؟ إنه أمرٌ مبهمٌ»!، عندها صرخت عالياً: «أثناء حكم صدام بقِيَ والدي قدر الإمكان بعيداً عن الأنظار، فأتباع صدام غضّوا النظر عنه لأنه كان يُجري لهم عمليات ورم الكبد ليس إلا». مسحتْ آمال على شعر رأسها وتسريحتها: «جدتي أُمُّ أبي في أواخر الستينيات من العمر، حُكِمَ عليها بالإعدام وفق محاكمة صورية بعد مدةٍ وجيزة من تسلم حزب البعث الحكم وعُلِّقت عَلَناً أمام الناس لأنها كانت شيوعية! أي عدوة للشعب! وتنحدرُ من عائلةٍ سُنيةٍ مرموقة! منذ ذلك الحين وحتى الآن التصقَ هذا «العيب» بوالدي، وبنا جميعاً. والدي كان يقول دائما أن يديه الهادئة والمشرط هم مَن أنقذوا حياته. فعندما حُكِمت والدته آنذاك كان لا يزال هو في طور التدريب ويعمل في عيادة طبيبٍ متنفذ».

خمَّنت كلارا أنه جراحٌ متمكنٌ، مثلها.

واصلت آمال حديثها: «إبّان الغزو الأمريكي للعراق قبل عشر سنوات طلبَ الأصدقاء والزملاء والناس كافة الذين عاشوا حياةً صعبة تحت حكم صدام، من أبي وأمي «راوية» أن يخوضوا في غمار السياسة، لكن والدي لم يرغب في ذلك ورفضه لسنوات عدة، لكن أمي أقنعته بضرورة مشاركته في بناء بلدنا وأن لا ينسحب من مسؤوليته تجاهه كي يوجهه نحو مسار الديمقراطية ويمنع كل ما هو عكس ذلك..».. في أثناء ذلك بدا على آمال التأثر وتولّد لدى كلارا انطباعاً بأن آمال لم تتحدث في الغالب عن والدها، لكن من المهم لها أن تستمر الآن في سرد القصة بعد أن كانت بدأت بها. استجمعت آمال قواها ثانيةً وواصلت حديثها: «عندما انتفض الناس في القاهرة وبعدها بقليل في سوريا ضد حكوماتهم في شهر آذار قبل سنتين تقريباً انتمى أبي إلى حزبٍ يُعنى بالديمقراطية وحقوق الإنسان. وبعد بضعة أشهر أصبح عضواً في البرلمان المحلي، ثم في الصيف الماضي، وتحديداً في يونيو 2012، دُعِي والدي إلى حوارٍ مع المتمردين المتطرفين في مناقشةٍ عامة جرت بعد وقتٍ قصيرٍ من حدوث تفجير انتحاري بالقرب من مستشفاه. حينها قال أبي إن «هؤلاء الناس يهددون دولتنا وحريتنا وأمننا، ولذلك ينبغي أن نتحاور معهم»». مسحتْ آمال جبينها: «بعد عشرة أيام من ذلك اختفى أبي».

صمتت كلارا.

ثم واصلت آمال القول: «إن كان للحوار علاقة بحادث الاختفاء فهذا غير مؤكد ولكنه ممكن. ربما خطفه المتمردون ليوضحوا له أنَّ لغة الحوار لا تنفع معهم، أو لكي يضغطوا على الحكومة كي تُفرج عن أتباعهم لديها، وربما احتجزه الأمن السري لأن الحكومة تخشى أن يكون لوالدي علاقات واسعة بالفعل». أومأت آمال برأسها: «إنه شيءٍ مِحير جداً. في بلدنا تجري الكثير من حالات الحجز سراً، أتفهمين ذلك؟ أحياناً وفي حالاتٍ نادرة جداً نسمع عن حالة اختطاف تم بعدها تحت الضغط إطلاق سراح المُختَطف حينما يحالفه الحظ ويبقى على قيد الحياة، ولكن حتى هذا يتم خلف أبوابٍ موصدة وبوساطة أطرافٍ ثالثة خَفِيّة ليس إلا. (أمسكت رقبتها) راوية عملت كل ما في وسعها من أجل أن تحصل على أدنى معلومة عنه، ذهبتْ إلى الشرطة وتحدثتْ مع صحفي يتابع نشاطات المتمردين منذ سنوات، كذلك صديقتها نهرين التي تعمل محامية وناشطة في حقوق المرأة ولديها اتصالاتٍ مع السجون سألتْ عنه هناك وفي السجون الخاصة أيضاً ولكن دون جدوى. لم نعثر على أي أثر له». تباطأت خطوات آمال عندما قالت: «لا نعرف حتى لمَن كان والدي يُجري العمليات كل يوم أو مَن كان يريد إسكاته ليصمت ولماذا».

عصفت الريح بأغصان الأشجار على حافة الطريق وأسقطت عَلماً أو مظلةً.

«هناك شيءٌ واحد فقط مؤكد لنا وهو أن والدي منذ ذلك المساء في الصيف لا أثرَ له»، أضافت آمال بصوتٍ منخفض.

تأمَّلت كلارا آمال جانباً وتساءلت ما إذا كان عليهما الجلوس للحظة وأخذ قسطاً من الراحة، ولكن يبدو أن آمال بحاجة إلى المشي والحركة وإيقاع الخطى وإلى ملامسة الرياح لبشرتها. إن والد آمال الطبيب ومهنته جعلا كلارا تتذكر ما قاله لها والدها ذات يوم: بأن أفضل شيء في {تلك المهنة} هو «عالميتها». بعد برهةٍ من الوقت سألتها كلارا: «هل فكّر والدك يوماً ما بمغادرة العراق»؟.

استمرت آمال بالنظر أمامها وأجابت بسرعة الريح: «اقترحَ ذلك لمراتٍ عدة لكن راوية رفضت ذلك»، أدارت وجهها صوب كلارا، «أتعرفين أن أمي مناضِلة؟ إذ أثناء عملها في المتحف أُقصِيَتْ وأُنْزِلتْ درجتها الوظيفية لكن ذلك لم يثْنِ من إرادتها، بالعكس، فقد أصبح شعارها حينها الإصرار الآن أكثر من أي وقت مضى». ثم واصلت حديثها بفخر عالٍ مفاجئ: «عاودت مهنة التدريس في الجامعة وأخذتْ تحفز وعي الطلبة على حالة مدن التنقيبات الأثرية، كتبتْ مقالات عدة في الصحف، انضمتْ إلى فرق حقوق الإنسان وقامتْ مع زميلتها نهرين بزياراتٍ إلى ملاجئ النساء. (توقفت قليلاً) راوية تحب بلدها: حضارته، وتاريخه، وتربته البنية، لذا هي ليست على استعداد كي تتخلى عن ذلك لأي سببٍ تافهٍ، مثلما كانت تقول ذلك دوماً وباستمرار (مشددةً آمال على ذلك لكن نبرة صوتها لم تسعفها أكثر)».

ثم أكملت آمال بسرعة: «لكن لو تسأليني فإنني أعتقد أن ذلك كله، بما فيه التزام راوية ورفضها سنيناً طوال أن تغادر بلدها، كان السبب الرئيس وراء حثها لي بالهروب بعد اختفاء والدي، إذ قالت لي: اذهبي ما دمتِ تستطيعين ذلك! توسلت إلي بطريقة لم ألمحها فيها من قبل قائلةً: افعلي ذلك من أجلنا جميعاً، آمال إن كنتُ أنا لا أستطيع المجيء معك بسبب جدتك ومرضها بداء السكر فأنتِ تستطيعين ذلك، في الأقل واحدة منا يجب أن تقوم بـ..». (لم تكمل آمال باقي العبارة وربما والدتها كذلك، لكن كلارا تستطيع أن تتخيل البقية).

أضافت آمال: «كما لو كان على راوية الآن القيام بمفردها لما كان من المحتمل لوالدي أن يقوم به أو قام به فعلاً في الماضي. في سنواتي الدراسية الأخيرة سألني والدي مرات عدة فيما لو كنتُ أريد حقاً إكمال دراستي في بغداد وليس في الخارج. (أومأت برأسها) كما لو كنتُ قد تركتُ والديَّ وجدتي وشأنهما في ذلك الوقت بالفعل. حينها لم أضع ذلك في الحسبان. وجدتُ راوية آنذاك أن رفضي حتى لمناقشة الموضوع أمرٌ مفهوم. آنذاك تفهمتُ راوية حتى رفضي لمناقشة الموضوع، إلى أن اختفى والدي وإذا بها تقوم فجأة بما كان على والدي القيام به وقتئذ، كأنما توجب عليها، وهي المرأة التي تعرف دائماً أين ينبغي لمكانها أن يكون بالضبط، أن تحل محله فجأة. أتفهمين ذلك»؟

أومأت كلارا برأسها ببطء، نعم إنها تعلم ماذا كانت تقصد أمها. أليس هو نفس السبب الذي دفع جدتها بعد وفاة زوجها أن تسلك نفس طريق زوجها على الرغم من أن المسارات المتشابكة كانت مريبة بالنسبة إليها، ولماذا بدأت بقراءة الكتب المُلقاة على منضدة زوجها واحداً تلو الآخر قبل وفاته بشهورٍ عدة؟

«إن والدتكِ تريد أن تتبع والدكِ حيثما تستطيعُ ذلك»، أجابتها كلارا.

عندها ابتسمت آمال، أومأت برأسها بابتسامة حزينة متفهمة وقالت وهما تواصلان السير معاً: «شكراً لكِ كلاراا».

فرحت كلارا بذلك وأعجبتها الطريقة التي ذكرت فيها آمال اسمها بلفظ حرف الـ «ا» طويلاً.

مرّت كلتاهما من أمام محلٍّ مكتوب عند مدخله على اللوحة بالطباشير: «نقانق الصوصج وهاتف وإنترنت مجاني»، وعلى اليسار مرسوم فوق الكلمات صوصج تتصاعد منه أبخرة شواء وبجانبه مباشرة على اليمين مرسومة سماعة هاتف بسلكها المتعرج، وأذنٌ تنبثق منها موجات صوتية. ظنت كلارا أن لغة الرسومات تلك هي من أجل أولئك الذين ليست لديهم المقدرة على قراءة اللغة الألمانية، وهنا تودُ أن تعرف فيما لو أن آمال على تواصلٍ منتظم مع والدتها.

أكدت لها آمال ذلك: «نحن نتبادل الكتابة معاً وأحياناً نتصل عبر برنامج سكايب عندما يكون ذلك ممكناً».

«وهل هذا ممكنٌ في السكن»؟، سألتها كلارا.

أومأت آمال برأسها موضّحةً أنه يوجد في السكن اتصال عبر شبكة الإنترنت، ولكن هناك جهاز كمبيوتر واحد محظورةٌ منه معظم الأشياء: «هناك يمكنك إجراء البحث، ولكن لا يمكنك إجراء مكالمات هاتفية». لذا يتوجب عليها الذهاب إلى مقهى الإنترنت قرب محطة القطار، «على الرغم من أن المكالمات الهاتفية هناك مكلفة ولكنها ليست باهظة الثمن كما هي عليه هنا»، أوضحت آمال مشيرةً إلى المحل الذي تركتاه للتو خلفهما.

اقتربت كلتاهما من شارع التسوق الذي يمرُّ من خلاله خط الحافلة الذي ذهبت به كلارا من محطة القطار إلى السكن، ولأن جملة آمال الأخيرة عن مقهى الإنترنت لا تزال عالقة في ذهن كلارا، سألتها تلك: «ألديك جهاز كمبيوتر خاص بك أم لا»؟، أومأت آمال رأسها، فقاطعتها كلارا قائلةً: «ولكن مع جهاز كمبيوتر محمول يمكنك أن تتحدثي مع أمك من غرفتك في السكن»؟.

رفعت آمال منكبيها مجيبةً بأنها لا تعلم سبب عدم نجاح ذلك، بل كَلّا، صححت لنفسها بأنها متأكدةٌ أن هناك عائلة تعيش في السكن منذ مدة أطول منها تتحدث هكذا مع أقاربها كل مساء.

عندها قالت كلارا عالياً: «إذن لدي فكرة»!، ثم انتبهت إلى تخفيف حدة نبرتها المفاجئة قائلةً: «لديَّ في البيت كمبيوتر محمول لم أستخدمه منذ مدة طويلة قد يعمل ببطء وبإمكانيات محدودة ولكن يوجد فيه برنامج سكايب»، توقفت عن الحديث لأنها تريد التأكد من العثور على النغمة الصحيحة للتعبير ثم أردفت: «أود أن أعيره لكِ، لأن بقاءه لديَّ يزيده غباراً ليس إلا، إذا كنتِ تستطيعين استخدامه»؟. تركت كلارا جملتها تلك معلقةً هكذا بصيغة سؤال.

في بادئ الأمر نظرت إليها آمال ولم تُعقّب ثم قالت أخيراً: «حسناً»، مع حركة في زوايا فمها فسَّرتها كلارا تعبيراً عن السعادة بشيء ما.

أخرجت كلارا واحداً من الإيصالات التي تحتفظ بها في جيبها، بحثت عن قلم وطلبت من آمال أن تكتب لها عنوانها البريدي. وضعت آمال ورقة الإيصال على فخذها ورصَّتْ القلم على يمين الورقة قبل أن تتذكر الكتابة بمحاذاة الجانب الأيسر من الورقة، ثم كتبتْ عنوانها البريدي على حساب {جي ميل} متضمناً اسمها: آمال الشرهاني، بحروفٍ كبيرة جميلة مائلة بعض الشيء. شكرتها كلارا وأخبرتها وهي تعيد الورقة إلى جيبها بأنها ستكتب لها هذا المساء لتبلغها متى ستجلب الكمبيوتر لها في الأيام القليلة القادمة: «حينها يمكنك إبلاغي ما إذا كان {الموعد} يناسبك». قلصت آمال عضلات جبينها ولم تتمكن من إخفاء مسحة السخرية القليلة عنها حينما أجابت: «سأفعل ذلك. على أية حال، أنا هنا باستمرار».

بالنسبة إلى آمال بدا أن وقت الوداع قد حان، مدت يدها نحو كلارا ـ للمرة الثانية في اليوم ذاته ـ مما فهمته كلارا على أنه طلبٌ للوداع، أو ربما سمعت آمال قبلها منبه الباص الذي سمعته كلارا الآن أيضاً، التفتت وراءها ـ لتجد أنه فعلاً الباص الذي يتوجه صوب محطة القطار. تكرر صفير المنبه العالي مراتٍ عدة وبنفاد صبر، حتى قفزَ من موقف محطة انتظار الحافلات على الرصيف شابان اثنان كانا في حالةِ ذعر. انطلقَ الباص وأطلقَ السائق صفارة المنبه مرة أخرى ولكن ربما الآن بدافع الغضب بحيث إنه لم يمنح كلارا وآمال فرصةً لقول شيءٍ واضحٍ مؤكد أو حتى لقول شيء لا معنى له في تلك اللحظة الحرجة التي لا يعرف فيها الواحد بالضبط كيف يودع الآخر. تصافحت كلارا وآمال معاً كأنهن محصلات تذاكر يتناوبن أوقات عملهن. أسرعت كلارا نحو الباص وعندما وقفت على حافة الباب التفتت وأومأت إلى آمال التي أومأت لها كذلك، وقبل أن يغادر الباص أدخلت يديها في جيبها وانطلق الباص عبر ذات الشارع الذي كانت كلتاهما تتبادل أطراف الحديث فيه.

انطلق الباص المملوء بالكامل ومرَّ شيءٌ ما بسرعةٍ بالغة بالنسبة إلى كلارا الآن، ففي الواقع كانت تود أن تبقى مدةً أطول وتسأل عن هذا وذاك، أو أن تدعو آمال لتناول العشاء أو لشرب القهوة معها، لكنها في الوقت ذاته شعرت أن عدم قيامها بهذا كله وافتراقهما عند قدوم الباص هو أمرٌ صائبٌ لعدم جعل الموقف معقدٍ بشكلٍ أكثر، فإنهما سيلتقيان حتماً مرةً أخرى وفي وقت قريب.

آمال

ما زالت لم تفهم ما أصابها: ذلك الحديث المفاجئ مع شخص غريب عنها! لكن الوثوق بكلارا لم يكن أمراً خاطئاً، إذ كلارا ليست بالشخص الخطير، وهذا ما لمسته عند الترحيب بها والاستماع إلى صوتها الناعم الذي يشبه صهيلَ الحصان، هكذا لطيفٌ وهادئ، بالإضافة إلى عينيها الزرقاوين مثل بحرٍ جليدي. إن كلارا هذه نبيلة كالحيوان النادر، قوامها ممشوقٌ كالمهرة ذات السيقان الطويلة الرقيقة وشعرها كشعر الخراف من دون أن يكون لها رأس خروف، لأن كلارا ليست غبية وفي الوقت ذاته ليست عدائية. إنها فقط تنتظر اللحظة المناسبة لتوفر فيها الشيء اللازم للآخرين: «جهاز الكمبيوتر الخاص بي»!، إنها تنطلق حينما تشعر بالأمان. كما أنها شعرت بالأمان لأنها كانت قد استمعت إليها مسبقاً، أي إلى آمال، وتحديداً إلى كلامها حول راوية وأبيها ـ نعم إنها تحدثت حتى عن أبيها على الرغم من الألم الذي يثيره دائماً التفكير فيه: «إن الزمن لا يُمهد لكِ، بل يُداهمكِ فجأة»، هذا ما قالته لها نهرين آنذاك بين نفثتين على سيجارتها، وكانت جادة في ذلك على الرغم من اللا مبالاة الاستفزازية في صوتها التي انعكست على يديها اللتين أومأت بهما بحدة ومدّتهما إلى المنضدة مراراً وتكراراً: «آمال، إذا ذهبتِ فإن ذلك سوف يغيركِ»!، بقيت آمال واقفةً على الرصيف تفكرُ مرةً أخرى في تلك الأمسية التي سبقت هروبها الأول بقليل عندما أفصحت راوية على طاولة المطبخ بأن «لا أحد من عائلتها في أمان». أومأت نهرين بأكتافها وسحبت سيجارتها مجيبةً بأن ذلك صحيحٌ بالتأكيد، إذ إن اختفاء حسن زادَ من الخطر على راوية وآمال، وقد ارتفع مستوى مقياس الخطر من X إلى Y، ولكن في النهاية أكدت نهرين أنه إذا كان المتغيران «مجهُولَي الثقل»، وإذا كان ينبغي للمرء أن يجعل حياته «متعلقةً بهما»، فإن هذا مسألةٌ أخرى.

«لكن القطة»!، قالت راوية بغضب. نعم، القطة كانت غادرة، لأنه كان من المستحيل معرفة ما إذا كانت هي مجرد قطة ميتة أو رسالة تحذير. فبعد أيام قليلة من اختفاء الأب وُجِدَت القطة في الصباح ميتة فجأة ومُلقاة أرجلها أمامها قرب باب الدار، ولم يبدُ أنها ماتت إثر إصابتها بداء الكلب أو بالتسمم. هل ماتت القطة هنَاك على أعتاب السلم موتاً طبيعياً؟ هل ذهبتْ إلى هناك من أجل الموت، حيثما كانت راوية تضع في كثير من الأحيان وعاءَ ماءٍ للقطط الضالة في المنطقة، أو قام شخصٌ ما في الليل بوضع القطة الميتة هناك وأراد لها ذلك ـ ارتعشت آمال من الفكرة تلك. لا، هم فقط لا يعلمون. فمن المحتمل أن وفاة القطة كانت مجرد صدفة أو من المحتمل ليست صدفة، لأن راوية كانت محبوبة لدى قطط المنطقة، وربما كان ذلك صدفةً من ناحية الوقت على الأقل، أي ليس ببعيد عن زمن اختفاء الأب، ربما، ولكن ماذا يعني ذلك، ففي النهاية حتى «ربما» هي «مجهولة الثقل»... واصلتْ آمال السير وشعرتْ كأن موجة غضب تسيطر عليها: فلماذا تفكر الآن في هذا كله على الإطلاق: القطة، نهرين ونقاش نهرين مع راوية، أعلى نقاش شهدته بينهما والذي لا يثير فقط التساؤل العقيم عما إذا كان عليها آنذاك التصرف بشكلٍ مختلف، بل الأسوأ من ذلك هو أنه ممكن أن يعطي انطباعاً بأن راوية هي مَن حثتها على الهروب ـ إن لم تكن أجبرتها عليه ـ وهذا بدا تقريباً من قصتها لكلارا! عندها أدركت آمال فجأة سبب غضبها وحاجتها إلى تصحيح شيء ما: فهل أساءت إلى راوية حينما سردت قصتها أمام كلارا وأيقظت لديها انطباعاً خاطئاً عنها، أو لأن كل ما أخبرت به كلارا عن هروبها كان نصف الحقيقة؟ نعم، هذا صحيح، فالتغيير المفاجئ في دور راوية وحججها بشأن الأمان و«منظور الحرية» ما هي إلا حجج عرفتها آمال آنذاك من والدها وكانت مفاجِئة ومحيرة لها ولكنها بالتأكيد لم تكن حججاً حاسمةً لهروبها، بل إن ما كان حاسماً هو تلك اللحظات التي تلت اكتشاف القطة أو لحظات ذلك الصباح الذي تلا اختفاء أبيها، والتي كانت المرة الأولى في حياتها التي تلمحُ فيها الخوف عارياً هكذا في عيون راوية، والدتها التي كان لديها أسباب عدة للخوف في حياتها وعلى الرغم من ذلك لم تدعه يهزمها أو يهيمن عليها ولا لمرةٍ واحدة. ولكن فجأة شعرت راوية تلك بالخوف مما جعل آمال تشعرُ بالخوف أيضاً وتدرك أن الوثوق ـ بالشوارع وسكان الحي ـ ينبغي ألا يُخلط مع الأمان.

وقفت آمال عند التقاطع وحاولت أن تركز على ما هي عليه هنا والآن وقرأت لوحات الشارع الإرشادية، ولكن ما إن اجتازت خطوط العبور حتى نسيت اسم الشارع وهي لا تزال مستاءة جداً لما حدث، لأنها لم تعتَدِ التحدث بالتفصيل عن نفسها وعن ظروف هروبها ـ وهل تحدثت أساساً في وقتٍ ما إلى أحدٍ هنا في ألمانيا بالتفصيل عن والدها، وعن راوية، وعن الوقت الذي سبق هروبها مباشرةً؟ ففي جلسة الاستماع أمام المسؤول المختص دار الحديث عن أبيها ودوره السياسي واختفائه المبهم، أما البحث الحثيث الذي أجرته راوية عنه فإنه لم يُثر اهتمام ذلك المسؤول. ثم إنها لم تتحدث إلى نوريج و«أبو» عن اختفاء والدها سوى بجملة واحدة فقط دون زيادة.

كل شخص في السكن لديه قصته ولا يسأل الآخر بسذاجة عن أي شيء. بالطبع إن مسيرات الهروب أو العبور بالقوارب وكذلك الأشخاص الذين تُركوا وراءهم يمثلون مواضيعَ تستحق {التحدث عنها} في بعض الأحيان، ولكن لم يُتطرَّق إلى أسباب الهروب. ألم تكن ملموسةً وواضحة، أو أنها كانت قهرية جداً لدرجة أن البعض هنا رغم بُعده لا يرغب في التحدث عنها حتى وإن كان ذلك، كما تعلم آمال، مطلوباً في جلسة الاستماع؟ ثم إنها تعلم أيضاً أن التحدث في لغةٍ أجنبية يساعد كثيراً في مثل هذه الحالة، وهذا ما لمسته في جلسة الاستماع إليها: كما لو كان المرء يتحدث عن نفسه ويراقب كل شيء عن بُعد، في حين يكون الأمرُ أصعب على أولئك الذين يتكلمون بلغة الأم فقط ولا يجيدون اللغة الألمانية أو الإنكليزية على حد سواء، ويعتمدون على المترجمين الشفويين فقط.

بعد أن اجتازت آمال التقاطع قرأت وللمرة الثانية اسم الشارع الذي دخلت فيه الآن: إنه شارع غوته، وهو في الحقيقة ثاني فنان ألماني في المنطقة، فعلى مقربةٍ من محطة الحافلات يوجد هناك شارعٌ اسمه «بيتهوفن»، وليس بعيداً عن المحطة يوجد أيضاً شارعٌ يحمل اسم ألبرت أينشتاين.

إن آمال تحب احترام الفنانين والعلماء والتعبير عنهم هكذا، ففي مركز برلين اكتشفت ذات مرة شارعاً يحمل اسم عالم آثار كبير، إلا أنها تجد من المؤسف حقاً أن هناك الكثير من الشوارع في بغداد، لا سيما الأزقة الصغيرة في المناطق السكنية لا تحمل أسماءً وإنما أرقاماً فقط، كأنها ذات قيمةٍ أقل وغير جديرة بأن تحمل أسماءً شخصية، كما هو حال تلك الشوارع المشجرة الكبيرة الواقعة على نهر دجلة وفي مركز المدينة أو الطرق السريعة الخرسانية التي يحمل معظمها أسماء مدن أو أبطال حروب. وإذا عادت يوما ما فإنها سوف تسعى إلى أن يقوم سكان المناطق بأنفسهم بتسمية شوارع مدنهم بما يتناسب مع أذواقهم! مضت هذه الفكرة في بالها إلا أن عقلها استبعدها على الفور مع أنها تعلم أنه قد فات الأوان لذلك. وعندما وصلت إلى مدخل السكن رأت آمال في نفس اللحظة مدير السكن يخرج من الباب الأمامي للسكن نحو الهواء الطلق. توقف هذا ونظر حوله باحثاً على ما يبدو عن سيارته الحمراء الواقفة بمفردها في موقف السيارات كأنه ينتظر شيئاً ما. ترددت آمال قليلاً ثم واصلت المشي وأدركت أن المدير رآها فتوجه صوبها واقترب منها في خطوات كبيرة. رحب بها قليلاً، مسح فمه، حاولَ أن يبتسم بلطف ثم سألها عن حديثها مع المرأة الشابة التي سألت عنها في الصباح، آملاً أن يكون كل شيء مرَّ على ما يرام. أومأت آمال برأسها بأن كل شيء سارَ على ما يرام، ولكن على ما يبدو لم تكن الإجابة تلك كافيةً بالنسبة إلى المدير، قدّم رجليه الواحدة على الأخرى والحصى تسحَق تحتهما. وبينما صوته أصبح جافاً بعض الشيء كان عليه أن يبلغ آمال بأنه غير مسموح لها العمل الآن: «أعلمُ أنه أمرٌ صعبٌ، صعبٌ لأسباب عدة ولكن ينبغي عليكِ أن تلتزمي بحظر العمل ما دام أنه لم يُبَتّ القرار بشأن طلبك حتى الآن» (مسح فمه ثانيةً). نظرت آمال إلى المدير بدهشة، إذ كيف خَطرَ بذهنه شيء كهذا؟ فهل كان ممكناً أن تكون كلارا عرضت عليها وظيفةً ما؟ ثم ألم تخبر كلارا المدير بالحادث؟ لماذا ـ من أجل أن تحميها؟ ألم تعتقد كلارا بأنها ستكون غير مرتاحة بشأن الحادث... بحسب ما تتذكره آمال.

«سبقَ لي وأبلغتُ المرأة الشابة بذلك عند الصباح عندما قالت لي بأنها تشعرُ بالمسؤولية تجاهكِ بسبب هذا الحادث البسيط»، قال المدير ذلك وبدأت آمال تفهم الأمر شيئاً فشيئاً.

من الواضح أن المدير يفكر بالمستقبل ويرى سيناريوهات في باله يتوجب عليه منعها، فأرادت آمال أن تسأله شيئاً ما ولكن يبدو أن الأمر قد انتهى بالنسبة إليه إذ إنه رفع يده وتمنى لها يوماً جميلاً: «اعتنِ بنفسكِ جيداً»!، أدار وجهه، أسرع خطاه وارتجل سيارته. نظرت آمال إليه وتمنت فجأة لو كان لديها شبكة صيد كي تصطاده بها، فهو السمكة الهاربة المنزلقة وهي الصياد، في القارب، على الماء.

عندما جلستْ على منضدتها في غرفتها الصغيرة بعد ظهيرة ذلك اليوم كانت نوريج ما تزال نائمة، فقررت آمال أن تغادر السكن مرة أخرى وتذهب إلى مقهى الإنترنت لتتحدث مع راوية وتخبرها عما حدث لها اليوم وإلى مَن تعرفت. في أثناء ذلك حجبت سحابة رمادية أشعة شمس الصباح، فخرجت آمال في الهواء الطلق، أقفلت سترتها المطرية ووضعت يديها في جيوبها.

في المقهى توجب عليها الانتظار لحين انتهاء الرجال الثلاثة الجالسين في الخلف من جهازي الكمبيوتر، إذ إنهما المكانان الوحيدان اللذان فُصِلَا بلوحٍ خشبي مضغوط عالٍ حتى الرأس بحيث يمكن التحدث منهما بصوت معتدل. إن آمال تعرف هؤلاء الرجال أو في الأقل أصدقائهم (رفاقهم)، تعرفهم من خلال صورة لهم رأتها في السكن: كانت صوراً لمظاهرة حدثت في فصل الشتاء أمام إحدى مساكن اللاجئين في جنوب المنطقة: حيث اصطفَّ في صفوفٍ أمام السكن رجالٌ مثل هؤلاء، لديهم أعناق عريضة

ورؤوس حليقة ويرتدون سترا دفاعية {قصيرة مبطنة} سُود ــ مثل وحيدي القرن في موقف دفاعي، رؤوسهم منحنية قليلا وجباههم مندفعة نحو الأمام كأنهم دروعٌ دفاعية مستعدَّة للقتال ــ وقد هتفوا مراراً وتكراراً بشيء «عنصري» كان على ما يبدو مزعجاً أو عنيفاً، بحيث إن نساء مجلس اللاجئين اللاتي يأتين دائماً كل ثلاثاء لم يرغبن في ترجمته وقُلنَ إن الصياغة الدقيقة {لكلامهم كله} ليست مهمة. وعلى الرغم من أن آمال كانت تخالفهن الرأي، فإنها لم تستطع إقناعهنَّ. فالشيء المهم بالنسبة إلى نساء مجلس اللاجئين هو أن يبقينَ يقظات وحذرات: من الضروري تجنب ذوي الرؤوس الحليقة والستر الدفاعية. نظرتْ آمال حولها في المقهى شبه المظلم، وبينما غادره الرجال الثلاثة لم تَرَهُ مملوءًا بالناس هكذا في هذا الوقت، خاصة بالمراهقين وبعض السيّاح. إن ما لم تستطع آمال فهمه هو لماذا يلجأ أولئك الثلاثة أصحاب الرؤوس الحليقة الذين يسكنون هنا إلى مقاهي الإنترنت العامة لإجراء اتصالاتهم. إلا أن هينينغ، الطالب الأكثر انفتاحاً في مجلس اللاجئين، أخبرها بأن بعضهم ينتمي إلى مجموعات يمينية تتحرك على هامش الشرعية. هل أن وحيدي القرن موجودون هنا لغرض إخفاء أرقام المستخدمين السرية؟ مَن هو صاحب المقهى؟ ولكن حتى لو كانت تعلم ذلك فما فائدته بالنسبة إليها هي الأجنبية التي لم يُسمح لها حتى بالعمل في هذا البلد؟ فكّرت آمال في ذلك وأومأت برأسها. تُرى هل سيؤخذ تحذيرها الذي هو ليس سوى تخمين على محمل الجِد؟ وأخيراً نهض وحيدو القرن، أخذوا سترهم من على مقاعدهم وهمّوا بالحركة. مرُّوا من أمامها واحداً تلو الآخر، إذ ينبغي لهم أن يمروا من أمامها كي يصلوا إلى الباب، حتى مرَّ الرجل الثالث منهم أمامها، أفرغ أنفه، استنشقَ كأنه كان يشمُّ رائحةً ما ــ كما لو كانت رائحتها سيئةً. تمنتْ آمال لو كان بإمكانها أن تركل ذلك البدين على أعضائه التناسلية بركبتيها بقوة ودقة حتى تجعله يَئِزّ كالخنزير الصغير ــ ولكن بدلاً من ذلك انتابت آمال نوبات تعرُّق، فقبضتْ على يديها وأدخلتهما في جيبيها ونظرتْ بعيداً.

كانت شبكة الاتصال متذبذبة والصورة تتوقف باستمرار لكنَّ خط الاتصال ما زال متاحاً. تلقَّتْ راوية الاتصال على الرغم من أنهما لم يتفقا مسبقاً على موعدٍ لإجراء الاتصال. وعندما سمعت آمال صوت والدتها واضحاً أحنت نفسها على الشاشة على رغم الضجيج: «نعم، تفضَّل»؟، إذ اتفقت كلتاهما على صيغةٍ ترحيب عفوية عادية، وذلك للحيطة والحذر إذ لا أحد يعلم {ما سيحدث}، بل إنهما قبل بضعة أيام من هروب آمال الثاني أنشأنَ في شقة الجدة حساب سكايب جديد باسم: عشتارُ أورلاندر، والذي تستعمله آمال الآن.

«راوية، هل تسمعينني؟ هذه أنا».

«آمال»!. سمعتها راوية ويبدو على صوتها البهجة، وبعد بضعة ثوان ظهرت صورتها أيضاً على الشاشة. رأت آمال وجه راوية ونظّارتيها السميكتين وشعرها الأسود أمام جدارٍ أبيض، وليس من أمام رف الكتب في مكتب راوية.

«ألَسْتِ في البيت»؟، سألتها آمال.

أومأت راوية برأسها: «في الجامعة، هل ترينني يا آمال؟ أنا لا أراك».

«راوية، أنا أراكِ جيداً».

كلتاهما تعلم أنه ليس بوسعهما القيام بشيءٍ إزاء ذلك الآن، فإعادة المكالمة من جديد يُعَدّ مجازفة. بحثت آمال عن شيءٍ في مظهر راوية لتتحدث معها عنه، فقالت:

«هل أصلحتِ نظارتكِ»؟.

أومأت راوية برأسها وأمسكت بالإطار المزخرف: «كل شيء جديد حتى العدسات الزجاجية. أنا الآن أرى أفضل من السابق»!، وضحكت.

جميلٌ جداً أن ترى آمال راوية تضحك، فقررت ألا تسألها عن أبوها مباشرة أو عن أي مستجدات قد لا يكون لها وجود.

«آمال، كيف حالك»؟، سألتها راوية بصوت ناعمٍ وشغوفٍ في الوقت ذاته.

«جيد»، أجابت آمال وبدأت تتحدث عن كلارا، عن لقائهما الأول ولقائهما هذا اليوم، عن نزهتهما معاً، وعن عرض كلارا لها بأن تعيرها جهاز {اللابتوب} القديم الخاص بها. استمعت راوية إليها، أومأت برأسها مرات عدة وقالت لها بعد أن ذكرت آمال كلمة (لابتوب): «تحققي منه عندما تحصلين عليه»!.

وعدتها آمال بذلك، ولكنها شعرت بعدها مباشرة بأنها بهذا تسيء إلى كلارا. فلماذا انعدام الثقة هذا؟ سألت آمال نفسها على الرغم من أنها تعرف الجواب وتعرف جيداً أن التجارب التي جمعتها راوية على مر السنين هي التي أدت بها إلى انعدام الثقة هذا، إنه سور الحماية الذي لن تسميه راوية «عدم ثقة»، بل بالأحرى «الحذر الذكي». «بالإمكان الوثوق بكلارا»، أجابتها آمال بحزم، «إنها أتت إلى هنا لتتأكد أن كل شي لم يكن مخططاً له أو ما شابه ذلك، عدا ذلك فنحن في ألمانيا».

أومأت راوية برأسها بطريقةٍ لم تجد آمال أي معنًى لها.

إن تباين التقنية في حوارهما {عبر السكايب} أزعج آمال: فآمال ترى راوية، وراوية تعلم ذلك لكنها لا تستطيع رؤية آمال.

«أمن الممكن أن تطفئي الفيديو لديك»؟، طلبت منها آمال.

أومأت راوية بأكتافها: «كما تودين»، واختفت صورتها بعد ذلك بوقت قصير.

«كيف حال جدتي»؟، سألتها آمال عبر الشاشة المظلمة.

«ليست على ما يرام تماماً»، أجابت راوية بصوتٍ أصبح الآن بعيداً بعض الشي، «وضغط الدم لديها ما زال مرتفعاً جداً».

هنا فكّرت آمال بجَدَّتها عشتار، المرأة المرهفة ذات ضغط الدم المرتفع، إنها آلام سيزيفوس التي ورثتها عشتار من أمها، ذلك الإرث الذي لا يُجدي نفعاً إزاءه العمل الكثير في الحديقة أو التنزه، ثم سألت قائلةً: «وماذا عن مرض السكري»؟، «ما دمتُ أزرقها الحقنة بانتظام فإنه على ما يرام»، أجابت راوية.

تَرَاءى لآمال الآن أمامها منظر راوية وهي ترفع الحقنة عالياً لتتفحصها بحذر قبل أن تزرقها في الطبقة الجلدية من بطن عشتار لأن عشتار مقتنعة تماماً «بأنها من خوفها الشديد في أن تزرق الحقنة عميقاً تجعل يدها غير مريحة بالنسبة إليها». وكان والدي يؤكد دائماً أنه من الضروري أن تتعلم الجدة زرق الحقنة بنفسها لنفسها تَحَسُّباً للطوارئ، وأراد توضيحه لها: «وأنا سأكون معكِ هنا لو حدث خطأ ما». لكن عشتار رفضت ذلك وكانت عنيدة كالطفل، موضِّحةً بأنها كبيرة جداً على أن تتعلم شيئاً جديداً فقالت لزوج ابنتها المحبب لديها «حسن» وهي تُرَبِّت على كتفيه بلطف: «عندما تصل إلى عمري سوف تفهمني».

أثناء ذلك سألت راوية: «آمال، أما زلتِ موجودة معي»؟.

«نعم، أنا هنا»، ردت آمال وتذكرت أنها قررت أن لا تسأل عن أبوها: «تذكرتَ فقط جدتي وأنتِ تقومين بحقنها الإبرة. أما زالت تناديك «ابنتي الدكتورة»»؟. «أحياناً، بل نادراً»، ردت راوية.

«لكنها ما زالت تذهب إلى الحديقة، أليس كذلك»؟، سألت آمال بحدة كما لو أن صوتها الحاد قد يؤثر في الإجابة المبتغاة.

«بالطبع»، قالت راوية، «جدتك صعبة كما تعلمين، فإنها ما زالت لا تسمح لنفسها بأن تحكمها آلامها على رغم ارتفاع مستوى سكر الدم لديها في الأوان الأخير. لكن عشتار تدرك ذلك، وما دام محمود ما يزال يزودني بالحقن فإن كل شيء يمكن السيطرة عليه».

«العم محمود»، همست آمال، إنه صديق أبي المقرب وزميله، فمنذ اختفاء والدي وهو يزورنا بانتظام ويجلب لراوية معه دائماً صندوقاً صغيراً من الورق المُقَوَّى مملوء بحقن وأقراص الأنسولين. كان يجلس في المطبخ، وتُقَدَّم له راويةُ الشاي، ويسأل في كل مرة فيما لو أن هناك شيئاً يمكن أن يقوم به لأجلنا. ذات مرة ساعد راوية في كتابة خطابٍ إلى مستشفى والدي، الأمر الذي كانت راوية تخشى فعله. وفي المرة الأخرى صلّح لها الغسالة التي كانت تُحدث عند تشغيلها أصواتاً غريبة كالطبل.

«راوية، أرجو أن تُبَلِّغي سلامي إلى العم محمود عندما يزوركم في المرة القادمة، وأخبريه بأنني أستطيع الآن أن أذكر أسماء خمسة أندية ألمانية لكرة القدم».

«سأفعل ذلك، يا قلبي».

انتبهت آمال إلى أن راوية لم تنادِهَا كثيراً بـ«قلبي»، وأضافت على الفور: «بمجرد أن يكون لدي جهاز الكمبيوتر سأتصل بك من السكن، وإذا رتبنا للقاءٍ مسبق فربما يمكنكِ إحضار جدتي معكِ ووضعها أمام الكاميرا»؟.

«جدتكِ؟ طبعاً، سنفعل ذلك»، ردت راوية، عندها حدثت ذَبْذبة في الخط كما لو كان هناك خللٌ أثَّرَ في الاتصال بشكلٍ سيئ.

شعرت آمال بأن هذه هي اللحظة المناسبة كي تسأل عن أبيها، فإما أن تفعل ذلك الآن، أو ليس اليوم بعد. لكنها قررت أخيراً بأن لا تسأل عنه، لأنه لو كان هناك مستجِدَّات بالموضوع لأبلغتها راوية بها منذ مدة طويلة.

عندها قالت راوية: «آمال، أرجوكِ أخبريني حال حصولكِ على جهاز الكمبيوتر. انتبهي لنفسك»!.

«وأنت كذلك يا راوية. أبعثُ إليكِ مني بقُبلة وإلى الجدة قُبلة أخرى».

نقرت آمال على زر سماعة الهاتف فسمعت نغمة قطع الإتصال. ترددت في أذنها هذه النغمة الصارخة التي تشبه الرنين الذي يحدث عند إجراء اتصال السكايب والذي من المفترض أن يُذكِّر بالعمليات الميكانيكية، لكنه يفشل فشلاً ذريعاً بسبب أصله الإلكتروني والاصطناعية المعدنية لرنينه وللشيء الغريب الذي يُحدثه في الأخير. ولأن آمال تعتقد بأن الصدى الطبيعي يبدو مختلفاً عن ذلك فقد أغلقت البرنامج، نهضت ودفعت الأجور وغادرت المقهى.

بدأ المطر يتساقط في الخارج، فأسرعت آمال خطاها بعكس اتجاه الرياح لأنها تريد العودة إلى السكن ولأنها تشعر بالجوع. في الحقيقة، إنه ليس الجوع فقط وإنما هو ذلك الشعور الذي تشعر به غالباً بعد كل مكالمة هاتفية مع راوية، الشبع والجوع معاً. إنها سعيدة لرؤية والدتها وسماعها، ولكنها مع ذلك شعرت بعد المكالمة بالفراغ مرةً أخرى وبوحدة أكثر من قبل. ثم إن الشوارع التي مشت فيها مسبقاً وكانت تعرفها جيداً بدتْ لها فجأة مجهولة من جديد كما في أول مرة مَشَتْ فيها. أتعرفين ذلك الشعور يا عشتار؟ عندما تبدو كل شجرة فجأة غير متأثرة وغير ودودة كأنها تبتعد عنك؟

كلارا

ترى كلارا إن أي شخص يعتقد بأن الآلات تُحَسَّن قبل أن تظهر عليها علامات الشيخوخة التي تُعد بشرية بحتة، عليه أن يلقي نظرة على هذا الكمبيوتر، بما فيه {تباطؤ} استجابته للإيعازات مما يفسح المجال لأسوأ المخاوف، كذلك الإزيز المضطرب لمكيف الهواء قبل تفعيل البرنامج، فضلاً عن علامات التحذير وردود الفعل الفورية التي تَحْدُث جرّاء {تشغيله لمدة طويلة}. كل شيء هنا هو نتاجُ قوةٍ فذ. ولكن الكمبيوتر هذا بحسب كلارا ما زال يعمل ويتحدى إشعاراته المجهولة {الغامضة}: فالملفات تُفتَح والبرامج الهامة تعمل. وفي خلفية الشاشة ما تزال هناك صورتها مع تارون وهما يقفان أمام الواجهة الحمراء لدار المعالجة في كالكوتا، حيث كانت هي ترتدي ملابسَ ملونةً غريبة الطراز وبلوزةً حمراء ذات خطوط ذهبية وبنطالاً من الكتان باللون الأصفر الذهبي، وكان وجهها وذراعاها مسمَّرَيْن مما جعل شعرها يبدو فاتحاً وخفيفاً جداً في الضوء الساطع. أما تارون فكانَ أنيقاً كعادته من دون أن يجعل ذلك يبدو على ملابسه، ويقف إلى جانبها مستقيماً واضعاً ذراعه على كتفها. كان يبدو فرحاً في الصورة، باعتقاد كلارا، حينما ردَّ مندهشاً على اقتراحها بقدومها معه: «هل تريدين حقاً المجيء معي؟ ولكن ماذا ستفعلين عندما أكون أنا في المؤتمر، لا سيما وأن كالكوتا في سبتمبر تكون حارة جداً ورطبة»!، إلا أنه في نهاية الأمر كان معها ورافقها بكل ود واعتزاز لترى المدينة التي تركها منذ سبعة عشر عاماً «رغبةً في تعرُّف ما هو جديد، ولكن أيضاً استياءً من الفساد هنا وما ينتج عنه من ظلم». استذكرت كلارا كالكوتا وحركت المؤشر على الصورة وعلى تلك المدينة المملوءة بمنبهات سيارات الأجرة والاختناقات المرورية الجمَّة التي ما زالت أبنيتها الضخمة تتحدث عن الحقبة الاستعمارية، إنها مدينة الفتيات اللواتي يُحمِّمنَ أشِقَّاءَهُن الأصغر منهنَّ سناً في أسفل النهر، كما أنها مدينة مراكز التسوق المكيفة ذات المداخل المحروسة. إنها المدينة التي أعجبتها بوفرتها المتنوعة، وسَحرَتها بحيويتها وتاريخها الحافل بالحوادث، ولكن أيضاً أرهقتها بضجيجها وطقسها الحار الرطب. وكم كان هادئاً ومفرحاً العشاء عند بريا شقيقة تارون التي تسكن مع عائلتها في شقة صغيرة في حيٍّ بسيط بجوار مدرسة تارون الابتدائية، إذ رحبت بها بريا قائلةً: مرحباً كلارا! ها هي رفيقة تارون تشاركه أول وأضخم رحلة لكليهما فقط. إلى الهند؟ وتحديداً إلى ولاية البنغال الغربية! إن هذا التوضيح الدقيق كان مهماً بحسب ما علمته كلارا بالفعل وهما على متن الطائرة.

أثناء الرحلة أوضحَ لها تارون: «بأنهم مثل الإسكتلنديين تقريباً، فمن منظور الدولة هم أيضاً جزءٌ من المملكة المتحدة ولكن إذا سألتيهم من أين أنتم، سيقولون: من إسكتلندا». أدركت كلارا فيما بعد بأن تارون لم يختَرِ المثال هذا اعتباطاً، فالبنغاليون كما الإسكتلنديون يسعون دوماً إلى الاحتكاك بالتاج البريطاني، وإن كان ذلك لأسباب أخرى.

تابع تارون وهو ينظر عبر نافذة الطائرة: «هناك الكثير من البنغاليين لا سيما كبار السن لا يستطيعون أن ينسوا ببساطة أن أكبر هجرة جماعية في العصر الحديث في صيف عام 1947 أعقاب الاستقلال الهندي حدثت في جزءٍ كبيرٍ من بلدهم، في البنغال، عندما هرب أكثر من أربعة عشر مليون نسمة من الناس في غضون بضعة أسابيع. تخيلي يا كلارا، في غضون أيام قليلة خرج الملايين من الناس مسرعين ليعبروا في أسرع وقتٍ ممكن الحدود عبر البنغال، تلك الحدود التي لم تكن موجودة منذ قرون عدة والتي فصلت الهند المستقلة فجأة عن باكستان المسلمة المؤسَّسة حديثاً، لقد كانت الحد الفاصل الذي عدَّه العديد من البنغاليين تعسفيًّا وغير صحيح، والذي (توقف تارون مؤقتاً) رسمه البريطانيون لأول مرة. بالطبع إن التركيز على البريطانيين فقط هو وجهة نظر محدودة للغاية، فقد ازدادت التوترات بين الهندوس والمسلمين في البنغال كما هو الحال في الهند البريطانية بأكملها أكثر فأكثر منذ بداية القرن، وعند الرجوع إلى الوراء نجد أنه من غير المؤكد إن كان ممكناً في نهاية الحقبة الاستعمارية منع انقسام ما يُعرف آنذاك بالهند البريطانية إلى بلد إسلامي وآخر هندوسي.

«مثلما أراد غاندي، أليس كذلك»؟، سألته كلارا.

تارون وافقها الرأي وأضاف: «إن غاندي أراد منع هذا الانقسام لكنه لم يتمكن من القيام بذلك. بدلاً من ذلك، وعند تقسيم البنغال إلى الجزء الغربي الهندي والجزء الشرقي الباكستاني في عام 1947، تم رسم الحدود من قبل محامي لندن رادكليف وإرجاعها إلى حد كبير على الحدود التي قسَّم فيها البريطانيون البنغال سابقاً عام 1905. ولكن بعد احتجاجات عنيفة على وجه الخصوص في ولاية البنغال الغربية عام 1911 أُلغِيَ تقسيم 1905، مع ذلك فإن هذا الخط المرسوم ذات مرة بقيَ بالنسبة إلى الكثيرين من البنغال شيئاً أشبه بالجرح القديم، (انخفضَ صوته) لأن الناس ببساطة لم يصدقوا ادّعاء البريطانيين بأن ما هذا التقسيم سوى ضرورة إدارية ليتمكنوا من إدارة مقاطعة البنغال الضخمة، إذ إنهم رأوْا في ذلك استراتيجية الحكام الاستعماريين التي تكمن في زرع الخلاف بين البنغاليين وبالتالي زعزعة استقرار المنطقة تماماً في الوقت الذي تتعزز فيه الجهود المُطالِبة باستقلال المنطقة.

إنه الخلاف الذي، وكما تعلم كلارا، أصبح في العقود اللاحقة أكثر عدوانيةً ووصل أخيراً إلى اقتتال دموي أشبه بحرب أهلية، إلى أعمال شغب مصحوبة بتطهير ديني، نفس السبب الذي أدى بأجداد تارون لأمه، الهندوس، إلى مغادرة قريتهم في ولاية البنغال الشرقية في صيف 1947 والهروب إلى كالكوتا، وكانت هي ما تزال آنذاك كالكوتا. إن جدة تارون التي كانت متزوجة حينها من جده نجت وزوجها من الهروب، في حين أن أخوات الجدة الأصغر سناً منها اختُطِفْنَ من قِبل الجنود الباكستانيين قبل وصولهنَّ الحدود الجديدة بقليل.

«وما كان على جدتي سوى أن تتقبل أن ما حدث لأختيها هو نفس الشي الذي حدث للكثير من النساء في ذلك الصيف: الاختطاف والاغتصاب ثم القتل أو الزواج القسري. بالتأكيد لم نسمع بعدها أي شيء عن أخوات جدتي»، قال تارون ذلك بصوت خافت وأخذ يحدق من نافذة الطائرة لفترة من الوقت.

ثم تابع القول قبل الهبوط بوقت قصير: «وكما قلت، فإنه من السخيف طبعاً إلقاء اللوم مباشرة على البريطانيين بسبب تلك الفظائع المرتكبة في جزئي البنغال كليهما بحجة التطهير الديني لكل من المسلمين والهندوس. أعتقد أن الشعور ــ لا سيما بالنسبة إلى البنغاليين الذين اضْطروا إلى الفرار ــ أشبه بخيبة آمال عميقة بالمسؤولين في بلدهم، أولئك «البريطانيون» الصُفر طوال القامة الذين عاشوا معهم لقرون طويلة وأوضحوا للشعب مراراً وتكراراً بأن ما يعنيهم ليس فقط الهند كمورد للمواد الخام، وإنما أيضاً الأشخاص الموجودون هنا الذين اسُتنفدوا بعد ذلك من الحرب العالمية الثانية عندما أدركوا أن استقلال الهند أمرٌ لا مفر منه وهربوا بكل بساطة مع حاشيتهم والوسائل التي ربما كان من الممكن أن تساعدهم في السيطرة على أعمال الشغب لعام 1947 أو على الأقل السيطرة على القليل منها، مَن يدري»؟.

هبطت الطائرة على الأرض البنغالية بشدة فقالَ تارون بهدوء: «إن الشعور بتخلي المحتل الكبير عنكَ والذي كنتَ في الواقع تريد التخلص منه»، وبدلاً من أن يستكمل جملته هزَّ رأسه فقط.

بعد هذا الحديث لم تندهش كلارا لذكر تارون بعد بضعة أيام في محاضرته في مؤتمر كالكوتا أمثلةً عن العمارة البنغالية في الهند حالياً والجزء الشرقي من البنغال، والمعروف اليوم بنغلاديش. وفي المؤتمر تذكرت كلارا بالضبط: إنه أُقيمَ في فندق فاخر حديثٍ نوعاً ما، حيث تحدث تارون عن بنائه مُتَحمِّساً في ليلة وصولهم: «من الغباء أنه لا يمكن في هذا المناخ إلا بناء سلسلة فنادق دولية واحدة تُخضع جميع ما فيها لتأثير الاعتراف بها، مثل مقاهي ستاربكس الشهيرة. إنها واجهات زجاجية ضخمة في كالكوتا»!

في صباح اليوم التالي كان تارون في قاعة المؤتمرات الكبيرة الواقعة في أحد الطوابق العلوية للفندق حيث نوافذها الزجاجية ــ بطبيعة الحال ــ مسدولة الستائر، ليتحدث أمام ما يقرب مئة مهندسٍ عِمَاري من قارَّاتٍ عدة في هذه الغرفة، مستغنياً، على خلاف الآخرين، عن تقديم عرض إلكتروني على الشاشة {بَوَر بوينت} ليسحب بدلاً من ذلك قلماً من جيب قميصه ويرسم في بداية محاضرته نموذجين عِمَارِيَّيْن على السبورة: على اليسار كوخٌ مستديرٌ بسيط ذو سَّقفٍ واسع من القش يمتد حتى مقدمة الكوخ ليغطيها بمثابة سقف للشرفة، وعلى الجانب الأيمن رسَمَ معبداً هندياً من القرون الوسطى، معبد كانتاجي في بنغلاديش الحالية المبني على طراز نافاراتنا والذي عُد في وقت نشوئه مثالاً نموذجياً للهندسة المعمَارية للمعبد البنغالي قبل أن يحطمه الزلزال كلياً قبل مئة سنة.

تعني كلمة نافا ــ راتنا الأبراج التسعة وهذا ما يميز المعبد لاحتوائه على تسعة أبراج، أربعة منها تحدُّ الزوايا الخارجية للمعبد، في حين تحيط الأربعة الأخرى المساحة المربعة الأصغر نوعاً ما للطابق الثاني للمعبد، وفي منتصف الجزء العلوي نُصِبَ أطول برج متطابق نسبياً مع الثمانية الأخرى، ثم إنّ هناك شرفةً واحدةً تحيط بجميع الطوابق الثلاثة للمعبد بدءاً من أسفل الأبراج.

سأل تارون الحاضرين جميعاً عمّا يربط بين المبنيين ــ مدركاً أنه ليس هناك من بين المهندسين المعمَاريين الحاضرين المشهورين مَن سيرفع صوته مثل أي تلميذ دؤوب ــ وبدلاً من الجواب رسمَ تارون سهاماً تنبثقُ من النموذجين نحو اتجاهات السماء الأربعة: إذ إن كليهما، سواء كان الكوخ أي منزل العائلة البنغالية البسيطة أو المعبد لم يصَمَّمَا من منظور رؤية مركزية أو من منظور أحادي، لا من الداخل ولا من الخارج، بل بدلاً من ذلك فإنه يمكن مشاهدة المبنيين والدخول إليهما واستخدامهما جيداً بالتساوي من كل جانب. ابتسم تارون عندما استخلص: «إنَّ فهم هذا الهيكل المستدير كنموذج للعيش الديمقراطي وكرؤية لفضاءٍ عام موجَّه نحو العديد من العيون وليس نحو عينٍ واحدة ــ ما هو إلا منظورٌ معاصر أود أن أدعو إليه. إنه منظورٌ جديد وفي الوقت ذاته قديمٌ جداً».

بدأ التذمر يعم القاعة ورأت كلارا أنه كان هنا وهناك مَن يتفق معه من المستمعين، في حين كان هناك الكثير مَن ينظر حوله متسائلاً يبحث عن استفسار في الوجوه المحيطة به، وكان هناك آخرون ولا سيما المهندسين المعماريين الشباب والهنود يبتسمون. مضى تارون الآن في الاتجاه الصحيح ووضَّح المواد المستخدمة في النموذجين كليهما: قشٌ لسقف الكوخ والجدران الحجرية للمعبد المغطاة بالطين: «لا يمكن البناء بشكلٍ بيئي أكثر من هذا على الإطلاق! فالمواد المصنعة هي صديقة للبيئة، فضلاً عن أنها عازلٌ جيد». وأشار إلى العديد من الأبواب المرتبة تناظرياً في جدران المعبد، وتحدَّثَ عنْ التهوية فيه وشفافية النظر من خلاله، وكذلك عن النفاذية والتقاطعات الموجودة فيه. ثم أخذ تارون في يده قلماً مرة أخرى ورسم على السبورة مخططاً ثالثاً لمبنى دائري مكوَّن من ستة طوابق وتحدث عن تصميمه الداخلي، عن ممراته المرتبة تناظرياً، عن المجاري المائية والسلالم الملتوية داخل البرج الذي صممه هو وطاقم مكتبه آنذاك في هاورا والذي تحدث عنه في محاضرته تلك. وفي مؤتمر يبحث عن نماذج تصاميم لـ«مدينة الغد» تحدَّثَ فيه أغلب المشاركون الأكبر سناً عن مشكلات «المدن العملاقة» وتحدياتها، أفصحَ تارون عن ملامح تحول العمران إلى «فرص اجتماعية وكذلك ثقافية»، وأكَّدَ أن الانفتاح لا يعني التجرّد وعدم الوضوح، وإنما هو مسألة تُعنى «بسياقات التصميم وتماسكه». عندها نسجَ تارون بمهارة نظريته المفضلة لديه التي تعرفها كلارا مسبقاً والتي اقتبسها من الاقتصادي البنغالي الحائز جائزة نوبل آمارتيا سين: إذ أثبتَ سين أن مقدرة كل فرد على المشاركة في سلع المجتمع سواء كانت مادية أو ثقافية هي ميزة لمجتمع ديمقراطي حقيقي. وأضاف تارون: «هي بالطبع مشاركةٌ مادية، ولكن هذا ليس كل شيء يا سيداتي وسادتي، دعوني أطرح عليكم السؤال التالي: ما الهواء النقي؟ أهو شيءٌ مادي؟ ما الهدوء؟ أهو مساحة للتأمل؟ أهو مادة ثقافية؟ أهو مادي، وروحي، وجماعي، وفردي»؟.

واصلَ تارون حديثه بمهارة وسط جموع كثيرة من المستمعين، ولكنه لم يتوقف عند البرج فقط، بل أصرَّ على التأثير المتبادل بين تدفق الناس إلى المدن وفرص تعليمية أفضل وبين زيادة الناتج الاقتصادي، الأمر الذي أكسبه اعتراف الكثيرين، ولكن يبدو أنه لم يقنع الجميع، لأنهم عندما وقفوا بعد ذلك مع تارون في استراحة الغداء عند البوفيه توجَّه شخصٌ نرويجي، وهو الشخص الوحيد الذي بطوله البالغ مترين تقريباً كان أطول من تارون، وتحدَّثَ إليه بإعجاب عن برجه الذي ربطه بمفاهيمَ معينة مثل «التعددية المركزية لما بعد الإمبريالية»، أو «نقلة نوعية في مرحلة ما بعد الاستعمار»، ولاحظت كلارا كيف أن أمريكياً مُسِنًّا بربطة عنق وهو أحد مشاهير المؤتمر استُقبِلَ عند الصباح بحفاوة من قبل العديد من الزملاء وكيف وضعَ طبقه المملوء على البوفيه ثم اقتربَ من تارون واقفاً بينه وبين النرويجي: «مع كل الاحترام أيها السادة، أليست هذه كلمات كبيرة؟ كالكوتا، هاورا ــ اذهبوا إلى الشارع، وامشوا قليلاً، وانظروا حولكم: نحن ما زلنا هنا في الطاغوت! كالكوتا وهاورا هما ليست مومباي أو حتى بنغالور، فالتراجع الاقتصادي في ولاية البنغال الغربية إبّان الإدارة الشيوعية لم يُتَجَاوَز بعد، ثم إنه لا نهاية للأحياء الفقيرة تلوحُ في الأفق، إن فناراً لا يصنع ميناءً»! ضحك الأمريكي مستمتعاً على ما يبدو بمقارنته تلك ثم أومأ برأسه. «لا يا سادة، إننا لا نخدع أنفسنا: إنَّ هذه المنطقة تكافح والمدن هنا أضحت عبارة عن برميل بارود وستبقى هكذا حتى في السنوات المقبلة. (ثم أشارَ الأمريكي إلى تارون) وحضرتك تتحدث عن النمو أو بالأحرى عن الانتعاش الذي ما يزال نجاحه على المدى البعيد صعبَ المنال».

حينها أنزل تارون الذي كان ينصتَ باهتمام طبقه وعقد ذراعيه على صدره ثم التفتَ إلى الأمريكي: «هذا ممتعٌ يا سيدي، ولكن ماذا بشأن ديترويت؟ وسانت لويس في ولاية ميسوري؟ هل انتعاشهم «مضمونٌ» حقاً»؟.

نظر الأمريكي إلى تارون بدهشة ورفع حاجبيه كما لو كان لم يرَ شيئاً، ثم ضحك مرة أخرى بصوتٍ أعلى من المعتاد وأجاب: «أوه، أوه، يا صديقي»!، ما زال وجهه لم يستقر بالنظر، وكان يبدو عليه أنه يبحث عن وضعيةٍ ما فقررَ أن يُرَبِّت على ظهره كما يفعلِ الأب: «إنك سوف تصنع طريقك الخاص بك، أنا واثق بذلك»، قال الأمريكي ذلك، التفتَ وذهب صوب زملائه لدرجة أنه لم يكن واضحاً مَن كان مقصوداً بالضبط بـ«إنك»: هل كان يقصد تارون، أو المنطقة الكبيرة كالكوتا؟

لاحظت كلارا أن تَارُون كان غاضِباً ولكنه في الوقت ذاته الْتَفتَ محْتَجًّا على ذلك وقَرّر على ما يبدو أن يدَعَ ما حدثَ خلفه. من ناحيتها اندهشت كلارا، اندهشت حتى بعد ساعاتٍ من رد فعل تارون الذي لم تتوقعه منه، فهل كان تارون يحرص دائماً على حل النزاعات بشكلٍ واقعي ويبقى في صلب الموضوع؟ إزاء الأمريكي كان رد فعل تارون مستاءً بشكلٍ واضح، حتى وإن كان هادئاً في كلامه فقد واجه الهجوم بهجوم مضاد: هل أنتَ أفضل؟ وهذا ما لم تستغربه كلارا، لأنها وكما اتضحَ لها خلال محاضرة معَقَّدة وتِقْنِيّة للغاية بعد الظهيرة كانت مقتنعةً بشيءٍ واحد: لو كان تارونٌ واثقاً بأن التكهن الأمريكي خاطئٌ وأن انتعاش كالكوتا على العكس من ذلك هو أمرٌ مؤكد، لكانَ قد قال هذا تماماً وكان سيردُّ الكرةَ للخلف ثانيةً بدلاً من أن يدعها تصيبه.

في ذلك المساء تحدثت كلارا مع تارون على الرغم مِن أنها كانت تنوي عدم التحدث معه في هذا الموضوع، وذَهَبَا معاً إلى حيّ محَبَّب لديهما، أَكَلَا معاً ثم ذهبا إلى نادٍ ترفيهي للاستماع إلى الحفل الذي تُحييه فرقة بنغالية تُغَنّي باللغة الإنكليزية والتي يعرفها تارون بِالاسم. «إنها ليست جيدة بمستوى كروسويندز ولكن لا بأس بها، أليس كذلك»؟، سألها تارون فأومأت كلارا متفقةً معه، إذ إن الموسيقى أعجبتها والكلمات كذلك، فضلاً عن إن أجواء النادي كانت مفْعَمة بالحيوية، بَدْءاً من الإيماءة بالرأس مع الاستماع الهادئ وانتهاءً بالرقص الظريف، كل شيء كان هناك، سوى أن ثلاثة أرباع الجمهور فِي الأقل كانوا من الرجال، الأمر الذي أدهش كلارا بعض الشيء، خاصة وأن الموسيقا لا يمكن أن توحي بمثِل هذا الشيء. وعندما سألت تارون عن ذلك اكتفى هذا برفع كتِفيه قائلاً: «حقاً؟ لم أنتبه لذلك». فكرَّ للحظة ثم أضاف: «لا أعرف أين يكمن السبب، ففي حفل كهذا قد لا تجِدين بريا أيضاً ويكمن هذا في سعر تذكرة الدخول والذي هو بالنسبة إلى أودار «زوج بريا» سيّان». بعد ذلك ذهبا إلى الحانة وشربا شراب «الراهب الكبير»، وهو مشروبٌ هندي بمذاق الشوكولاته، ثم مَرَّا من أمامِ بائعي الزهور والعربات التي تقوم بالجولات الليلية، وأخيراً استقلّا سيارةَ أجرة وعادا إلى الفندق. تذكرت كلارا «فحصها لتارون» وابتسمت: بأنهما بعد ليلتهما الأولى معاً لم يلْعَبا لعبةَ «العظام والفقرات» سوى مراتٍ معدودة، إذ كانت إحدى المرات في كالكوتا، وتحديداً في غرفتهما بالفندق عندما أجرى عليها تارون الفحص هذه المرة بيديه نزولاً لرغبتها، حيث تفحص يديها، وذراعيها، ولمسَ كتفيها حتى وصل إلى صدرها ولمس حلمتيها المتصلبتين، متفحصاً سُرَّة بطنها، وخط البكيني وصولاً لمقدّمة عظام الحوض ليلمس أخيراً بأطراف أصابعه عانتها الملساء. شعرت كلارا كيف كان على تارون أن يبذل قصارى جهده ليشعر بذلك حقاً ليس إلا، وهذا ما أثارها، فأغمضت عينيها وتأوهت بهدوء، اغرورقت بالتفكير وهي تتتبّع أصابعه الحَذِرة ــ أو ربما يديه الفضوليتين؟ حتى انهارت أخيراً كالمريضة واقتربت نحوه وسَرعان ما تَحَوّل كلاهما إلى شيء آخر. أدْرَكتْ كلارا شُرُود ذِهْنها. وهكذا تكون هي دائماً كلما نظرت إلى الصور، صور الناس الذين تعرفهم أو المناسبات التي مرت بها. ولهذا السبب لم تضع على منضدة مكتبها في العيادة أية صور. حذفت كلارا صورة خلفية الكمبيوتر ــ فما عسى آمال أن تفعل بصورة كلارا مع تارون؟ وعليه وضعت بدلاً من ذلك صورةً محايدة باللون الأزرق الفاتح، إذ ربما ترغب آمال في وضع خلفية للكمبيوتر من صورة لراوية أو والدها أو لهم ثلاثتهم. بدأت كلارا بتحقق ملفاتها الشخصية وإلقائها جميعها دون استثناء في سلة المهملات، خاصة وأنها لم تفعل ذلك منذ شرائها الكمبيوتر الجديد، وكلما كانت تمرر السهم الأسود على صورة الخلفية الزرقاء، كانت على يقين من أن آمال قد تستبدلها بصورة لوالدتها وليس لوالدها، لأن هناك فرقاً ما إذا كنت تعلم أن الشخص في الصورة ما يزال على قيد الحياة أو لا تعلم ذلك. وبعد أن ألقت المستندات الشخصية في سلة المهملات تساءلت كلارا أين ممكن أن يكون والد آمال، أفي حفرةٍ ما تحت الأرض، أو في غرفة دون نوافذ، أو أنه تُوفيَ وأصبح جسده منذ مدةٍ طويلة جزءاً من الأرض التي تَمْكث فيها راوية، مثلما قالت آمال؟ كتبت كلارا رسالةً إلى آمال واقترحت أن تجلب لها الكمبيوتر خلال يومين.

آمال

في هذه الليلة تكرر الشي ذاته مرة أخرى: إنه الضربة المفاجئة في جانبها وصوت سامي: «اركضي! إنهم جاؤوا»!، فقفزنا، تعثَّرنا للأمام، تعثرنا في أوراق الشجر، وعلى الرغم مِن ذلك استمْرَرْنا بالركض نتبعُ خطوات سامي. كان هناك مخروطٌ من الضوءِ الصارخ يمرُّ من اليسار عَبرَ جذع الشجرة، فأضاء سترة سامي وشعره. وهناك صيحاتٌ في الخلف، يتبعها نباحُ كِلاب. ولكن لم يكن هناك من العدائية ما يجعلك خائفاً: هل ينبغي الهروب من الكلاب الغاضبة؟ ومع ذلك واصلنا الركض، عَرِقنا، ونباح الكِلاب يرنُّ في آذاننا، اركضوا ــ جاءت ضربةٌ في الورك، آلام شديدة في البطن، في المَعِدة، دُوار ثم السقوط ببطء. ولامسَت الوجه أوراقُ أشجارٍ رَطِبةٍ. وحطَّ نعلٌ من المطاط القوي على الظهر. صرخةٌ أخرى أتت ــ وجاءَ أمرٌ آخر، غاضب، متسلط، ثم خيَّمَ الصمت ثانيةً. من مكانٍ ما في الأمام أتت صيحاتُ سامي. كانت حركةٌ سريعة متشنجة، وإذا بأيادٍ تسندُ الظهر ــ وتُرَبُّت عليه. شيءٌ ما فرقعَ، فرَك المِعْصمين، حبَسَ اليدين، قطع المعْدِن البارد ــ ساعدوني! انطلقت آمال بسرعةٍ وحلّقت عالياً.

خارجاً في الفِناء أنارَ من وراء الستار ضوءُ الفوانيس الخافت. كانت نُوريج ترقدُ في سريرها بهدوء. أغمضت آمال عينيها وراقبت أنفاسها المضطربة وجعلت منها أنفاساً أبطأ وأعمق. بهدوء، بهدوء تصفحتِ الصور، والأشجار، والغابة، والمشي لمسافاتٍ طويلة برأسٍ منحنٍ حتى غروب الشمس. كل شيء كان رمادياً. ولكن عندما فتحت آمال عينيها رأت المنضدتين وخِزانتَي الملابس بشكلٍ أوضح في الغرفة ونظرت إلى الساعة تحتَ سريرِها فوجدتها: 03.17.

تصبحين على خير، انقطع الحلم.

تُرى مَن قرأ ذلك أو كتبه؟ إنها عادت لا تتذكر ذلك.

عندما سألتها نوريج في صباح اليوم التالي عن سبب شحوب وجهها أومأت آمال بمِنكبيها وأجابت: «لم أنمْ جَيِّدًا».

لكن نوريج لم تستسلم لذلك، بل صَرَّت يديها وسألت بحذر فيما لو كان للأمر علاقة بنُزهتها يوم أمس «مع المرأة الغريبة»؟ نظرت آمال إليها بدهشة ثم أومأت برأسها: «لا، ليس كذلك يا نوريج، النزهة أمس كانت ــ تبحث عن كلمة مناسبة ــ كانت لطيفة». وعلى الرغم من أن آمال تعلِم أن نوريج مُحِقَّة في تخمينها فإنها تمسكت بإجابتها. أومأت نوريجُ برأسها ببطأ، ومع أنها لم تقتنع فإنها ابتسمت في الوقت ذاته. حينها شعرت آمال بأن نوريج سعيدة لتَمَكُّنها من إبداء اهتمامها بآمال.

عندما غادرت نوريج بعد ذلك الغرفة تذكرت آمال بأن هذه ليست المرة الأولى لها في السكن التي تتكرر في منامها مسيرة هروبها. في الأسابيع القليلة الماضية أصبحت لياليها أهدأ وأحلامها مملوءة بالمسؤولين الذين يضعون نباتات الصبار على مكاتبهم، في حين أنه بعد مدة وجيزة من وصولها في ديسمبر «قبل أعياد الميلاد بقليل»، كما أكدت النساء من مجلس اللاجئين ذلك مراراً، كانت الغابات التركية وحرس الحدود على مقربةٍ جداً من الغابة التي تبدأ عند نهاية الشارع الكائن خلف السكن.

رفعت آمال أطباق فطورها وعند غسلها شعرت بأنها تفتقر إلى الهدوء كي ترسم اليوم، لذا قررت قضاء الوقت حتى الساعة الحادية عشر في غسيل الملابس بدلاً من الرسم، لأن ما نصحها به «أبو» ممكن أن يُجدي نَفْعاً: عند الشعور بالعصبية أو عدم الراحة فإنه غالباً ما يكون للأعمال اليدوية البسيطة المألوفة مثل فرز الغسيل، وشحذ أقلام الرصاص أو تقطيع الخضار تأثيراً مهَدِّئاً مذهلاً، في الأقل، ما دام أنه لا ينبغي لك القلق بشأن الشفرة الحادة لسكين مطبخ السكن في كل مرة تقرم بها، أو بشأن دخولك غرفة الغسيل مرةً ثانية لتجد قطعةً واحدةً من الملابس الداخلية أقل في حَوْض الغسيل فإن انتظار انتهاء دورة الغسيل في الحمام الرَّطب المملوء بالعفن أمرٌ غير وارد بالنسبة إلى آمال، إذ حالما تُشَغّل الغسالة، تغادرُ هي غرفة الغسيل وتمرُّ أمام باب غرفة الصلاة الذي تسمع من خلفه صوت محمد الرنان لتخرج إلى الفِنَاء عَبر مخرج الطوارئ في القبو. كان الهواءُ في الخارج رَطباً أيضاً، وكذلك العشب، إذ إن المطر بدأ يتساقط قبلِ شروق الشمس مباشرة. «هيا يا إليري، تقدموا! إليري، أنتم لستم هنا من أجل النوم، بإمكانكم النوم لاحقاً! امشوا! تقدموا! إليري»! أغْمَضت آمال عينيها وأخذت نَفَساً عميقاً. ليس غريباً أن يرافقها بعد هذه الليلة طوال اليوم ذلك الجندي الشاب

التركي ذو الخدين الحليقين والصوت الحزين. كان هناك ما لا يقل عن ثلاثين عاماً بين صوته وشكله، الأمر الذي كان مزعجاً، ومثيراً للاهتمام، ومخيفاً. انحنت آمال إلى الأمام على ركبتيها، لأنها شعرت اليوم مرة أخرى بألم تحت الركبة بشكلٍ أقوى معتقِدةً أن سبب ذلك هو الطقس الرطب بالتأكيد وبأنها أصبحت تتحسس من الطقس شأنها شأن أي امرأة عجوز، مما جعلها تبتسم لذلك: لكن في تُزهتها يوم أمس مع كلارا لم تشعر بألم ركبتها. جلست آمال وأخذت تراقب كيف أن العائلة الإريترية غادرت الجناح الجانبي من السكن وهي مجَهّزة بالمظلات ومتّجهة صوبَ المدينة. إنَّ الزوجَيْن وطفليهما اللذين هم ولدٌ طويلٌ ممشوق وبنتٌ ربطت أمها ضفيرتيها بشرائط ملوّنة جاؤوا إلى هنا منذ بضعة أسابيع فقط، لذا لا يمكن توَقع أي قرار الآن بشأن طلبهم للجوء. ولكن بعدما اختفى هؤلاء الأربعة ظنت آمال أنه ما يزال هناك بضعة أسابيع أخرى لتنتمي تلك العائلة أو على الأقل الأب فقط إلى أولئك الذين يُقفون عند مدخل السكن بعد الساعة الحادية عشرة بقليل لإلقاء نظرةٍ على صندوق البريد. عندما سارت آمال عبر الممر هذا الصباح نحو المدخل الرئيس وأخذت دقات قلبها تزداد ثانيةً، كانت تحَثّها على الوقوف بعيداً جميع الأصوات التي تعرفها جيداً وتسمعها بإلحاح داخلها بمجرد رؤيتها الجدار الذي يضمُّ صناديق البريد... فهي تعلم تماماً {وكما يقال لها دائماً} أنه: «فقط مع حق اللجوء الكامل يمكنكِ القيام بدورة لغة مجانية وربما الدراسة فعلاً في فصل الخريف... لهذا السبب يا سيدة الشرهاني ينبغي لكِ في الاستجواب قول كل شيء من شأنه أن يساعدك أو سيساعدك طبعاً لتصبحي لاجئةً...! ولكننا لا نستطيع أن نضمن لكِ شيئاً... وفي حال إصدار حق تأجيل اللجوء فإنكِ لن تُرَحَّلي على الفور ولكن أيضاً لا يمكنك الدراسة ولا يحق لكِ القيام بدورة اللغة أو حتى إلزامكِ بها..».. إنَّ آمال تعرف هذا كله لكنه لا يساعدها بشيء، فالأصوات ما زالت تداهمها دون استئذان، ومع ذلك فإن هذا في النهاية لا يشكل لها مشكلةً ولا سبباً للخوف، وإنما هي القوانين التي أدركتها.

إزاء ذلك، عندما تفكر آمال بقِصَّتها في جلسة الاستماع ومصداقية أقوالها وحقيقتها ــ فإنها تسأل نفسها: ترى هل سيصدقها أحد؟ ليس من ناحية أسباب هروبها فقط والتي ستُحَقَّق كلها، وإنما أيضاً من ناحية قصة هروبها بحد ذاتها؟ هروبها الثاني الذي اخترعته؟ أو على الأقل الذي أجرت عليه تعديلاتٍ طفيفة... أكان يتوجب عليها ألاّ تجازف بالانحراف عن قول الحقيقة؟ حتى وإن تحدثت مع هينينغ بكل شيء مراتٍ عدة وكانت قصتها حاسمة: ففي نسخةٍ {لكتاب} رسمي يُذكر أنها بدلاً من أن تستقل سيارةً خصوصيةً أخذت شاحنةً، واختبأت في {أرضية مزيفة ثانوية} بحيث إنها لم تَرَ شيئاً، لا معبراً حدودياً ولا حتى لافتات الشوارع، وإنما فقط أرضية الغابات المظلمة ليلاً. «كنتِ مقنعة»!، قال لها هينينغ مقتنعاً بعد جلسة الاستماع، ولكن ماذا لو فهِمَ الموظف المسؤول غير ذلك؟ هل انتبه إلى خوفها ذلك الذي جلسَ أمام آمال من خلف مكتبه وليس بجانبها مثل هينينغ؟ مسحت آمال على صدغها النابض وبقيتْ ساكنةً. كان عليها أن تقرر بمَن تثق: أبالحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، أم بالمستشارين الشابين من مجلس اللاجئين هينينغ وسينتجي، اللذين قالا لها: إن أرادت اللجوء في ألمانيا فإنه لا يهم أن تبقي على الحقيقة في كل شيء يخص أمر دخولها، بل أن تبقي على قصة تجعل حالتها «منسجمة مع قانون قضيتها» وقبل كل شيء «أمن ــ دبلن».

في اجتماعهم الأول قال هينينغ وهو يومئ برأسه كأنما لم يصدق ذلك بعد: «إن مَن يأتي من إفريقيا أو العراق أو سوريا إلى ألمانيا ويطلب اللجوء ولم يكن لديه قبل الهروب وقتاً أو مالاً كافياً للحصول على تأشيرة دخول إلى ألمانيا أو لشراء تذكرة سفر فإنه لم يَبْقَ أمامه سوى اللا حقيقة».

وقال هينينغ مراراً: «إنَّ بلدنا مملوء تماماً بما تسمى بلدان العالم الثالث الآمنة، تماماً»، كرر ذلك مع التركيز على كل مقطع ثم أضاف ساخراً: «بالطبع هناك إمكانية واحدة: أن يسبح أو يحدف المرء في زورق من إفريقيا إلى البرتغال ثم من خلال القناة الإنكليزية مباشرة إلى ساحل البحر الشمالي لألمانيا. ولكن بالطبع مع الكثير من المواد الغذائية على سطح المركب كي لا يُضْطر إلى الذهاب إلى الشاطئ من حين لآخر! أما التبول فمن الممكن القيام به في القارب، ومَن يُصاب بدوار البحر بإمكانه القفز في البحر..»، أمسكت بيد هينينغ سينتجي التي كانت تجلس بجانبه ونظرت إلى آمال، قاصدةً أنّ عليه أن يكبح جماح نفسه، ولكن آمال أعجبها غضب هينينغ الحقيقي هذا وشعرت معه بأنها في أيدٍ أمينة لأن هينينغ رأى الأشياء واضحةً كما هي ولم يختبئ {تجاهها} خلف نظرة الحيطة والحذر التي تلمحها آمال هنا في ألمانيا على الطرقات، في السوبر ماركت أو في محطة الحافلات مراراً وتكراراً دون أن تعرف تفسيراً لذلك. وعندما فهمت بعدها ماذا تعني هذه النظرة لها وهو: يؤسفنا ــ ولكن ــ لا ــ تقتربي ــ أكثر ــ ، تذبذب شعورها ما بين الخجل والغضب ووجدت كليهما وكل شيء هناك غير صحيح.

إلا أنها تثق بهينينغ، وعليه أخذت بنصيحته وبدأت تتدرب على «قصتها» قبل جلسة الاستماع في غرفتها، وقد تدَرّبت كثيراً وبشكلٍ مكَثَّف لدرجة أنها اعتقدت أحياناً بأنها تتذكر بالفعل الساعات التي كانت تقضيها في الأرضية المزيفة للشاحنة. وعندما بدا عليها التعب فيما بعد شعرت بأن كل شيء غير واقعي ومفتعل، سواء كانت القصة الخيالية أو قصة الهروب الحقيقية ــ الأكثر تعقيداً ــ التي لا تستطيع نسيانها بسهولة هكذا، لأنه كما علّمتها سينتجي فإنه ينبغي لها أن تضع الحقيقة دائماً في جانبها {للاحتياط} كي تتمكن من إعطاء إجاباتٍ صحيحة قدْرَ الإمكان حين يسألونها: ماذا أكلتِ أثناء الهروب؟ وعلى أي سطح نمتِ أثناء التنقل؟ وأين قضيتِ الليلة الأولى في ألمانيا؟ كيف كان الطقس في تلك الليلة؟ وهذا بطبيعة الحال ينطوي دائماً على فخٍّ بحد ذاته، لأنه إذا كان الجواب الحقيقي هو: في أثناء الرِّحلة في السيارة الخصوصية، كنتُ أنام دائماً على المقعد الخلفي، وهذا ما لم يُسمح لي أن أذكره في قصتي الرسمية، لأنني قد أكون رأيتُ الحدود التي عَبَرتها رسمياً بالسيارة دون أن أنتبه إلى ذلك... ثم قد يضطر المرء إلى الكذب، الكذب الذي سيقترب من الحقيقة في أقرب فرصة ممكنة، على أبعد تقدير في نهاية الهروب: «بعد كل شيء قضيتُ في الغابة ليلتين كاملتين أعاني فيهما من الحمى، حيث كانت الغابة مظلمةً ورطبةً، ولكن أين كان ذلك بالضبط؟ هذا ما لا أستطيع قوله. لماذا كنتُ متأكدة تماماً أنه كان في ألمانيا؟ حسناً، هذا ما أبلغني به سائق الشاحنة. نعم، عندما أنزلني في موقف للسيارات، ثم واصلتُ المسير بمفردي وكانت اللافتة التالية ــ صفراء اللون، هذا ما أعلمه»!، كانت لعبة دقيقة ومستنزفة للطاقة والحيوية، وبالطبع كانت أكثر من مجرد لعبة.

«ماذا لو لم أتذكر ذلك بالضبط»؟ سألتْ هينينغ الذي جَعّد جبينه وأجاب: «كلما كانت البيانات دقيقة أكثر، كان ذلك أفضل. لقد عايشنا هنا الكثير من الحالات التي كان فيها الناس غير مقنعين لأنهم كانوا فقط يُومئون بأكتافهم، وهذا يعني أن تصريحاتهم مشكوكٌ فيها وغير موثوقة».

تنهدت آمال وابتسم هينينغ بشكل مشجع: «الناسُ في المكتب يريدون فقط أن يتمكنوا من تخيّل هروبك، كلما كان الفلم أوضح أمام أعينهم صدَّقوك بشكل أسهل». استمرت آمال بالسير ببطء، دخلت من خلال الأبواب المزدوجة في نهاية الممر ورأت اثنين من الشيشان يقفان عند مدخل الباب المفتوح الذي توجد خلفه رفوف صناديق البريد. اقتربتْ أكثر وأخذت تشعر بضربات قلبها، دخلت عَبر مدخل الباب وألقت نظرةً سريعةً على صندوق بريدها ــ لم ترَ شيئاً، إذ لا يوجد فيه مظروفٌ يحمل النسر الفيدرالي أعلى جانبه الأيسر. دخلت آمال أكثر وتأكدت بأن الصندوق فارغٌ، ومتربٌ، ولكنه فارغٌ، فأخرجت زَفيراً بارتياح. وكما هو الحال دائماً فإنها شعرت بالارتياح في بادئ الأمر فقط ثم في خيبة أمل بعدها بقليل. إن عدم وجود رسالة لا يعني سوى الانتظار إلى اليوم التالي. وهذا يعني أن كل شيء سيستمر، فالأمس مثل اليوم ومثل الأسابيع والشهور التي مضت. فعجلة الزمان تدور إلى الوراء ولكن أيضاً إلى الأمام، والهواء هو مثلما هو دائماً بل يزداد تجهماً. لذا شعرت آمال بأنها بحاجة الى استنشاق هواءٍ نقي، التفتت حولها ومضت نحو باب الخروج، وهنا لمحت رأس «أبو» عند الأبواب الكبيرة، ولكن قبل أن يناديها «أبو» خرجت مسرعةً عِبر باب الدخول، لأنها لا ترغب في التحدث الآن، تريد أن تكون وحدها، أن تذهب خارجاً، تذهب إلى مكانٍ ما، ولكن ليس إلى الغابة. إن نهرين كانت على حق عندما قالت: «إن الزمن لا يمنحك مجالاً للتوضيح، وإنما يداهمك فجأةً». ربما ستقول ذلك إلى راوية في محادثتهما المقبلة. ولكن ألا تعلم راوية ذلك مسبقاً؟ هل انتظارها لخبرٍ من آمال أو أبوها أمرٌ مختلفٌ تماماً؟ إنه أملٌ في تغيير الوضع وخوفٌ من حدوث التغيير الذي يخشاه المرء؟ في مقهى الإنترنت وجدت آمال عندما فتحت حسابها الإلكتروني رسالةً من كلارا تقترح فيها عليها بأنها ستجلب لها الكمبيوتر غداً، «مكان اللقاء: أمام مدخل المبنى عند الساعة الثانية عشر ظهراً». اندهشت آمال لذلك المقترح، فهذا يعني أن كلارا تعلم أو تخمّن أنه لا يمكن الوصول إلى غرف السكن، لا من خلال دق الجرس ولا من خلال الاتصال على الهاتف الداخلي. وقبل أن ترسل آمال جوابها إلى كلارا: ــ نعم، إن ظهر غد يناسبني ــ ألقت نظرةً أخيرةً على سطور كلارا وتوقفت عندما رأت أن كلارا لم تبعث بالرسالة إليها فقط، وإنما إلى عنوان آخر على «جي ميل» اسمه تارون ساركار. بدا الاسم «ساركار» لآمال بأنه باكستاني. والآن شعرت بالبرد.

كلارا

بينما كان تارون يتصفح بريده في المساء صدفةً سأل كلارا عمَن تكون آمال: «هل هي إحدى الطبيبات اللواتي تعرفتِ إليهن في المؤتمر»؟.

نظرت كلارا إليه وهي تحاول أن تفهم كيف خطر في باله أن يسأل عن آمال. عندها أشار تارون إلى جهاز الكمبيوتر المحمول المفتوح أمامه على المنضدة: «إنها رسالتك التي أرسلتيها أمس بشأن لقائكما غداً».

الآن أدركتْ كلارا بأنها عن طريق الخطأ أرسلت نفس رسالة آمال إلى تارون أيضاً! تماماً مثلما يفعل البعض في كثير من الأحيان لإبلاغ الآخرين بخططهم الخاصة. أومأت كلارا برأسها وأجابته: «كلا، هي ليست زميلة لي».

خيَّمَ الصمتُ عليهما. نظرَ تارون إليها محاولاً على ما يبدو أن يعرف فيما لو أن كلارا ستستمر في الكلام.

«إنَّ آمال عراقية، هربت من بغداد وطلبت اللجوء هنا. كانت مستلقية في الشارع، وأنا»، توقفتْ كلارا هنا لتبحث عن كلمةٍ مناسبة.

«عالجتِهَا في المستشفى»؟، سألها تارون.

ترددت كلارا وفكرت فيما سيبدو عليه الأمر لو تحدثت الآن عن الحادث الذي حدثَ قبل أسبوعين، وأجابت:

«نعم»، ثم أكملتْ حديثها بسرعة: «قالت لي آمال إنها كثيراً ما تتحدث مع والدتها في بغداد ولكنها لا تملك هاتفاً أو جهاز كمبيوتر في سكن اللجوء الذي تعيش فيه الآن كي تتمكن من إجراء مكالمات مجانية، عندها خطر لي أنه بإمكاني أن أعيرها جهاز الكمبيوتر المحمول القديم الموجود لديَّ في القبو».

وافقها تارون الرأي، إذ يبدو أنه أحب هذه الفكرة ولم يستغربها، وقال: «هذا لطفٌ منك»، أسندَ ظهره على الكرسي ومد يديه. اندفعت كلارا إليه، أمسكت برأسه ومسحت على شعره الأسود الذي بدا سميكاً وفقاً لتسريحته ومرّرت إصبعها الأوسط على أنفه الممشوق وشفتيه الناعمتين حتى لفَّ تارون يديه على خصرها لتعلم كلارا بأنه بهذا انتهى حديثها مع تارون للتو.

إلا أن هذا لا يعني أن الأمر انتهى هكذا. فبعد ذلك أخذت كلارا تفكر بالأمر عندما رأت نفسها في مرآة الحمام الكبيرة ولمحت نظرتها وسط الزجاج الكثيف. لماذا أخبرته قبل قليل بهذا الهراء، وهل فهمَ تارون من هذا بأنها التقت آمال في المستشفى؟ لماذا كذبتُ؟ نعم، كذبتُ! بالطبع كانت مجرد جملة واحدة ولن تحرجها التفاصيل التي بالتأكيد لن يصر عليها تارون حتى لو التقى مع آمال في يوم من الأيام. أخذت كلارا فرشاة شعرها. إن تارون ليس بالشخص الذي يقوم بدور المُصلح الأخلاقي في الأشياء التي لم يرَها بنفسه إطلاقاً، ومن المؤكد أنه لن يوجه إليها اللوم لو كانت اعترفت له بأنها دهستْ آمال من دون قصد، بل ربما سيهدّئها بقوله لها بأن هذا ممكنٌ أن يحدث لأي شخص. ولكن لهذا السبب لا يوجد تفسير لتصرفها السخيف جدًّا والغبي وغير المبرر له.

«شيء ما فيكِ دفعكِ إلى ذلك»، تسمع والدتها تهمس لها وتبتسم بسخرية كما لو كانت جادةً نوعاً ما في ذلك.

إلا أن والدتها في الوقت نفسه تعد هذا الكلام جاداً تماماً، إذ إن مهنتها بأكملها تستند إلى أخذ كل ما هو «مُلِّح {عاجل}» مأخذ الجد ومحور الحديث.

«إذا لم تكوني مستعدةً بعد فإنني سوف أحتاج إلى مزيدٍ من الساعات يا حلوتي الرشيقة.. ها أنا ألتقطكِ»!، كثيراً ما اعتاد أبي أن يمازحها هكذا في الماضي، فتفهمه «لوو» أمها «لويزا» وترفع حاجبيها مبتسمة بابتسامة تقولُ فيها: أتعتقد يا يورغن أن هذا مجرد مزاح...

فتحت كلارا حنفية الماء وأخذت الصابونة من الوعاء. منذ شبابها وهي تتعجب كيف أن والديها على الرغم من ــ أو ربما بسبب ــ بعض الخلافات استطاعا أن يحافظا على الاحترام المتبادل بينهما، وكيف أنهما تمَكّنا من أن يكونا صادقين بعضهما مع بعض ودون خلاف.

حتى لو أنها كانت تعلم أن هذا العمل الفذ لا يرجع إلى طبيعة والدها الهادئة واللطيفة، غير أن ما يثير تساؤلها هو كيف يمكن لوالدتها التي تُصِرُّ دائماً على أن تكون هي صاحبة الكلمة الأخيرة أن تتماشى مع شريكٍ حساسٍ كثير النزاع ــ وهنا أغلقت كلارا حنفية الماء وجففت يديها. وبالإضافة إلى ذلك فإن والدها يرفض التحليل النفسي وكافة العلاجات التي تقوم بها «لوو» كل يوم، نعم يرفضها تماماً، وأوضحَ: «نحن نكمل بعضنا بعضاً بشكلٍ رائع»، ثم تابعَ: «بينما أنتِ تحاولين أن تفهمي الناس من الداخل أنا أفهمهم من الخارج». قال ذلك المؤرخ الذي يحاول في دراساته المعقدة المؤلفة عن أوائل العصر الحديث لأوروبا الوسطى وعن الصين الحديثة مؤخراً أيضاً أن يفهم الإنسان من حيث العصر والبيئة، الحرب والسلام، الجوع والازدهار، الدكتاتورية والحرية. ظنت كلارا وهي تطفئ ضوء الحمام وتذهب إلى غرفة النوم أن تلك النظرة من الخارج إلى الداخل هي التي تُشعرها بأنها قريبةٌ منها. ولأنهما متشابهتان فإنه لم يكن من قبيل الصدفة أن والدها بعد سفرتهم إلى المغرب العربي آنذاك تفهَّم في الحال سبب رغبتها في دراسة الطب: ليس كي تتبع والدتها مثلما كان يعتقد الكثيرون، وإنما من أجل أن تعيد بناء البُنية الخارجية للإنسان، أي جسمه، وكذلك من أجل أن تقويه من الداخل، وكي تساعد الناس من خلال قيامها «بالخياطة أكثر من الحفر»، كما قال ذلك رئيسها في غرفة الطوارئ يورغ ذات مرة وبدقة.

أخذت كلارا قميصها من تحت وسادتها وأرادت للتو فرد الغطاء في حين دخلَ تارون الغرفة وقال لها: «إذا أردتِ إعطاء جهاز الكمبيوتر الخاص بك إلى الشابة العراقية كي تجري المكالمات من خلاله، ألا تحتاج إلى سمَّاعة أيضاً»؟، ودون أن ينتظر الإجابة واصل قوله: «خذي سماعتي إن كنتِ ترغبين في هذا، فقد وضعتها لكِ على منضدة الطعام. صباح الغد سأحصل على واحدة جديدة فلدينا في المكتب دائماً بعضاً منها للاحتياط». أومأتْ كلارا برأسها ونظرتْ إلى تارون الذي دخل إلى الحمام وهي تعتريها موجةٌ من الأحاسيس الرقيقة، إذ إن سخاء تارون وطبيعته التي تجعله يفكر في ظروف الغرباء الآخرين هو واحدٌ من الأشياء التي تحبها كلارا فيه.

عندما عاد تارون متأخراً بعض الشي نظرت إليه كلارا وسألته: «هل تتذكر كيف التقينا أول مرة للجَري معاً»؟.

اقترب تارون منها وأجاب ضاحكاً: «عندما كانت لديكِ ساعة مراقبة معدل ضربات النبض وأحَطْتِني بذلك الجهاز؟ بالتأكيد. لقد تفحصتِ بعد الركض قلبي الكبير يا سيدتي الدكتورة. «إنه قلبُ عدّاء المسافات الطويلة».

فقالت له: «قلبُ عدّاء ماراثون»، مبتسمةً ومدت يدها إليه.

آمال

في هذه الليلة نامت بشكلٍ سيئ أيضاً. استيقظتْ مراتٍ عدة وهمست بصوتٍ منخفض، بأنه من الممكن بسهولة توضيح الأمر على وجه اليقين. إذ ينبغي أن يكون هناك خطأ أو سهو في إرسال الرسالة إلى المرسل إليه الثاني كونه شخصاً لا علاقةَ له بما يدور في رأسها منذ الأمس، لأنه إذا كان الأشخاص الذين ــ ربما ــ يكون والدها في قبضتهم قد لاحقوها فعلاً إلى ألمانيا وجنّدوا لذلك جهاز الاستخبارات الباكستانية هنا، والذي لا يعرف أحدٌ عنه شيئاً هنا ولا مع مَن يتعاون حقاً، فإنهم مع ذلك قد لا يكونون بهذه الدرجة من الإهمال بحيث يضعون عنوان أحد موظفيهم في حقل عنوان البريد الإلكتروني علناً هكذا. ربما توجب على آمال أن تواجه ذلك وأن تكون في ريبةٍ منه، فكانت تلك رسالةً مبهمة لها توجب عليها أن تفك شفرتها من أجل سلامتها وسلامة والدها... أخذت آمال تُومئ برأسها لمدة طويلة: فإنه لو كانت كلارا قد مرت من أمامها في الدراجة لَكان كل شيء مخططاً له، ولكن شاءت الصدفة بالتأكيد أن يقع الحادث بشكلٍ طبيعي.

عادت آمال إلى فراشها وهي مستاءة من تكهُّناتها المجنونة. إن ما لم يجعلها تنام هو: رجلٌ يحملُ اسماً غير مألوفٍ في أوروبا، قد يكون أحد معارف كلارا الذي انزلق عنوانه ربما عن طريق الخطأ في حقل العنوان البريدي؟ على الرغم من أن هُويّته عُرِفت مسبقاً، فعندما كانت في مقهى الإنترنت يوم أمس بحثت عن اسم «تارون سركار» فوجدت بروفايلاً شخصياً باسمه يدل على أنه عِمَاريٌّ هندي الأصل ويعمل منذ ثلاث سنوات في شركةٍ للهندسةِ المعمارية هنا في برلين. وعَملَ قبل ذلك في لندن حيث درسَ هناكَ أيضاً. ودلّتْ صورتُه الشخصية على أنه رجلٌ لطيفٌ وفي الوقت ذاته جاد. ويبدو أنه في نفس سِنّ كلارا وقد تطابقت صورته مع نفس الصورة الموجودة له ضمن موظّفي مكتب العمارة في برلين. ولكن هل يُمكن لعميلٍ باكستاني التسلل إلى مكتب أغلب عُمّاله من الألمان وفيه عددٌ قليلٌ من الأجانب؟ عميلٌ يصمتُ دائماً إزاء الموضوعات التخصصية الاحترافية؟ كلا، تريدُ آمال أن تصرخ، أن تضحك على خيالها لكنها متعبةٌ جداً ولا تقوى على ذلك. فقد يكون العميلُ مهندساً معمارياً متعلّماً... ومَن يستطيع هنا التحقق فيما إذا كان هو فعلاً من الهند؟ أرست آمال رأسها في الوسادة بشكلٍ عميقٍ جداً بحيث إنها عادت غير قادرة على تحريكه وانتظرت قدوم الصباح.

من شدة إرهاقها لم تستطع النوم. استيقظت وفي جَعْبتها ذكرياتٌ جَمّة، ذكرياتٌ مرغوبٌ فيها وأخرى غير مرغوب فيها: منها الزنزانة في سجن أدرنة، في ذلك المستطيل ذي الأربعة أَسِرَّة بين الجدران الحجرية السميكة الملتصقُ بها عرقُ سنواتٍ طوال. كانت تَشعرُ أحياناً في الزنزانةً ليلاً بأنه ليس الجدران الحجرية هي المادة الصلبة هنا، وإنما الهواء العتيق الثقيل بينهما. استطاعت حتى أن تشم رائحةَ النساء اللواتي كُنَّ قبلها يتنَفّسن ويَنَمْنَ هنا في الزنزانة، فالهواء متخلّل طبقات عرقهنّ، أحياناً أحلى وأكثر حميمية، وأحياناً أخرى عرق حامض وجلديّ، وفي الزوايا كان هناك خليطٌ من كل شيء، لاذعٌ سام. وفي الوسط تمكثُ هي على سريرها بفراشه المتعَفّن، ومن حولها ثلاثُ نساء أخريات لم يكُنَّ جميعهن هاربات مثلها، وكنَّ أكبر سناً منها. هل كنَّ سَجِيناتٍ سياسياتٍ؟ لم تستطع معرفة ذلك، فهؤلاء النساء لم يتحدثن معها، ربما لاعتقادهنَّ أن الأمر لا يستحق هذا العناء كله، أو ربما كنَّ يعلمنَ أن آمال لن تبقى معهُنَّ مدةً طويلةً. إنها مجرد ثلاثة أيام. من أطول ثلاثة أيام في حياتها. قالت بعد عودتها إلى جدتها: «أتعرفين ما كان سيئاً؟ أنني لم أستطع أن أنسى ولو لثانيةٍ واحدة أين كنتُ. فالتحليق في الأفكار بعيداً عادَ لا يجدي نفعاً والنوم الهانئ العميق كان أمراً مستحيلاً. وكانت الجدران تصلُ إلى هذا الحد ــ أشارت آمال إلى جبينها ثم إلى صدرها، في حين مسحت عشتار بيدها المجعدة شعرها بلطف: «في المرة القادمة ستسير الأمور على ما يرام»، خفضتْ آمالُ رأسها واستمرت جدتها بالحديث بصوتها الهادئ المريح:

«آمال، هل ستتعلمين اللغة الألمانية عندما ستكونين بعد ذلك في ألمانيا؟ وهل ستبعثين لي في وقتٍ ما من فصل الربيع بوَرْدِ البنفسج الأزرق اللون؟ في الحقيقة هناك شيءٌ لم تعرفيه بعد، اسمعي: في صباح اليوم التالي للثورة، أي في اليوم الثاني من الاستقلال في يوليو 1958 وجدتُ في دفترٍ جلدي صغير في الشارع قرب مدخل السوق وردة بنفسج، ربما كانت تلك هديةً تذكاريةً من الوطن تعود إلى إحدى الجنود البريطانيين الذين أصيبوا في عَشِيّة الليلةِ الماضية، وقد يكون وَضعها في بنطاله ثم نَسِيها على الطريق أثناء نقله. وقفتُ أنظرُ إلى وردة البنفسج إذ كنتُ مفتونةً بلونها الأزرق الغامق. وعندما سمعتُ أصوات أشخاصٍ خلفي التقطتُ وردة البنفسج مع الدفتر وأخذتها معي إلى المنزل ووضعتها في صندوق.

كنتُ أنظر إليها من وقتٍ إلى آخر وأمسح على أوراق الورد التي أعجبني لونها الأزرق، ولكن بمرور السنوات تلاشى لونها وتساقطت الزهور شيئاً فشيئاً. لذا أتمنى لو أرى مرة أخرى وردة بنفسج طازج ألمسه بيدي وأشمُّ رائحته في أحسن الأحوال. نعم يا آمال أريد بنفسجاً برّيًّا ناضِجاً؟ أتعدينني بهذا»؟، قالت الجدة ذلك وأمسكت بيد آمال.

تقلبت آمالُ في سريرها إذ إنها وعدت جدتها لكنها لم ترسل لها وردة البنفسج بعد، فقد أرادت الانتظار لحين حصولها على خطاب اللجوء، ذلك الخطاب الذي يمكّنها من البقاء هنا بالفعل. تذكرت آمال ذلك وسمعتْ صوت أول طائرٍ يُغرِّد في الخارج.

وعندما رأت كلارا تأتي عبر المدخل وعبر موقف السيارات أخذت آمال وقتها الكافي لتتأملها جيداً. فاليوم تكتنزُ أرجل كلارا الرشيقة في حذاءٍ عالٍ، وعلى ظهرها تحملُ حقيبةً جلدية ربما يكونُ فيها الكمبيوتر المحمول، وخصلات شعرها المجعد تتراقص مع إيقاع خطواتها، حينها أيقنت آمال في الحال بأن كلارا جميلةٌ ورشيقةٌ ورقيقة ولكن يبدو أنها لا تدرك ذلك، فهي تمشي مسرعةً مندفعةً بأكتافٍ منحنية كالمهرة، تماماً مثلما ظنتها آمال بعد لقائهما الأول، كأنها فرس السباق اليافع الذي لا يستقر بسهولة ويبحث عما يوقف إيقاع خطواته، ولكن عندما وجدته الآن وتأملت الأمتار القليلة المتبقية بدت لها نظرة كلارا الغامضة وتركيزها المدروس أمراً محبباً، وكذلك قدرتها على أن تكون غائبةً وفي الوقت ذاته ذات تركيزٍ عالٍ للغاية. وبينما تصافحتا كلتاهما أوضحت لها كلارا على الفور بضرورة أن تعتذر لها: «لقد أرسلتُ إلى صديقي نسخةً من إيميلي إليكِ عن طريق الخطأ. أرجو المعذرة، فهذا كان خطأً مني، ببساطة لم أكن منتبهة، فنحن نقوم بذلك أحياناً لإعلام الآخر بالأمر. ولكن يمكنك الوثوق بتارون فهو لن يعطي عنوانكِ ولن يقوم بأي شيء آخر». ربتت كلارا على حقيبة ظهرها وهي تلوي ذراعها بإرهاق قائلةً: «هنا صورةٌ له. سترين رجلاً لطيفاً».

ابتسمت آمال سِراً أو علناً، مَن يدري ذلك، لكنها علمت أنها لم تتوقع شيئاً مغايراً من كلارا فالخيول ليست جواسيسَ. الجواسيس هم الثعالب أو الثعابين.

كلارا

إن وجه آمال لا يمكن له أن يبوح فيما لو كانت هي تتوقع تفسيراً ما، إذ تحركت شفاهها لمدة وجيزة وبسرعة لدرجة أن تلك الحركة التي ربما كانت مجرد ردة فعل بدت بلا معنًى.

بعدها ضحكت آمال وقالت: «حسناً». اقترب رأسها أكثر وتحولت ضحكتها إلى ابتسامة: «كلارا، إن رغبتكِ في الصراحة والانفتاح ترفع من شأنك. في بلدنا نقول: إن بيت الصداقة لديه أبواب مفتوحة ونوافذ موصدة».

ضحكت كلارا، فالملاحظة تلك أسعدتها لا سيما وأن آمال تبدو مرتاحةً للغاية بل حتى أكثر استرخاءً من المرةِ الأخيرة. ودون تردد لبَّت آمال دعوة كلارا لاستلام الكمبيوتر في مقهى أو مطعمٍ للوجبات الخفيفة، وفعلاً ذهبتا الاثنتان معاً.

وبينما ذهبن تحت أشعة الشمس المشرقة في ذات الطريق الذي ذهبن إليه في المرة الأخيرة، لاحظت كلارا أن آمال توقفت مراتٍ عدة تتأمل فيها الزهور المغروسة على جانبَي الطريق في الحدائق الأمامية أو في تقاطع الشوارع، مثل زهور كوزليبس والقرنفل والهندباء. وفي الحدائق الأمامية لواجهات البيوت من خلف الشارع مباشرة كانت توجد شجرتا كرز مزهرتان لم تنتبه إليهما كلارا في آخر زيارة لها أو قد تكونان بدأتا في النمو للتو. حينها قالت آمال: «جدتي خبيرة عتيدة في النباتات. في هذا الوقت من السنة تبدو حديقتها كأنها بحرٌ من الألوان، حتى نبتتها المفضلة لديها «زهرة الدفلى» الورديةِ الطويلة تنمو الآن». وأخبرتها أيضاً بأن جدتها هي مَن ترعى الحديقة بنفسها: «فقط في حالات نادرة جداً تشعرُ أنها لا تقوى على ذلك، وهذا غالباً ما يحدث بعد نوبة السُّكّري بقليل لأنها مريضة بداء السكري، أو عندما يكون ضغطها مرتفعاً جداً».

«هل تتناول جدتكِ الدواء»؟، سألتها كلارا.

«أمي تزرق لها إبر الأنسولين. بالإضافة إلى ذلك، فإنها تتناول حبوباً لمعالجة ارتفاع ضغط الدم»، أجابت آمال.

«جيد، ربما مثبطات (أي سي إي) أو مُدرّ البول»، أجابتها كلارا.

«أتعرفين ما اسم تلك النباتات»؟، سألت آمال وهي تشير إلى لوح من الزهور الأرجوانية والصفراء. إنها الزنابق ــ ظنت كلارا دون أن تعرف ما اسمها باللغة الإنكليزية، ربما تُدعى «Stepmothers». ثم ردت كلارا بأنها «الزنابق»، وقد تكون نوعاً خاصاً من «البنفسج»، ولكنها للأسف لا تعرف ما اسمها الدقيق باللغة الإنكليزية. إن آمال تريد أن تعرف إلى أي مدًى هي «نوعٌ خاص من البنفسج». جعّدت كلارا جبينها لعدم تمَكّنها من قول ذلك بالضبط، فهي لا يمكنها حتى أن تتذكر من أين لها أن تعلم أن تلك الزهور كانت تنتمي إلى جنس البنفسج، ربما أخبرتها بذلك جدتها التي اعتادت زَرْعَ تلك الزهور كل ربيع في سنادين شرفتها. «حسناً»، قالت كلارا، «تلك الزهور لها

غالباً لونان وأوراق مستديرة ومتداخلة بعضها مع بعض»، وهنا أشارت كلارا إلى لوح الزهور المجاور لهما، «ولكن البنفسج الكلاسيكي له لون واحد فقط، وغالباً ما يكون الأزرق أو الأرجواني، وله رائحةٌ طيبة وتنتشر أوراقه بسخاءٍ بالغ»، وهنا أشارت كلارا بيديها إلى الأوراق الممتدة بسخاء.

أومأت آمال برأسها ولكنها تبدو غير مقتنعةٍ وسألت: «أين يمكنني العثور على البنفسج الأزرق الكلاسيكي»؟.

«في الغابة، تحت الشجيرات أو تحت الأشجار، وحتى في الغابة الصغيرة خلف السكن يمكنكِ إيجاده»، أجابتها كلارا.

يبدو أن آمال فرحت لسماع ذلك وأخبرتها بأنها وَعَدت جدتها بأن تبعث لها من أوروبا بوَرْد البنفسج: «في بغداد لا يوجد أيٌّ من ورود البنفسج التي تنمو على جانبي الطريق». لم تتفاجأ كلارا لسماع ذلك، وأردفت القول: «إن البنفسج لا يحتاج إلى الشمس فحسب، بل إلى الظل أيضاً، وقبل كل شيء إلى أرضٍ رطبةٍ. وفي ألمانيا تمطر هنا بما فيه الكفاية، وبالتأكيد أنكِ لاحظتِ هذا هنا». أومأت آمال بعينيها.

ولكن كيف ولماذا طلبت بعد مضي ساعتين تقريباً قدحَيْن من القهوة بنكهة الروم ــ لكل واحدةٍ منهما قدحاً واحداً! ــ فهذا ما لم تستطع كلارا توضيحه بالضبط. إلا أن ما هي متأكدةٌ منه هو أنهما ضحكتا كثيراً، وتحدَّثتا عن بابل، عن عائلة آمال، عن التنفس وعضلة القلب أثناء الجري، عن تارون وبوابة عشتار في برلين، عن أورام الكبد في بلدٍ يتزايد فيه تأثير الأئمة، وعن هروب آمال لمرتين اثنتين. بعد هذا كله شعرت كلارا بأنها تعرف المرأة التي تجلس قبالتها، والتي لم تكن مجرد فتاةٍ بل كانت امرأةً بحق. ثم إنها تعتقد أنه إنْ كان هناك شيء أنثوي في شخصية آمال فهو بالطبع صراحتها المطلقة، وكذلك فطنتها الصادقة البريئة، لأنها حينما أخذت تتحدث عن المدة التي قضتها في السجن أصبحت كلارا عاجزة عن الكلام. ولم يتضمن حديثها عن الأيام التي قضتها في السجن الجماعي تصويراً درامياً بل وعياً تاماً بمخاوفها آنذاك لتذكر بالضبط ما كان لا يطاق تحمله على الإطلاق: «أن تكون محبوساً في السجن هو ليس مثل انزلاقك في كهفٍ بعد انهيار الأرض التي تقف عليها، لأنك ستكون دائماً تحت رحمة إرادة البشر، أي إما تحت التعسف والاستبداد وإما تحت وطأة القانون، لذا فإنه من المستحيل نسيان ذلك. وعليه إن لم تستطع تقبل القانون الذي يعاقبك أو في الأقل السماح بحبسك بكونه يتعارض مع فهمك للعدالة والعدل، فإن هذه العقوبة يمكن أن تدمرك، تمزقك من الداخل، في البدء تتشاور معك عن كل شيء، ثم تلعنك، وفي نهاية المطاف تجعلك تشعر باليأس»، قالت آمال ذلك بموضوعيةٍ تامة ولكن ليس بهدوءٍ تام وكذلك ليس بغضب.

لم تعرف كلارا ما عساها أن تُجيب إن كان الردُّ ممكناً على قولٍ كهذا هو بالفعل تجربة حقيقية أكثر من كونه مجرد قول.

أخبرتها آمال كيف أنه أُطْلِقَ سراحها بعد ثلاثة أيام ولكن دون الإفراج عنها، وإنما وُضِعَتْ في ساحة السجن بسيارةٍ تابعة للشرطة التركية بمعية الشابين الآخرين اللذين قُبض عليهما عند الحدود التركية اليونانية، قُيِّدَتْ أيديهما معاً واقتيدا عبر تركيا إلى الحدود العراقية. «عدنا معاً مرة أخرى ولكن لم يقل أحدٌ منا شيئاً، إذ كان عبء الفشل ثقيلاً على أكتافنا». لقد أمضى الشابان سامي ورشيد اللذان هربا مع آمال ثلاثة أيام في نفس السجن، ولكن في قسم آخر، وهناك فقط، كما ذكرت آمال، كان يوجد الطعام في الخَلِيّة ذاتها. «عندما اشتكى سامي ذات مرة من الأوضاع لدى الحارسِ الذي كان يرتاحُ إليه، أخبره هذا بهدوءٍ بأن مخَيّم الترحيل المشيَّد حديثاً على مقربةٍ منهم مكتظٌ منذ بداية الصيف، وقد يكون هناك «نقصٌ بالغذاء أكثر من ذلك بكثير»، فرحَ سامي لهذا فإنه لن يضطر إلى الانتظار هنا كثيراً». وكررت آمال كلمة «فرحَ»! وبعد السفر المتواصل لأكثر من يوم في سيارة الشرطة وصلوا إلى جنوب شرق تركيا. «هناك، عند الحدود مع كردستان اكتفت الشرطة التركية فقط بالقول: «اذهبوا! وحظاً سعيداً لكم»، قالوا لنا ذلك بلهجةٍ لا يمكن فهمها إن كانوا يقصدون ذلك حقاً أو للسخرية فقط. ربما لم يفهموا الشباب ذاتهم، هؤلاء الكلاب السلوقية، حقيقة ما يقصدونه»، تمتمت آمال في منديلها وهي تنظف أنفها.

تحدثت آمال عن الوقت الذي أمضته في بغداد بعد هروبها الأول وما قبل الثاني، وعن خوفها من المجازفة مرةً ثانيةً، ومحادثاتها الطويلة مع راويةٍ وعن جدتها عشتار، والأبحاث، وأخيرا عن قرارها في أن تحاول الهروب مرةً أخرى بأوراق مزيفة: «إن هذه الطريقة تُعد أكثر أماناً حتى الآن»، قالت ذلك وهي تُمسك بجبينها: «أمرٌ لا يُصدق، تخيلي: هنا فقط علمتُ من خلال أفرادٍ في مجلس اللاجئين بأن عُابات المنطقة الحدودية التركية اليونانية التي من خلالها أرادوا تهريبنا في المرة الأولى كانت في الصيف الماضي شبه سالكة! ويقال إنهم يبنون جداراً هناك أو بنوه بالفعل طيلة العام الماضي، وقد انتهوا منه الآن». وضعت آمال يدها ببطء خلف رأسها. «الناس هنا في ألمانيا يعرفون المنطقة الحدودية من الإنترنت والصحف أفضل مما كنا نعرفه نحن عنها آنذاك! عندها كان الشخص الوسيط في إسطنبول الذي لجأنا إليه أنا وراوية في المرة الأولى يتمتع بسمعةٍ طيبة في العراق. وإن الرجل الذي هرب في التسعينيات من العراق أحضرَ في السنوات القليلة الماضية مراراً أشخاصاً من منطقتنا بأمان إلى أوروبا، بما فيهم أصدقاء بعيدون لراوية. ولكن يبدو (توقفت آمال لبرهة) أنه قرر العام الماضي أن يستند إلى تلك السمعة واستمر ببساطة بعمله وسلك الطريق ذاته وأقنعنا بأنه سيكون آمناً على رغم ما كان يُقرأ بالفعل في المواقع الإلكترونية الألمانية والإنكليزية عن كم الكاميرات الحرارية والكلاب البوليسية التي تحرس السياج الحدودي..»..

أومأت آمال برأسها وتساءلت كلارا فيما لو لم تستطع آمال حينها في بغداد البحث في الإنترنت عن تقاريرَ إنكليزية حول المنطقة الحدودية. ولكن حتى إذا كان الأمر كذلك فعلاً ــ فما أهمية هذا إذا كان القلقُ يلتفُ حول رقبتك ومُهرِّبٌ خبيرٌ يؤكد لك أن هذا شيءٌ روتيني بالنسبة إلى ناسه وسيكون «مضموناً»...

«لحسن الحظ سارت الأمور في المرة الثانية على ما يرام»، قالت لها كلارا. حتى وإن لم تتحدث آمال عن هذا الهروب باسترخاءٍ وهدوءٍ أكثر، مثلما كان من المُفترض أن يكون، فإن ما حدث كان عكس ذلك. إذ شعرت كلارا مراتٍ عدة بأنه ينبغي لآمال أن تتغلب بالفعل على نفسها وتتحدث عن هذا الجزء من هروبها، فقد أرادت التحدث عنه، لكنها أحياناً كانت تتحدث باندفاع شديد وتتصارع مراراً وتكراراً ضد مقاومةٍ ما بداخلها.

في سيارة «فورد حمراء»، على حد قول آمال، وبأوراق مزورة نُقِلَت في غضون يوم ونصف عبر أوروبا الشرقية، من شمال تركيا إلى النمسا. وكان السائق تركيًّا كرديًّا يعيش في النمسا منذ سنوات عدة مع عائلته وزوجته وابنته الصغيرة التي تجلس معهم في السيارة. «كانت السيارة تنفجر من كثرة اللحامات، مملوءة بالمواد الغذائية، والقماش، والتبغ، والروائح بشكلٍ لا يُصدَق. ولكن هذا هو بالضبط ما ينبغي أن يكون الأمر عليه، فالخطة كانت هكذا: عائلة تعود بعد أن قضت عطلتها الصيفية في الوطن الأم». لم تفهم كلارا ما تعنيه آمال، هل أُعتبرت هي فرداً من الأسرة التركية تلك؟ «نعم»، أجابت آمال مبتسمةً قليلاً: «وفقاً لجواز سفري كنت أنا تركية تعيش في النمسا منذ سنوات، على الرغم من أني في ذلك الوقت لم أكن أتكلم التركية ولا أجيد أية كلمة من الألمانية»!، ولكن وحسبما ذكرت آمال فإنه أُكِّدَ لآمال بأنه بهذا الجواز المزوَّر والذي هو نفس بقية جوازات العائلة ينبغي أن لا تكون هناك أية مشكلة: «أوضح لنا الرجلُ الوسيط أنه بالنسبة إلى العوائل فإن حرس الحدود لا يرون سوى جوازات الوالدين، لا سيما جواز الأب، إذ إن حرس الحدود الأتراك لا يدققون الجوازات بشكلٍ صارم عند المغادرة، ثم إنه بعد دخول بلغاريا المجاورة على أبعد حد فإنه ليس هناك أحدٌ يتحدث التركية على الإطلاق ــ ولا حتى الألمانية. كل شيء بدا لمسامع كلارا أكثر من مغامرة، ولكن من الواضح أن الرجل الوسيط كان على حق، لأنه وكما ذكرت آمال، لم تكن هناك أي صعوبات حقيقية عند المعابر الحدودية، أو في الأقل لا شيء من تلك الصعوبات التي يمكن حلها بمساعدة اليدين...

«وعلى الحدود من تركيا إلى بلغاريا لم نُضطر حتى إلى مغادرة السيارة، تماماً كما توقع الرجل، ولكن الصعوبة بدأت حال دخولنا صربيا. كان الظلامُ قد حلَّ وتوجب علينا أن ننزل من السيارة. أتت الكلابُ نحونا وأخذت تشمُّ السيارة في حين كان أحد الموظفين يتفحص جوازاتنا ويسلط ضوء الكشاف على وجوهنا واحداً تلو الآخر. (أخذتْ آمال نفساً عميقاً) لقد كنتُ خائفةً وشعرتُ بالذعر. بطريقةٍ أو بأخرى تذكرتُ فجأة الهروب الأخير: الليل، والغابة المجاورة، وكراهية المسؤولين والكلاب. سألتُ نفسي ماذا لو كُشِفَ هنا عن أوراقي المزيفة، تُرى إلى أين سيقتادونني، هل إلى سجنٍ بلغاري؟ وماذا بعد ذلك؟ بدأت يدي اليمنى ترتجف، تصبب العرق مني وظننتُ أن هذه اليد المرتجفة ستفضح أمري، ولكن بعد ذلك ــ تلعثمت آمال ــ شعرتُ فجأة أنّ هناك يداً تقترب مني. إنها ياسمين، ابنة الأسرة، «أختي»، أمسكتْ يدها الصغيرة بيدي، استندت إليّ ودعمتني. ما زلتُ أتذكر تماماً أن يدها كانت دافئةً وجافة».

«كم كان عمر الابنة؟ وهل كانت تفهم ما يحدث أمامها»؟ سألتها كلارا.

رفعت آمال كتفيها: «أعتقد نعم، لكن يصعُب عليَّ تقدير سِنّها، ربما كانت تبلغ الخامسة أو السادسة من العمر».

أخذتْ آمال رشفةً واستمرت بالكلام: «بعدها سألتُ نفسي كثيراً ما الذي حرَّك ياسمين وكيف أثرُّت فيها في السيارة، فإننا لم نستطع حتى التحدث معاً. هل اعتادت ياسمين مثل هؤلاء الركاب؟ هل شهدتْ بالفعل أمراً مختلفاً آخر ـ مثلاً رُكّابا اختفوا في منتصف الطريق؟ لا أريدُ التفكير بذلك. (قامت آمال بحركة تذمر) وكالمعتاد بدتْ ياسمين كأنها تستلطفني. وعلى مقاعد السيارة الخلفية صنعنا بيوتاً صغيرةً من ورق البرتقال، ومن الأشرطة المطاطية صنعنا شخصيات، لعبنا ألعاباً بسيطة جداً وتفاجأتُ لأنها لم تكن تعرف أياً منها».

أسندتْ آمال ظهرها على الكرسي ثانيةً، وبعد أن تأملت المقهى بنظراتها عادت بالحديث إلى كلارا: «كانت عائلةً مضْحِكة. فالأم لمْ تنطِقْ طوال الوقت كلمةً واحدة ـ وقد استغرقت رِحلتنا ثلاثين ساعة تقريباً ـ أحياناً كانت تتحدث لمدة وجيزة مع طفلتها في مناطق الاستراحة فقط. غطتْ ياسمين ببطانية وكانت تحرصُ على أنها تشرب بما فيه الكفاية، عدا ذلك لم تتكلم قط. أما الأب فهو كردي وكان يتكلم العربية بشكل مقبول. كان كثير الكلام، لا سيما عندما اقتربت رِحلتنا من النهاية عندما كنا في كرواتيا وبعدها في النمسا». شربتْ آمال القهوة مرةً واحدة واستمرت بحديثها: «بعد أن نامَ على مقعده قرابة ساعتين في موقف السيارات في كرواتيا وشربَ ثلاثة أكواب من القهوة بدأ بالتحدث معي. يبدو أنه ارتأى أن يشرح لي لماذا ساعدني، إذ قالَ إنه لم يفعل ذلك من أجل المال، لا سيما أنهم لم يدفعوا له الشيء الكثير، لأن معظم المبلغ يتقاضاه يوسف، الوسيط، ومزورو جواز السفر. وقال إنه يقوم بهذه «الخدمات»، مثلما أسماها هو، لأن هذا قد يكون بمثابة «شكلٍ احتجاجي» منه «ضد التشريع الحالي» في الاتحاد الأوروبي، وبأنه ككردي يعيش في تركيا عانى من التمييز باستمرار، لذا تقدمَ بطلبٍ للحصول على اللجوء في النمسا منذ سنوات، وعليه فهو يعلم تماماً كيف يشعر المرء بذلك: «إنهم لا يعاملونك كإنسانٍ عادي وإنما كإنسان من الدرجة الثانية. وهم يستقدمُوننا فقط عندما يكونون بحاجةٍ إلى أناسٍ يعملون بالقذارة من أجلهم، ولكن إذا كنتَ تأتي إليهم لأسبابٍ أخرى، مثلاً لأنك مطارِدٌ في بلدك أو مهدد، فإنهم يودون فقط معرفة ما إذا كنتَ أتيتَ من وطنك إلى دائرتهم مباشرة بالطائرة»!.

«ولكن هكذا هو الأمر حقاً ـ »، قالت كلارا ذلك بصوتٍ عالٍ دون أن تكمل فكرتها. «بالطبع إنه على حق»، ردت آمالُ بسرعة: «نعم هو هكذا: كان متعاطفاً معي، متعاطفاً جداً بحيث إنني وعلى الرغم من الاتفاق المسبق استغربتُ تقريباً لموقفه عندما أنزلني في موقفٍ للسيارات بالقرب من سالزبورغ واكتفى فقط بالتلويح لي لوداعي دون حتى أن يصافحني، دون حتى أن يسألني كيف يمكنني أن أكمل مشواري من هناك ودون أن يعطِيَني قنينة ماء من مَؤُونته. أما جواز سفري فاحْتَفظ به عنده».

«لم يعطكِ جواز السفر»؟، سألتْ كلارا بدهشة.

أومأت آمال: «لستُ بحاجة إليه بعد الآن، فقد وصلتُ تقريباً إلى الهدف، وها أنا ذا في الاتحاد الأوروبي في منطقة دول الشنغن. وبصفتي امرأة تركية مزيفة فإنني لم أكن لأتمكن من التقدم بطلبٍ للجوء على أية حالٍ من الأحوال».

ظنت كلارا أن هذا هو الصواب.

«ولكن هذا ليس هو السبب الذي جعل الأب يبدو لي فيما بعد غريباً بعض الشيء، بل إنه يتعلق أكثر بياسمين»، قالت آمال ذلك ونظرت إلى كلارا.

«بياسمين»؟، كررت ذلك كلارا.

أومأتْ آمال برأسها وتحدثتْ فجأة بسرعة: «لا أعرف، ربما هي مجرد تصورات ولكن بطريقةٍ ما وجدتُ تعامله مع ابنته ياسمين مضحكاً. من ناحية ما كان هو منفتحاً جداً، ومن خلال تعطشه إلى الكلام وغضبه من القوانين كان هو محط ثقة، حتى إنني صدقته بأنه لم يساعدني من أجل المال. ولكن فيما يخص تصرفه إزاء ياسمين فكانت هناك مسافةٌ بينهما. لم يبدُ أن ياسمين كانت تخافه، بل كانت تجيب عن أسئلته، ومن الواضح أنها تعرفه لكنها لم تتصرف على أنه والدها، إذ إنه لم يكن هناك أي تواصل جسدي بينهما تقريباً، ليس كتلك الألفة التي بينها وبين أمها. أمسكت ياسمين بيدي وبالفعل لم تكن فتاةً خجولة! (صمتت آمال لبرهة ثم قالت): فيما بعد أدركتُ أن ياسمين لم تنادِ والدها بـ«بابا».

توقفتْ مرة أخرى.

«هل رأيتِ جوازات سفرهم»؟، سألتها كلارا بصوتٍ عالٍ.

ابتسمتْ آمال كما لو كانت تعلم بماذا تُفكِّر. «كلا، أعرف ما تقصدين بسؤالك، فأنا سألتُ نفسي أيضاً: أليست ياسمين ابنته؟ ألم تكن المرأة زوجته؟ لماذا إذن سافَرَتا معه؟ هل كانتا هاربتين مثلي؟ هل كانتا تتكلمان التركية بالفعل؟ أعتقد نعم، ومع ذلك ـ ربما لم أعلم هذا بالضبط (خمنتْ آمال ذلك) ولكن بعد ذلك أقول لنفسي إن هذا كله لا يعنيني في نهاية الأمر. ربما ينبغي أن نترك للناس الحق في طبيعة قصتهم».

كانت كلارا ترغب في أن تسأل آمال عما تعنيه بالضبط من هذه الجملة، لكن آمال نهضت واستأذنتها لتذهب إلى الحمام، وعندما عادت كان يبدو عليها عدم التركيز وعدم الاستقرار كما كانت عليه قبل قليل.

ومن أجل أن تعيد آمال مرة أخرى إلى حديثها سألتها كلارا بحذر: «وكيف أتيتِ بعدها إذن من سالزبورغ إلى ألمانيا»؟.

رفعت آمال حاجبيها كما لو كانت هذه قصةً أطول. «كنتُ أرغب حقاً في عبور الحدود القريبة من ألمانيا، لأنني كنتُ أعرف ألمانيا من قصص راوية عنها».

«وماذا قالت لكِ راوية بالضبط»؟، أرادت كلارا أن تعرف ذلك.

«كنتُ أعرف مثلاً أنه في العاصمة الألمانية برلين يوجد هناك بنايةٌ مهمة من تاريخنا، ألا وهي بوابة عشتار التي تحمل اسم الإلهة ذاتها الذي تحمله جدتي. بينما لا أعرف عن النمسا شيئاً سوى أنها بلدٌ جبلي». نظرتْ آمال نحو النافذة ثم صوب كلارا كأنها كما يبدو قررت إكمال القصة إلى نهايتها: «بعد أن لوّحتُ لي ياسمين من النافذة الخلفية لتُوَدّعني وذهبتْ السيارةُ الفورد الحمراء شعرتُ فجأة بالوحدة وعدم الحرية. شعرتُ بالبرد والتعب وكان الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن الشارع أمامي على بُعد بضعة كيلومترات يقود عبر معبر حدودي مباشرةً إلى ألمانيا، ويُقال بأنه خالٍ من التفتيش. وهذا يعني أنه ينبغي لي أن أجد سيارةً تُقِلّني معها. لذلك جلستُ وانتظرتُ ما يقارب ساعتين. أخيراً توقفت سيارة كان يقودها رجلٌ كبير السن، لم أفهم ما قاله، لذا قال باللغة الإنكليزية، «تعالي معي». وما إن جلست بجانبه حتى وضع يديه بين ساقيه ومرَّر لسانه على شفته العليا. فتحتُ الباب بقوة وقفزتُ من السيارة، لحسن الحظ نجحتُ بذلك ـ وركضتُ، ركضتُ في الغابة». ضغطت آمال على جفنيها: «لكني كنتُ متعبةً جداً ووجدتُ نفسي فجأةً وحيدة، فبالإضافة إلى اختلاف درجة حرارة الطقس، وأياً كانت الظروف فإني أردتُ النوم فقط. وبينما حلَّ الظلام استلقيتُ بين شجرتين واستغرقتُ في النوم. اشتدت البرودة في الليل فغطيتُ جسدي بالأوراق وحاولت مواصلة النوم. وفي صباح اليوم التالي استيقظتُ وإذا بي أعاني من حُمّى عالية. أردتُ الاستمرار وبحثتُ عن الطريق، عن أيةِ علامةٍ إرشادية، ولكنّي لم أقوَ على ذلك أبداً. رأسي كان كأنه يحترق مما حال دون ذهابي بعيداً». أخذتْ آمال كوبها. «في اليوم الثالث لم أكترث لأي شيء. كنتُ نحيلةً جداً وقلتُ لنفسي: حسناً، إن لم تكن ألمانيا، فالنمسا إذن. أردتُ فقط أن أكون في بقعةٍ ما. وجدتُ شارعاً فجلستُ على جانبَي الطريق وأخذتُ أنتظر. مرة أخرى لم تتوقف أية سيارة لي لمدة طويلة. كان الجو عاصفاً على جانب الطريق فأخذتُ أرتجف. أخيراً، في وقت ما ـ سمعتُ صوت فرامل سيارة نزل منها زوجان شابان. لم أعلم ما كان ظنهما بي لكنهما سألاني بلطف عن وجهتي التي أريد، أخذاني عبر الحدود التي لم تبدُ كبقية الحدود، إذ كان هناك شرطيٌّ واحدٌ يجلس في كابينته ولا أحد غيره يوجد في الخارج، ومرت السيارة عنده بسلاسة. أوصلني الزوجان إلى أقرب محطة قطار في ألمانيا، وعندما نزلتُ استدارا عند الساحة الأمامية ثم استمرّا ثانيةً

باتجاه الطريق السريع. أعتقد أنهما استدارا في البدء من أجلي فقط، وربما لم يكونا يريدان المجيء إلى ألمانيا على الإطلاق». ابتسمتْ آمال قليلا. «ومن المحطة أتيتَ بالقطار إلى برلين بعد أن أمضيتُ أغلب الأوقات في مراحيض القطار».

سكتت آمال وسادَ الصمتُ. وانتهت قصتها هنا. بدت آمال مُنهَكةً ولكن مرتاحة إلى حد ما. أمسكت بوعاء السكر وأضافت سُكَّرا إلى بقية القهوة في كوبها، غيّرت الموضوع وسألت الآن كلارا عن عملها، من أين تتحدر ولماذا تعيش في برلين... سألتْ آمال العديد من الأسئلة وأوضحت أنها في نصف الساعة التالية تريد أن تستمع لا أن تحكي.

تقبلت كلارا الأسئلة حتى إن كان ليس من اليسير عليها أن تنتقل بالحديث فجأة من هروب آمال إلى حياتها الطبيعية في المستشفى وحياتها اليومية في المدينة. ولكنها مع ذلك تحدثت إليها عن عملها وغرفة الطوارئ والحالات الطارئة التي تصادفها يومياً، وكذلك عن تارون وعنهما. وأرادت آمال أن تعرف أيضاً كيف تعرّفا بعضهما إلى بعض. فتحدثت لها كلارا عن هذه القصة أيضاً: «تعرفنا بعضنا إلى بعض في كوخ عند تساقط الثلج. لي زميل دراسة نشأ في جنوب ألمانيا على أطراف جبال الألب تعرَّف إلى تارون في لندن وكان لدى عائلته كوخ على الجبال أراد أن يحتفل فيه بالعام الجديد معنا ومع أصدقائه. في الليلة الأولى وصلتُ في وقتٍ متأخر وذهبتُ فوراً إلى غرفتي. وعندما كنتُ أنظر من النافذة في صباح اليوم التالي رأيتُ رجلاً مجهولاً لي واقفاً في الثلج وهو يرتدي سروالاً قصيراً وتي شيرتاً بأكمام قصيرة! كان يمارس تمارين الشد ويستعد على ما يبدو لرياضة الجَري الصباحي». أومأت كلارا برأسها مبتسمةً: «لم أصدق أنه أراد ممارسة رياضة الجري بملابسَ صيفية في طقس كهذا لم تتجاوز فيه درجة الحرارة الصفر إلا بشيء بسيط! أنا عَدَّاءة أيضاً، وأعرف جيداً أي ملابس تناسب ذلك ومتى تستعمل، أتفهمين ذلك؟ لذلك خرجتُ وسألتهُ فيما لَوَّ يَوَدُّ الخروج هكذا. قال نعم، ضحك ونظرَ إليَّ منذهلاً، فمن الواضح أن سؤالي أدهشه لكنه أجابني بأدب، موَضِّحاً أنه لن يشعر بالبرد أبداً عندما يجري، إنها مسألة تدريب وسرعة. وكانت لديه قبعةٌ لم أرَهَا حتى ذلك الحين». رفعت كلارا حاجِبَيْها: «وعليه ظَنَنْتُ أنه إذا كان صائباً في ما يقوله فإنَّ هذا يعني أنه كان قد تدرَّبَ تدريباً جيداً ولديه سرعةٌ كافية. حينها اقترح عليَّ أنه بإمكاني انتظاره في نفس المكان لمدة ساعة تقريباً لأرى بعد عودته فيما لو كان يعاني من انخفاض درجة الحرارة أم لا».

«وبعدها»؟، سألت آمال بشغف.

تابعت كلارا: «وعندما عاد لم يكن هناك أي مؤشرٌ على انخفاض حرارة جسمه. وعلمتُ أن اسمه تارون ويجب أن أرافقه في اليوم التالي للجري معه».

«وهل جازفتِ بذلك»؟، سألتها آمال.

كلارا أومأت لها: «بل وأخذت معي ساعة قياس النبض أيضاً. وكان اتفاقنا هكذا: أركض معه ويدعني أقيس نبضه. كنتُ فضولية وأردتُ فقط أن أعرف ذلك بالضبط، فكان معدل نبض تارون مثيراً للإعجاب حقاً».

أردفت آمال مبتسمةً: «ومن حينها وأنتما زَوْجًا سباقات».

أحبت كلارا العبارة تلك لكنها أجابت: «إن تارون يتسابق، أما أنا أركض. فعلى الرغم من أنني في السنوات الأخيرة ركضتُ لنصف الماراثون مراتٍ عديدة لكن أزماننا مختلفة. ففي شبابه كان تارون رياضياً محترفاً حتى إنه شارك في بطولة الشباب الهندية، لذلك دخل المدرسة العليا ومن ثَمَّ الجامعة».

لم تقل آمالُ شيئاً لكنها أومَأت إلى كلارا مشجعةً لها والتي بدورها أخبرتها كيف أن تارون ابن وحفيد إسكافي الأحذية، قد اكتُشِفَ بالفعل في سن العاشرة في مسابقة في كالكوتا، ودُعِمَ بالذات نتيجة لذلك. «بالنسبة إلى الهنود فإن تارون طويلُ القامة جداً وهذا ساعده بالطبع في السباق، بالإضافة إلى انضباطه أيضاً. وبسبب إنجازاته الرياضية فقد حصل على منحة ساعدته على الدخول في مدرسة داخلية جيدة. حتى في لندن، حيث درس الهندسة المعمَارية، كان تارون يحصل في كل سنة على العديد من الميداليات لفريق الجامعة. وعندما التقيته لم تكن الرياضة مهمة له أو في الأقل ليست مهمة كالسابق ــ (قالت كلارا ذلك وهي تنظر إلى آمال التي يبدو أنها لم تشعر بالملل بل العكس) ــ عندما تعرفتُ إليه كان رأسه مملوءًا بالأفكار، بخطط البناء، بتصاميم بيوت شخصية على النهر، بمتاحف تشكيلية، بل حتى بالمستشفيات. كان رأساً مملوءًا بالأوهام الفارغة، مثلما كان تارون يقول ذلك في بعض الأحيان متأوهاً هامساً».

حرَّكت كلارا فنجان القهوة من على المنضدة الخشبية: «عندما التقيتُ تارون لأول مرة في الكوخ ــ كان ذلك بعد مرور نحو نصف عام على انتقاله إلى برلين، ولم تكن تلك مرحلةً سهلة عليه. ففي لندن، حيث بدأ عمله بعد الدراسة في مكتبِ هندسي كبير ومشهور كان يُسمَح له فقط بالمشاركة بالعمل، والبحث عن التفاصيل بالإنترنت أو تفحصها، الأمر الذي أشعره بالملل وأحبطه، ولكن في برلين كانتْ البداية أيضاً صعبة. إن مكتب برلين كان أصغر تقريباً ومتوسط العاملين فيه كان أصغر سناً من زملائه آنذاك في لندن، ولكن هنا أيضاً استغرق الأمر طويلاً حتى استطاع تارون الحصول أخيراً على فرصةٍ لتصميم مشروع بنفسه. الآن فقط ومنذ بضعة أشهر رأى تارون للمرة الأولى كيف أن مبنًى من تصميمه ينمو أمام عينه».

«أيُّ مبنًى هذا»؟، أرادت آمال أن تعرف.

«إنه مركز عام في مدينة كبيرة بجوار كالكوتا تُدعى هاورا، مبنًى دائري الشكل فيه باحة داخلية ذات نوافير وأشجار يلتقي فيها الناس للاسترخاء أو ممارسة الرياضة. إن هذا «البرج»، مثلما أسماه تارون، ينبغي أن يكون مركَزاً عاماً للعمال وأُسَرِهم الذين يأتون من البنغال إلى المدينة من أجل العمل أو لأي سببٍ آخر»، سكتت كلارا ولم تقل آمال شيئاً.

ثم استطردت كلارا: «أتعرفين، إنه لَجَميلٌ أن نرى كيف استطاع تارون أخيراً أن يُنَفِّذ أفكاره. منذ عرفته وهو كان يريد دائماً أن يبْنيَ شيئاً مختلفاً عن المشاريع التي شارك فيها. فتصاميمه حديثةٌ أيضاً وواضحة الشكل ومتينة، ولكنها أقل إمبريالية ــ (وهنا توقفت كلارا مؤقتاً لترى كيف سيكون رد فعل آمال على كلمة «الإمبريالية»).

ولكن آمال لم تبالِ بذلك، بل بدلاً من ذلك سألتها مبتسمةً: «أأنتِ معجبة بتارون»؟، وهنا عادت كلارا إلى صُلب الموضوع متفاجئةً بسؤال آمال. إذ حتى لو كان المقصود منه أي شيء آخر سوى كونه سؤالاً ملتوياً، فإنه بالطبع له ما يبرره ــ ولكن المسألة تكمن في أنه لم يسبق لأحد أن سألها عن هذا الشيء مباشرة هكذا.

«هل الإعجاب يُعد أساساً جيداً للعلاقة»؟، سألتها آمال مرة أخرى وكان من الصعب معرفة ما إذا كانت هي تشكُّ بذلك أو هو مجرد سؤال ليس إلا.

«أنا أحترمه كثيراً»، أجابت كلارا ببطء.

عندها ابتسمت آمال وأجابت: «الاحترام هو بالتأكيد أساسٌ جيدٌ».

جاءت النادلة وبينما رفعت أكواب القهوة تذكرت كلارا والدها حينما قال لها ذات مرة بأن «الاحترام، باعتباره أهم شيء لعلاقةٍ ناجحة وطويلة الأمد، لا يكون بعد الحب وإنما بجانبه». بالطبع إن الاحترام هو شيءٌ مهم، ولكن ألم يكن هناك شيءٌ آخر في سؤال آمال عن الإعجاب ــ مثل التبجيل، المثالية، احترام الآخر، وبالتالي عدم المساواة؟

كلا، اعتقدت كلارا بثقة كأنها مقتنعة: فعلاقتهما ليست غير متماثلة أو غير متساوية. ثم إنها لا تنظر إلى تارون باستعلاء ولا تشفق عليه، بل على العكس من ذلك، إن ما بينهما هو التماثل بعينه، إنهما متساويان على الرغم من كل الاختلافات الأخرى التي لديهم والتي فتنتهم وجذبتهم فعلاً في كوخ التزلج، لأنه حتى لو اضْطر تارون إلى

الكفاح أكثر من أجل حريته فإن كليهما وجد في الآخر بالفعل حبه للحرية من خلال أول محادثة طويلة لهما. كلاهما التمس لدى الآخر شغفه الجياش نحو الشعور الحالم بالمقدرة على تشكيل نفسه في الغربة بحرية وحداثة واستقلالية. وقد عايشَ تارون ذلك من خلال ذهابه إلى أوروبا، أي إلى قارة أخرى لغرض الدراسة، بينما هي وبعد تخرجها من الدراسة الثانوية كانت قد قطعت نصف بلاد المغرب، وتونس، والجزائر ــ لا سيما الدار البيضاء ــ المغرب، مُراكش، وأخيراً حتى إنها قطعت جزءاً من الصحراء الغربية، قبل أن ترى في إحدى الصباحات في أثناء عودتها من رحلتها طابوراً من الناس أمام منزل أحد «المعالجين» في قريةٍ نائيةٍ قرب ساحل المحيط الأطلسي، الأمر الذي وَلّد لديها فجأة وبشدة الرغبة في أن تصبح طبيبة. أرادت أن تزيل الكآبة من عيون الناس المنتظرين، أن تفكّ أصابعهم المتشنجة، أن تهدئ صرخات الأطفال من خلال تجبير ها الساق المكسورة بأيديها الهادئة، وخياطتها للجروح أو تضميدها، من خلال زرق الإبَر إذا لزِمَ الأمر أو وصف الأدوية الصحيحة التي تُخَفّف تورم اللوزتين والأعضاء الأخرى. كانت أشياءَ موضوعية صحيحة ذات نتائج ملموسة وتأثير واضح مثل صفاء زرقة سماء المغرب آنذاك.

عندما كانا في الكوخ سألها تارون: «أتعتقدين أنه كان بإمكانك أن تطوري شعورك باختيار مهنتك بكل حرية أيضاً من خلال التدريب في أقرب مستشفى في بلدك»؟.

اندهشت كلارا لهذا السؤال، لأنها لم تفكر قط في مثل هذه اللحظة من قبل، لكنها مع ذلك علمت على الفور بأن الغربة في المغرب آنذاك والشعور بالوحدة وذلك الصمت العميق إزاء عدم فهم الناس الذين حولك كان أمراً مهماً. بالتأكيد إن النظر إليهم بعين المتفرج فقط مكّنها من الوصول المباشر إلى الناس، بل بشكلٍ أدق الوصول إلى آلامهم، إلى ما لم يؤدِّ وظيفته بشكلٍ صحيح في أجسادهم، وإلى كل شيءٍ تريد كلارا مداواته من خلال العِلم ومن خلال الأشعة السينية لذلك العِلم الذي يفحص الناس ويُفهمهم ويُصلِحهم بدلاً من أن يُفزِعهم. وقد وجدت كلارا أن الأغاني الصاخبة والرائحة القوية للمرهم الذي يصفه المُعالج لا تُحتمل، لأنه حتى لو كان الرجل يريد من ذلك مساعدة الناس وجعلهم يؤمنون بأساليبه، فإن ذلك لم يُجَنّبها التفكير في الفيروسات والبكتيريا التي تستمتع في الجسم الملتهب من خلال الأصوات الحلقية للمعالج وتستمر بالأذى دون عائق.

«كلارا؟ هل نمتِ»؟، سألتها آمال.

تذكرت كلارا وهي تنظر إلى آمال بأنها كانت آنذاك تقريباً في سن آمال التي بدأت الآن تداعب بالملعقة السكر البني الناعم في وعاء السكر.

«لا»، ردت كلارا، «أنا لم أنَمْ، وإنما أتأمل السكر هنا. ألا يذكرك أيضاً برمال الصحراء»؟

أومأت آمال برأسها: «لا، ليس هذا السكر بالضبط، بل يذكرني بساعة السكر التي صنعتها لي جدتي من قمعين اثنين مملوءين بالسكر».

«والدة أمك، التي تحب البنفسج»؟، سألتها كلارا ذلك وهو سؤال بديهي إلى حد ما، لأنها تعلم أن آمال لم تتعرف إلى أم والدها التي شُنِقَت في مكانٍ عام.

أومأت آمال برأسها وتلألأ وجهها توهُّجاً وبدت أصغر سناً ورقَّة بشكلٍ غير متوقع: «جدتي عشتار كانت قد طلبت من جدي في حياته أن يلحم قمعين زجاجين بعضهما مع بعض كانت تستعملهما لإعداد الخبز، وأن يضيّق نهاياتهما كي أستطيع بالتحديد معرفة كيف مرَّت الساعة وأنا أقلبُ ساعة السكر وأراقب السكر المتقطر، (تستعيد ذكرياتها وتضحك): «لقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى وجدنا الكمية المناسبة من السكر، ولكن بعد محاولاتٍ عدة اشتغلت الساعة بالفعل لمدة ساعة كاملة. إن جدتي كانت تريد أن تبين لي أن الساعة لها نفس المدة دائماً، حتى وإن شعرتُ أحياناً بطول أمدها في أثناء الانتظار في السوق أو انتظار الطعام الذي لم ينضج بعد، ثم تمضي ذاتها مرةً أخرى بسرعة حينما ألعب ولا أنتبه إلى ساعة السكر إلا عندما تناديني جدتي».

رأت كلارا أمامها الساعة الرملية المملوءة بالسكر عندما كانت آمال تواصل حديثها: «جدتي ما زالت تملك ساعة مزولة في حديقتها أيضاً، ولكي أتعلم شهور السنة الاثني عشر في صغري صَنعتْ لي ساعة سنوية ذات صور لكل شهر بدلاً من الاثني عشر رقم. وأنتِ، كيف تعلّمْتِ شهور السنة عندما كنتِ طفلة»؟.

رفعت كلارا حاجبيها، فكّرت قليلاً لكنها لم تتذكر شيئاً. على الأرجح من خلال الكتب، الكتب المصوَّرة الكبيرة حيث تجلس خلفها على الأريكة مختفيةً مع والدها في أثناء جمع الأوراق في الخريف؟ إزاء ذلك فإن كلارا تتذكر جيداً السبورة الكبيرة ذات الستة والعشرين حرفاً: الحروف التي تأملتها في بادئ الأمر نظرياً لمدة طويلة، حتى وإن كانت تجيد كتابتها مسبقاً وتعرف الأصوات التي تجسدها، واختارت منها حروفاً مفضلةً لديها: فحرف الـ«A» أحبته لأنه يبدو كأنه منزل، والـ«O» لأنه مستديرٌ يشبه بيضة عيد الفصح، والـ «M»لأنها عندما تلفظه يذكّرها بالطعام وعندما تقلبه يتحول بسهولة إلى حرف «W»، في حين إنها لا تحب حرف الـ«S» لأنه يشبه الثعبان، وتعتبر حرف الـ «U» مخيفاً وغدّارا كالحفرة التي لا يمكن الهروب منها.

والآن أرادت كلارا أن تعرف من آمال كيف تعلمت هي الحروف، لا سيما عندما خطر لها بأن آمال في طفولتها قد تعلمت في بادئ الأمر الحروف العربية وليست الأجنبية. ولكن بدلاً من ذلك سألتها: «فيما لو كان هناك ساعات رملية موجودة بالفعل في بابل القديمة»؟.

أومأت آمال برأسها: «نعم وكلا. فقد كان هناك العديد من الساعات المائية في شكلٍ مماثل لذات القمعين الاثنين وممكن قلبها باتجاهين، ولكن هذه الساعات كانت مملوءة بالماء بدلاً من الرمل». صمتت كلتاهما إلى أن سألتها كلارا بهدوء: «أنتِ متعلقة جداً بجدتكِ، أليس كذلك»؟.

«نعم»، ردت آمال على الفور: «جدتي عشتار كانت دائماً جزءاً من عائلتنا. توُفّي زوجها بعد مدة وجيزة من دخولي المدرسة، منذ ذلك اليوم وهي عندنا كل يوم تقريباً».

«ألم تعمل»؟، سألتها كلارا.

أجابت آمال وهي تومئ برأسها: «جدي كان معلماً لمادة الجغرافية وبعد وفاته ترك لها معاشاً تقاعدياً. أرادت جدتي وهي شابة أن تدخل أول كلية للبنات أُسست في بغداد عام 1940 (كلية الملِكة عالية)، لكن والدها الذي كان رقيباً في الجيش آنذاك لم يسمح لها بذلك. كان يعتقد أن دراسة المرأة تملأ رأسها بهراءٍ لا لزوم له (قالت آمال ذلك وهي تعض على شفتَيْها). عندها تعرفت جدتي عشتار إلى جدي، ثم قامت ثورة 1958 وبعدها بسنة واحدة ولدت راوية». (أمسكت آمال رأسها وابتسمت): «على الرغم من أن عشتار كانت هي مَن يتخذ القرارات في بيت جدي، فإن جدي، كما قيل لي، هو مَن اختار اسم «راوية»، مع أنه اسمٌ عربيٌ قديم جداً ومن النادر أن يسمعهُ أحد. اسم «راوية» معناه الشخص الذي يمنح الآخرين ليشربوا ويجلب الماء من البئر». أوضحت آمال ذلك وواصلت القول: «وقد أعجب الاسم جدتي وجدي».

أومأت كلارا متفقةً معها وسألت: «أليراوية أشقاء»؟.

«كلا»، ردت آمال.

وعليه أدركت كلارا أن راوية كانت آنذاك أيضاً الطفلة الوحيدة لعائلتها، مثلها ومثل آمال: «آمال، هل سبق وأن افتقدتِ وجود أشقاء لديك»؟.

اتسعت عينا آمال ويبدو أنه توجب عليها التفكير للإجابة عن هذا السؤال، الأمرُ الذي تفاجأت به كلارا. حينها أجابت آمال: «قد يبدو الأمرُ مضحكاً أو أنانياً ولكن بالنسبة إليّ كان قرار والديَّ في أن يكون لديهم طفل واحد نوعاً ما تصريحاً واضحاً: ضد جنون الأسرة الكبيرة، ومع التركيز {على شيءٍ واحد}. وهذا ما وجدته شيئاً حسناً»، قالت آمال ذلك وأومأت برأسها باقتناع كما لو كانت تدرك ذلك الآن للتو. «صديقاتي كنَّ صغاراً مثلي، وحسبما أتذكر، كان والداي دائماً هما أصدقائي الكبار، حُماتي، نعم كانوا كذلك أيضاً، ولكن قبل كل شيء كانوا محاورين ومقربين إليّ. أتفهمين ما أعنيه»؟

«كلارا»، أومأت برأسها.

«إن الجدة عشتار التي تنتمي بالطبع إلى والديَّ كانت تقارن كل شيء مع عالم النبات دائماً، ففي منتصف الحرب طَمْأَنتني بأن كل دوامة لا بد وأن تنتهي في وقتٍ ما، وفي الربيع المقبل سيكون كل شيءٍ أفضل، وبينما كان والداي يحميانني أيضاً ويمنحاني الأمان، فإنهما في الوقت ذاته أعدّا قولَ الحقيقة جزءاً من واجبهما، إذ بيَّنا لي في وقتٍ مبكرٍ مَن كان مسؤولاً عن الحرب وكيف عانى بلدنا جرّاء الحصار».

«ربما أرادَ والداك أن يهيئاك للحياة هنا في الخارج، وهذا أمرٌ مفهوم»، أردفت كلارا. «نعم»، وافقتها آمال الرأي، «على الرغم من أنني لم أقصد أن أقول إن جدتي كانت تخفي شيئاً ما عن عمد. إذ كان هناك وجهتا نظر مختلفتين حول كيفية مواجهة مجرى التاريخ: بالصبر والإيمان بتقلبات الحياة الكبيرة كما فعلت جدتي، أو بالتحليل النقدي والسلوك الذي يتبع مبادئه الخاصة به باستمرار وبتحدٍّ، «كشكل من أشكال المقاومة» الذي كانت أمي تؤمن به دائماً والذي عاشه والدي أيضاً على طريقته الخاصة بالقدر الذي كان مسموحاً له به كـ«طفل شيوعي» يعيش في ظل نظام البعث».

نظرت آمال عبر النافذة كما لو كانت تبحثُ عن شيءٍ ما. «في السنوات القليلة الماضية عندما كان والدي سياسياً نشطاً وكانت راوية تدعمه بحماسة كنت أتساءل أحياناً عما إذا كان لهدوء جدتي وصفائها علاقةٌ بثورة 1958؟ فقد شهدت عشتار مع زوجها ذلك من قبل عندما كانا يهتفان في صيف 1958 في الشارع معتقدَيْن أن كل شيء سيصبح أفضل الآن، فالنظام الملكي انتهى والحكام المستعمرون القدامى كذلك، والبلد أصبح أخيراً حُرًّا وكانوا هم فخورين بذلك! وبعد الثورة مباشرة لم يبدُ الوضع سيئاً جداً ــ لا سيما بالنسبة إلى النساء ــ ، إلى أن ضيّق حزب البعث بعد ذلك حباله بسرعةٍ كبيرةٍ جداً وصنع من البلد الحر الحديث الموعود دكتاتوراً وآلة حرب هلامية مدمِّرة. إن أمي لم ترَ ذلك البلد سوى دكتاتور، مثلما كانت تؤكد هي ذلك دائماً، إلى أن أُطيحَ بصدام في ربيع عام 2003. ولهذا السبب أصرت راوية بعد الإطاحة بصدام على أن يفعل الجميع ما في وسعهم لجعل بلادنا «دولة حرة أخيراً». لقد ساندت نهرين راوية بعملها وأقنعتْ والدي أيضا بأن ينتهز هذه الفرصة «التي قد تكون فريدةً من نوعها..». نظرت آمال إلى الأسفل، وأرادت كلارا أن ترد عليها عندما رفعت رأسها وواصلت الحديث: «وهذا يعني ــ لنَعُد إلى سؤالك: كلا، لم أفتقد وجود أشقاء لأن والديَّ كانا دائماً يقحمانني في كل شيء، ونحن الأربعة: الجدة، وحسن، الذي يكبر راوية سناً، وأمي وأنا ــ كنا جميعاً نشكل فريقاً وثيقاً وحميماً. وماذا بشأنكِ أنتِ»؟.

عَصَف هذا السؤال بوجه كلارا بشكلٍ مفاجئ، أثنت أصابعها، فكَّرت في طفولتها في المنزل الكبير عند أطراف فرانكفورت الذي كان بالنسبة إليها آنذاك ساكناً مثل منزل أشباح، وتذكرت تناولها الطعام مع والديها ووجودها في غرفتها لوحدها في فترة ما بعد الظهيرة، ثم أجابت: «نعم، نعم، لا سيما عندما كنتُ طفلة».

وبعد أن حلَّ الصمتُ عليهنَّ شعرت كلارا فجأة بالتعب. إزاء ذلك شعرت آمال أن حاجزاً آخَرَ قد كُسِرَ أخيراً بينهما وأرادت أن تعرف المزيد عن كلارا فسألتها عن أصدقائها، ومدرستها، ووالديها... التقطت كلارا أنفاسها وتحدثت عن والدها الصبور وعن أمها الجميلة المفعمة بالحيوية «لوو»، لويزا، التي كانت رغبتها في تحقيق التواصل الدائم مرهِقَةً بعض الشيء أحياناً، في حين أن شغفها بمهنتها ذكَّر كلارا براوية وفقاً لوصف آمال لوالدتها.

بعد أن أومأت آمال برأسها مراتٍ عدة سألت مبتسمةً: «هل والداك رياضيّان أيضا مثلك أنتِ وتارون»؟.

ضحكت كلارا لذلك السؤال مع أنها لا تعلم السبب بالضبط، ربما لأنه كان سؤالاً عفوياً. أخبرتها كلارا بأن والدها يمارس الجري أيضاً، ولكن ليس بشكلٍ منتظم وإنما من منطلق الشعور بالواجب أكثر من كونه شغفاً حقيقياً، أما والدتها فإنها تمارس اليوغا. ثم قالت: «ما إذا كان ذلك رياضةً فعلاً بمفهومها الحقيقي؟ إذ إن الآراء حولَ هذا الموضوع متباينة. ففي الهند مثلاً تُعد اليوغا شكلاً من أشكال تركيز الجسم وليس كرياضة الجمباز»، أمالت آمال رأسها وأوضحت: «لم أمارس الرياضة في حياتي مسبقاً بشكلٍ صحيح. في المدرسة كنتُ جيدةً في رياضتَي الجري والرمي، ومنذ هروبي في الخريف الماضي لاحظتُ كيف أن عضلات الفخذ لديَّ أصبحت غير مرنة وتصلبت بعض الشيء، ولكني لم أعرف من قبل التمرين الذي ذكرتِهِ آنفاً: الجري بانتظام حتى الإرهاق والعمل على زيادة نطاق حدوده أكثر..»..

أرادت كلارا أن تسألها عن سبب هروبها بسرعة جداً بعد وقوع الحادث، لكنها لم تفعل ذلك، فما زالت تحتفظ بصورة المرأة التي هربت أمامها بأحذيتها ذات الأشرطة العالية، وتذكرت حركة ذراعها عندما ركضت، بل كانت توجد صورتان يصعب عليها وضعهما معاً جنباً إلى جنب: الهاربة المجهولة آنذاك، وآمال التي تجلس معها الآن وعرفت اسمها وقصتها. تجاذبت كلارا أطراف الحديث قائلةً «الرياضةُ شيءٌ كبيرٌ، لا سيما رياضة الجري فهي شيءٌ رائعٌ للشعور بالجسد ولتمرين القلب والأوعية الدموية، ولجهاز التنفس، ولجعل المفاصل أكثر مرونة. فضلاً عن ذلك فإن المرء بعد الجري لا يشعر بالتعب بل يكون أكثر حيويةً ونشاطاً، وفكره يكون أصفى، ومشاعره أكثر تنظيماً وهدوءًا وراحةً».

أنصتت آمال إليها باهتمام، فاقترحت كلارا عليها: «إذا كنتِ ترغبين في ذلك فإنه يمكننا أن نجرب الجري وسوف أُريك ما يحدث للتنفس، ثم إن فصل الربيع هو الوقت المثالي لبدء التمرين عليهِ».

«بكل سرور»، (ردت آمال) ثم أضافت بسرعة: «فور حصولي على شيءٍ مناسبٍ لارتدائه».

وعليه فهمت كلارا من ذلك أن آمال قالت ذلك كي لا تضع كلارا مرة أخرى في وضعٍ يحتم عليها إقراضها أو إعطاءها شيئاً آخر. وعلى الرغم من أن هذا الشيء لن يزعجها ارتأت كلارا أنه من السابق لأوانه الإجابة بسرعة والقول: «ليست هناك مشكلة، سأعطيك شيئاً مني بكل سرور»، لأن هذا قد يزيد خطر استعادة المسافة بينهنَّ بعد أن اختفت بشكلٍ رائعٍ خلال الساعات القليلة الماضية.

عندها تذكرت كلارا بأنها إلى الآن لم تُسلم آمال جهاز الكمبيوتر! انحنت وفتحت حقيبة ظهرها ووضعت على المنضدة الكمبيوتر المحمول الذي هو السبب الحقيقي لِلِقائهنَّ. وبينما أوضحت بإيجاز البرامج المختلفة أنصتت آمال لها وأخبرتها بأن راوية لديها نفس جهاز الكمبيوتر المحمول وتستخدمه بانتظام في بغداد أيضاً، وبهذا وُضِّحَت هذه المسألة أيضاً.

عندما نهضت كلارا في نهاية اللقاء لدفع الفاتورة عند الكاشير في مقدمة المقهى وعادت إلى منضدتها وقفت آمال وأشارت إلى الكمبيوتر المحمول وعانقت كلارا وهي تقول: «شكراً، إنه مساعدة قيمة بالفعل».

«على الرحب والسعة»، أجابتها كلارا.

وعندما تصافحتا بعد ذلك بمدة وجيزة في الخارج لتُودِّع إحداهما الأخرى طلبت كلارا من آمال: «اكتبي لي متى تستطيعين المجيء إلى برلين، لنذهب معاً إلى بوابة عشتار. اتفقنا»؟.

أومأت آمال برأسها وقبضت بأصابعها على الغطاء الواقي للكمبيوتر.

آمال

إنه لمدهشٌ ما تستطيع الحقيقة أن تفعله بك. فكيف لها أن تُزعجك، وتغويك، لتتحدث معها بصراحة على الرغم من وجود العقل الذي يحثك على توخي الحذر! عادت آمال إلى المَسْكن عَبر الشوارع ذاتها وهي تحمل جهاز الكمبيوتر على صدرها. وبطبيعة الحال كان الأمر مثل اللعب في النار، فمن أجل سلامتها وتحقيق سلامها الداخلي عند

الذهاب إلى صندوق البريد يومياً كان من المنطقي أكثر أن تختبر النسخة الرسمية لقصة هروبها الثاني مرة أخرى أمام كلارا وأن تنتبه إلى مدى مصداقيتها في تمثيل ما تحدثت به في المكتب آنذاك. لكنها لم ترغب في ذلك بل أرادت أن تُجازف، أن تتبع الدافع المفاجئ لديها وتحكي القصة الحقيقية بصوتٍ عالٍ لمرة واحدة. لماذا؟ لكي تشعر كم هو واقعيٌ ما يُسمع؟ لا، ظنت آمال، ليس لهذا السبب. فعلى الرغم من أن كلارا في بداية لقائهما بذلت قصارى جهدها لتكون صريحةً معها، مما منحها الثقة، فإن ذلك لم يكن سبباً كافياً لقول الحقيقة. بل إن هناك شيئاً آخر للتحدث عن الحقيقة، لتقديمها علناً أمام شاهدٍ واحد، للتحدث مرة عن ياسمين ووالدها المفترَض وحتى عن القذارة في موقف السيارات. إن الأمر يدور حول ترسيخ بصماتها في الماضي، ذلك الماضي الذي كان أكثر من مجرد ذكرى. وفوجئت آمال وهي مستمرةٌ بالسير كيف أن قول الحقيقة ألهمها ومنحها القوة والرغبة والشجاعة في التحدث بدءاً من الآن عن كل شيءٍ علناً أمام كلارا ـ وكذلك أمام نهرين أو راوية ـ وفي أن تقول مباشرةً كل ما يدور في ذهنها حتى عن تلك الأشياء التي تعلم أنها تزعج كلارا، لا بل وتجرحها أيضاً في أسوأ الحالات، مثل: أنتِ معجبةٌ بتارون؟ ـ ولكن هذا يعني على وجه التحديد أيضاً أن هناك تقديراً متبادلاً بينهما. ولأن آمال سمحت لكلارا أن تدخل إلى خبايا منزلها فإن هذا يسمحُ لآمال بل يحتّم عليها أن تقول لها كل شيء دون حواجز ودون خوف.

أن تصادف آمال المدير مرة أخرى في القاعة الأمامية للسكن وأن يغلق تقريباً الباب الكبير في وجهها فإن هذا سيضعها في حيرة، بل وسيُحدث علاقةً غريبة تكمن في: أنها في كل مرة تلتقي فيها كلارا يصادفها المدير بعدها. وعلى الرغم من أن هذا حدثَ اليوم صدفةً علّق عليها المدير بإيماءةِ اعتذار قبل أن يختفي عن أنظار آمال، فإنه جعل آمال تحتار لتلك الصدف. لأنها تعلم أن مثل هذه المصادفات في بلدها سيُشَكُ على الفور فيها بأنها مجرد مصادفات، بل وسيجعلون منها أمراً مهماً، وهذا التصور ما زال عالقاً في ذهنها على الرغم من أن عائلتها كانت قد نبذت الخرافات منذ عقود. وعلى الأكثر منذ تنفيذ حكم الإعدام بحق والدة حسن، جدتها، التي لم يُسمح لها بالتعرف إليها، وعلى أبعد تقدير منذ الإبادة المتعمدة لمركز عائلة الأب، علمَ حسن وكذلك راوية وعائلتها بأكملها أن مصيرنا لم يُكتَب مسبقاً، وإنما من قِبَل البشر، في بعض الأحيان من قِبل مجموعة من الخنازير بهيئة إنسان، ولكن دائماً من قِبل كائنات دنيوية، أو من قِبل صدفة بحتة فقط.

أدركت آمال وهي تدخل غرفتهما المشتركة أنه الاعتراف بأن معذِّبي نوريج ليس مصيرها المكتوب سلفاً، ولن يساعد نوريج بل للأسف سيجعل الأمر أسوأ مما هو عليه وسيزيد من غضبها وإحساسها بالعجز.

كانت نوريج مستلقيةً على سريرها وتبدو أنها متعمقة جداً في قراءة كتاب ما بحيث إنها لا تريد أن تتحرك أو حتى تنتبه إلى آمال. إن آمال تعرف هذه الحالة، فقبل بضعة أسابيع ماضية شهدت نوريج مرحلةً أمضت فيها بضعة أيام في قراءة هذا الكتاب دون انقطاع. وحينما تنام نوريج يكون الكتاب تحت وسادتها، وعندما تريد الطبخ في المطبخ المشترك تأخذه معها حتى عندما تذهب إلى الحمام تأخذ الكتاب معها إلى هناك أيضاً. حينها سألت آمال نفسها بالفعل عن موضوع الكتاب، إذ إن غلاف المكتبة الأزرق المحايد لا يبوح بشيء. على رغم ذلك فإنها لم تسأل نوريج عنه لسبب ما أو لأنها انتظرت طويلاً حتى انتهت المرحلة تلك وأخذت نوريج بالنوم كثيراً في أثناء النهار بدلاً من القراءة.

كل إنسانٍ له هَوَسُه! تأملت آمال نهرين وهي تنفث بفمها الملون باللون الأحمر سحباً من الدخان في غرفة الجلوس، وهي تعلم تماماً مَن تعني نهرين بهذا حينها، إنه هو الذي تعنيه هي دائماً. ثم إنها رأت كيف أنها كانت تستهزئ وتسخر من أوثان صدام: السيوف الراقصة، والراقصات المتوشحات باللون الأحمر، وقوسَي النصر في مركز بغداد، «سيوف النصر المنتصبة» المصنوعة من أسلحة ودروع الجنود الذين لقوا حتفهم والمرفوعة إلى السماء بقبضات أيدٍ مصمَّمة على غرار قبضاتَ يَدَيْ صدام ـ «كل هذا بسبب جشعه الجارف للسلطة»!، قالت نهرين ذلك بتهكم. كانت هي وراوية وأحياناً قليلة حسن أيضاً يضحكون بصوتٍ عالٍ ساخرين من صدام، لكن ضحكهم كان دائما ضحكاً مريراً، ضحك العاجزين عن فعل شيء ما. أم تراه يبدو لها هكذا الآن؟

وضعت آمال كمبيوتر كلارا على المنضدة وقامت بتشغيله وربطه بجهاز الراوتر للسكن. وعندما فتحت صندوق بريدها الإلكتروني وجدت رسالةً غير مقروءة من راوية فقرأتها وذُهلت: «آمال، أنا في المستشفى. جدتك أُصيبت بأزمةٍ صحية».

الفصل الثاني

كلارا

عزيزي تارون،

لقد أزهرت أشجار القطن الحريري، والشارع أمام محل والدي تلألأ أحمرَ مثل فستان ميدري المفضل. والدانا بصحة جيدة، أودار يبعث لك التحايا، وميدري تبعث لـ «خالها الكبير» قبلة. (أرفق لك طياً صورة تبدو فيها ميدري وهي تشبه أمنا كثيراً، لها لون العيون البُني الداكن ذاته، وذات الغمازات حينما تضحك).

تارون، أخي العزيز، أجد أنه من الصعب أن أكتب لك. لكني أفعل ذلك لأنك طلبت مني في السنوات القليلة الماضية وأكدت عليَّ أن أطلب منك المساعدة عند الحاجة. حتى الآن لم نحتج إلى مساعدتك لحسن الحظ، إلا أن الأمر اختلف منذ الأسبوع الماضي. وكما تعلم يا تارون من رسالتي الأخيرة فإنني حامل للمرة الثانية، واحزر ماذا سيكون؟ إنه صبي! أعلم أن هذا ليس مهمًّا لك ولكن أنت تعرف الناس هنا. والدانا سعيدان لذلك. إلا أن ابننا لسوء الحظ ليس بصحة جيدة، وقد ذهبنا إلى الطبيب المختصّ وقال بأن ابننا سيأتي إلى الدنيا ولديه فتحةٌ كبيرة جداً في قلبه. وأعلم أن هذا يبدو فظيعاً، ولكن الطبيب أكّد لنا بأن هذا «الخطأ»، كما يسميه هو فتحة، سيتم «إصلاحه» إذا أُجريت له العملية مباشرة بعد الولادة. ثم إنه من الممكن أن يعيش ابننا بعد ذلك بوضع جيد، مثلنا تماماً، ولكن يجب أن يُجري العملية الجراحية طبيبٌ مختصّ وأن أكون قبلها ولدتُ طفلي الحديث في نفس المستشفى التي سنجري فيها العملية الجراحية. أتعلمُ ماذا يعني ذلك يا تارون؟ إن الطبيب أخبرنا بأن العيادة المناسبة لمثل هذه الجراحة للأطفال حديثي الولادة توجد في دلهي. وعليه اتصلتُ بوم أمس بالمستشفى، إذ علينا أن نسجل هناك مسبقاً في الأقل قبل شهرين من موعد الولادة، وأن نكون هناك قبل ظهور آلام الولادة. وقالت السيدة على الهاتف: «يجب أن تُدفع أجور العملية على الفور، وإن بطاقة تأمين عادية وحدها لا تكفي لذلك. وعندما ذكرت السيدة المبلغ اللازم لذلك شعرتُ بالدوار. إنه مبلغٌ ضخمٌ، أكبر بكثير مما يستطيع والداي أن يُقرضاه لنا أو يعطينا إياه البنك ــ أودار وأنا ما زال علينا ديون شراء أجهزة التبريد! قال أبي إن ضماناً مِنْك للبنك يمكن أن يساعدنا، ولكني في الوقت ذاته لا أريد أن أثقل عليك، لأني لا أعلم متى سنستطيع إرجاع المبلغ لك فالائتمان الحالي ما زال يرهق كاهلنا. ولكن بالتأكيد إننا سنحاول سداد المبلغ في أقرب وقت ممكن. أبإمكانك مساعدتنا؟

تارون، لا أعرف ماذا أقول لك. فكّر بالموضوع ثم قُل لي ما هو رأيك في ذلك. والداي سيرعيان ميدري، أودار سيأتي معي إلى المستشفى حينها... ومع ذلك فإنه ليس لديَّ تصور عن كل شيء بعد. إني خائفة.

قل لي ما هو رأيك، يا أخي الحبيب، فأنا أعلم أنك تُبصر الأمور هذه بوضوحٍ بالغ. هَا أَنا أشعرُ الآن بركلات الطفل في مَعِدتي ــ إنه يُحَيّيك أيضاً! أعانقك بشدة.

بريا

ملاحظة: بلِّغ تحياتي إلى كلارا أيضاً. هديتكم لميدري معلقةٌ بجوار سريرها عند النافذة، ولها أصوات مختلفة حسب أوقات اليوم. إنَّ ميدري تعتقد أنه بإمكانكم أيضاً سماعها عندما تكون النافذةُ مفتوحةً و«يسود الهدوء كل شيء».

كم أود رؤيتكم ثانيةً! آمل أن تكون بخير يا أخي. أوه، ها أنا أكتب كثيراً مرة أخرى... عملي ما زال ينتظرني. تحياتي لكَ.

نظرت كلارا حولها وتأملت المكتب ثم عادت إلى بداية الإيميل ثانيةً. كتبَ تارون بأنه كان من الأسهل ترجمة رسالة شقيقته مباشرةً بدلاً من تلخيصها أو إعادة صياغتها. أحقٌّ هذا، أم أراد تارون أن يكون لديها انطباع مباشر عن بريا، وعن خوفها، وعن الوضع الذي توجد فيه الأسرة؟ ألقت كلارا نظرةً سريعة على الرسالة وتوقفت عند بعض الكلمات مثل «فتحة»، و«مستشفى»، و«ائتمان». إنه أمرٌ جديدٌ بالنسبة إليها أن يُشْركها تارون في شؤون أسرته بهذه الطريقة. بالطبع هو يخبرها عن المكالماتِ الهاتفية والأخبار التي تَصِله من كالكوتا، مثلما تخبره هي عن محادثاتها مع والديها. ولكن على العكس من تارون الذي يتلَقّى بطاقة معايدة بعيد ميلاده من والديها مَعَ تحايا شخصية، فإنه من الصعب أن يكون شيءٌ من هذا القبيل بينها وبين بريا بسبب اللغة. وضعت كلارا أصابعها على لوحة المفاتيح. أيتوجب عليها أن تجيب بريا بصورةٍ أم برمز؟ لا، ليس الآن، ما دامت لا تعلم ما إذا كانت بريا تعلم بالفعل بأن تارون أخبرها عن المرض. أبعدت كلارا أصابعها مرة أخرى عن لوحة المفاتيح، إذ إنه لا يعنيها إن كان تارون سيساعد أخته أو سيحول إليها المبلغ أو أنه سيعطيه لها من خلال ضمان أو تقديم ائتمان، إن كان يملك بالفعل ما يكفي لذلك. حتى إن كانت لا تعلم بالضبط كم لديه من المال أصلاً، لأنهما لم يتحدثا أبداً عن ذلك، لكنها تعلم أنه لا ديون عليه وبإمكانه أن يعيش من راتبه بشكل جيد وأن يَدّخر منه بين الحين والآخر، لأنه عندما تعطلت سيارة كلارا (فيات) القديمة في العام الماضي كان تارون قد عرض عليها شراء سيارة جديدة قبل أن يُقرِّرا معاً عدم شراء سيارة من شأنها أن تبقى مركونةً في الشارع دون استعمال معظم الوقت. ثم إنهما لم تقولا لها شيئاً. ولكن مع ذلك شعرت آمال بأنّهما قد تفهمان ذلك عندما تواصل السير هي في وقتٍ ما والعرقُ يتصبب على الجبين والرقبة.

آمال

تلألأت الحروف المكتوبة على مظلة المتجر الصغير تحت أشعة الشمس. وعند اقترابها منه أكثر تمكنت آمال من قراءة السجائر والليمون. وعندما وصلت إلى المتجر تقريباً شاهدت ممرضتين شابتين تقفان في الممر وتدخنان السجائر. كلتاهما تستند إلى مدخل الباب وترتدي قبعات الممرضات البيض وتنفض رماد السجائر في الشارع. عندها رمقتا آمال بنظرة سخرية من الأعلى إلى الأسفل كأنها طفلة صغيرة مستهجنة في الزي المدرسي تمشي بخطواتٍ ثابتة وغريبة تجعل البنان تُشير إليها وتضحك عليها كما لو كانت دُميةً أو مهرجاً. بقيت آمال واقفةً ولم تتحرك، بل بدلاً من ذلك التفتت إليهما ونظرت إليهما نظرةً ثاقبة. استمرت تنظر إليهما حتى تجمدت ابتسامتهما. لم تقلْ لهما شيئاً، ثم إنهما لم تقولا لها شيئاً. ولكن مع ذلك شعرت آمال بأنّهما قد تفهمان ذلك عندما تواصل السير هي في وقتٍ ما والعرقُ يتصبب على الجبين والرقبة.

صادفها رجلٌ على دراجته يداعب سلسلة مفاتيحه، وما إن لمحت فيها آمال قطع البطيخ وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس حتى شعرت بالعطش. أسرعت خطاها، انعطفت عند الزاوية التالية، عبرت شارعاً واسعاً مملوءًا بالنخيل ثم انعطفت نحو زقاق ضيقة هادئة. لم يبقَ أمامها الآن سوى بضع دقائق وتصل البيت، تصل معجنات طارق. تركت خلفها منزلاً بعد الآخر، سالكةً انعطاف الزقاق حتى وصلت معجنات طارق لترى أخيراً جدتها جالسةً أمام المعجنات على كرسيٍّ تحت المظلة الخضراء وبجانبها يوجد على المنضدة كوب شاي وكوب كبير من عصير البطيخ لآمال. بغبطة رفعت آمال يدها وصاحت «جدتي» وأخذت تركض. حينها اندفع جنودٌ فجأة إلى الشارع، سحبوا الجدة من كرسيها وحملوها على النقّالة ومضوا بها بعيداً، فارتَجَت زجاجةُ المُغَذّي فوق النقالة وخشخشت. أرادت آمال أن تتبع جدتها وترافقها لكن المزيد والمزيد من الجنود أخَذوا بالاندفاع بين المنازل في الشارع، ركضوا نحوها، أمسكوا بعصاها وصرخوا: إلبري! إلى الأمام! إلبري! بقيت آمال واقفةً، التفتت حولها، أرادت أن تهرب ولكن ساقيها ثُقلتا فجأة كالرصاص والجنود يصرخون خلفها والكلاب تنبح. حلَّ الظلام وتعالتِ الأصوات أكثر فأكثر، أصواتُ قصفٍ ــ فأسرعت آمال خطاها وبدأت تلهث.

عندما هدأت أنفاسها تدريجياً تذكرت جدتها في المستشفى. وقبل أن تخلد إلى النوم بقليلٍ فكرت كيف يمكن أن يكون الوضع لو أن جدتها نُقِلَت آنذاك في سيارة إسعاف من البيت إلى مستشفى آخر غير مستشفى والدها، إلى المستشفى القريب من سكناهم، نفس المستشفى الذي وُلِدت هي فيه وزارت فيه راوية وهي تلميذة في المدرسة الابتدائية عندما مكثت هناك بسبب ساقها المكسورة، زارتها آنذاك مع والدها وبعد مغادرتهما المستشفى شربا معاً عصير البطيخ اللذيذ في المحل المقابل للمستشفى. وتذكرت آمال أن الممرضات في الممرات كنَّ يرتدينَ آنذاك في التسعينيات قبعاتٍ ويشبهنّ تماماً الممرضات في الأفلام الأوروبية، يرتدينَ قبعاتٍ وليس وشاحاً... أخذت آمال قدح الماء من تحت سريرها. ولكن هل جَلبا لراوية في المستشفى علبة من العلب الخضراء من معجنات طارق؟ علبة كبيرة فيها طبقات ثلاث من البقلاوة: بقلاوة طارق التي كانت راوية تقول عنها بأنها ثاني أفضل دليل على وجود الجنة فوق الأرض. أغمضت آمال عينيها في الغرفة المظلمة لأن مجرد التفكير بمنظر الحلويات الحارة ورائحة الزبدة وطعم

قطع الفستق المغمسة في شراب ماء الورد يجعل اللعاب يسيل في فمها. «إن الشغف ببقلاوة طارق هو أمرٌ متوارث في عائلتنا كما هو الحال في وراثة الوحم أو المهارات الخاصة لدى العوائل»، هذا ما قالته الجدة ذات مرة باقتناعٍ كبير عندما رأتِ اللذة التي تلعقُ بها آمال كل إصبع من أصابعها بعد تناول البقلاوة.

فتحتْ آمالُ عينيها وشربت مرة أخرى من قدح الماء الزجاجي لتروي عطشها وتزيل طعم الذكريات. وهنا خطر في ذهنها بأن تتصل بطارق يوم غد إن لم تتمكن من الاتصال على راوية. إذ ربما رأى طارق شيئاً ما، سيارة الإسعاف المارة، الممرضين، الجدة المحمولة على نقالة من بيتها إلى سيارة الإسعاف؟ ولكن ماذا لو كان طارق لا يعرف شيئاً عن ذلك حتى الآن؟ فقد يُقلق ذلك رفيق عشتار المخضرم (ظنت آمال وابتسمت)؟ إن إعجاب طارق بعشتار أرملة صديقه المقرب أحمد هو سرٌّ مفضوحٌ في شارعهم، بل حتى إن البعض يدَّعي أن الجدة هي سبب عدم زواج طارق ذي القلب الطيب الذي يحظى بتقدير الجميع إلى الآن.

الْتفّتِ آمال ببطانيّتها وفركت أطراف قدميها بعضهما ببعض. سمعتْ أنفاسها كالصدى ممتزجةً بأنفاس نوريج. إن العلاقة الناجمة من تشابك نوعَيْن من الأنفاس يبدو كأنه ترابطٌ هادئ وسِلمي لا ينسجم مع شعور آمال الداخلي الغاضب. حاولتْ أن تنام مرةً أخرى، انقلبتْ على ظهرها، نظرتْ إلى سقف الغرفة وحاولت أن تتخيل سقف غرفة المستشفى الذي توجد فيه عشتار. بالتأكيد إن السقفَ هناك أبيضُ أيضاً. ولكن كيف هي درجة اللون الأبيض: أهو أبيضُ يميل إلى البيج، أم أبيضُ خافت، أم بالأحرى أبيضُ طباشيري؟ وهل الزوايا رصاصية اللون من شدة القذارة ومغطاة بخيوط العنكبوت، وإن كان الأمر كذلك هل تستطيع عشتار النوم في قذارة كهذه؟ هل تريد النوم على الإطلاق؟ هل تعلم ما حدث لها وفي أي خطرٍ ما تزال تعوم، تساءلت آمال وأدركت أن الجَدّة التي لا تُدرك حقيقةَ وضعها تكون مثيرةً للقلق أكثر من أن تكون مجرد عشتار القلقة التي لا تستطيع النوم. حاولتْ الاتصالَ براوية اثنتي عشر مرة بعد ظهر يوم أمس ومساءه ولكن بلا جدوى. بعد الساعة العاشرة صباحاً بقليل في توقيت بغداد كانت هناك رسالةٌ تقول: «لقد نَجَتِ الجَدّة. وأنا ما زلتُ في المستشفى. سأتصل غداً»، دون مزيد. لم يكن ممكناً الوصولُ إلى هاتف راوية، وهذا يعني بالتأكيد أنها بقيت في المستشفى مع عشتار.

إنَّ الصوت الذي يُبقيك مستيقظاً في الظلام

هو صوتك،

جوهرُ جسدك المعذَّب النحيل {كالنملة}

الذي لا يعود

على رغم كل شيء

قرأتْ نهرين تلك الأبيات التي كتبتها يدٌ متسخة على ورقةٍ مجعدة ودسّها أحدهم إلى نهرين. كان الأقارب والنساء والأمهات وأحياناً حتى أزواج السجينات يدسّون مراراً وتكراراً إلى نهرين وزميلتها الأخرى المحامية لحقوق الإنسان القصاصات، قطعاً من الورق وأحياناً حتى دفاترَ كاملة ويطلبون منهما «الاحتفاظ بها».

في هذه الحالة فإن الاحتفاظ بها لا يعني سوى نشر القصيدة ليس إلا، هكذا فكَّرت راوية بصوتٍ عالٍ بعد أن أنهت نهرين قراءتها.

«إنها فكرةٌ جميلة (أجابت نهرين)، لكن أين؟ فإنَّ نشرها هنا في بغداد وتحت اسمه الحقيقي يعني الحُكم عليه بالموت».

«إذاً باسمٍ مستعار»، اقترحت راوية.

وهنا جلست نهرين في كرسيها وأجابت بتهكم: «اسمٌ مستعار؟ هذا يعني أنه سيؤخذ منه كل ما تبقى له: اسمه، هويته، «جوهره الذي لا يعود»؟ بمعنى أنه سَرقة لصوته بالتأكيد»؟.

تتذكر آمال جيداً أن هذا الحديث دارَ بالضبط قبل حلول الألفية مباشرة عندما كانت هي ما تزال في المدرسة الابتدائية وقد سُمِحَ لها بعد أن أنجزت واجباتها المدرسية الجلوس مع البالغين في غرفة المعيشة في وقتٍ متأخرٍ بعد العصر. في تلك السنوات كان الحزب يقع تحت الضغوط، كما وضَّحَ لها أبوها، «بسبب الحاجة إلى البضائع المهمة التي لم يُسمح بدخولها إلى البلاد: نقص الأدوية واللقاحات وقطع الغيار اللازمة الضرورية»، أما رد فعل الحُكَّام فكان باتّباع الوسائل ذاتها: المزيد من الخطابات التي تحثُّ على الكراهية والاضطهاد والعنف.

إنَّ الصوت الذي يبقيك مستيقظاً في الظلام

هو صوتك،

جوهرُ جسدك المعذَّب النحيل {كالنملة}

الذي لا يعود

على رغم كل شيء

عند قراءة كل بيتٍ من هذه الأبيات أصبح صوت نهرين أبطأ وأشدُّ انخفاضاً، وتوقفت بعد كلمة «المُعَذَّب» للحظات ثم جَزّأت عبارة {جسدك النحيل} إلى جزأين اثنين – إذ فصلت «النحيل» عن «جسدك» على أمل الحفاظ على الجسد المعذَّب بعيداً من مكانة النمل وطبيعته {كمثال على النحول والوهن}. تقلبت آمال في سريرها إذ إنه لأمرٌ مدهشٌ مدى تذكرها بوضوح ما حدث عصر ذلك النهار، بل ربما لا غرابة في ذلك، لأن تلك هي ليست المرةَ الأولى التي تسمعُ فيها أبياتاً شِعرية في المنزل، ففي أحيانٍ كثيرة كانت جَدّتها تقرأ لها قصائدَ قبل النوم، ولكن تلك كانت هي المرة الأولى التي ترى فيها شاعرَ الأبيات ذاته أمام عينيها. أخذت آمال الوسادة ووضعتها تحت رأسها. تُرى هل يتذكر الأب أيضاً القصيدة وإلقاء نهرين؟ إذا كان ما يزال يحتفظ بذاكرته أساساً.

كان للكشط الهادئ والمستمر في نفس الوقت لمناقير الطيور على نافذة الشباك أن يوقظها، رمشت آمال، وفتحت عينيها، ورأت نوريج تجلسُ راكزةً في سريرها تراقب الطيور على ما يبدو منذ مدة من الزمن. «صباح الخير»، همست نوريج دون أن تغير اتجاه نظرها وهي تومئ بيدها إلى النافذة: «أتعتقدين أن الغرابَ جائعٌ»؟.

ببطء جلست آمال في سريرها وقالت وهي ما تزال نعسة:

«إذا لم يبتَعِد من هنا في الشتاء فهذا يعني أنه يجد هنا ما يكفيه من الغذاء. ربما تكره الغربان المطر لذا تنقرُ على الشباك».

أومأت نوريج بأكتافها. وهنا داهمَت الذكرياتُ آمالَ فجأة: إن جدتها في المستشفى. وعليه أطبقتْ البطانية بسرعة، قفزتْ، جلستْ على المنضدة وشغّلت الكمبيوتر.

«نعم، تفضل»؟.

«راوية؟ راوية»!.

«آمال»؟.

«كيف حال جدتي»؟

صمتٌ ساد الأجواء.

«راوية! أين أنتِ؟ لا أسمعكِ جيداً. هل أنتِ في السيارة؟ هل كنتِ في المستشفى؟ راوية! كيف حال جدتي»؟

«ليست أسوأ مما هي عليه، ولكن (وهنا حدثَ خللٌ في الاتصال) وضعها غير مستقر. علينا الانتظار».

«ننتظر؟ ننتظر ماذا يا راوية»؟

«إنها ما تزال في العناية المركزة. لديها اضطرابٌ في ضربات القلب. آمال، أنا على الطريق السريع، سأكتب لكِ لاحقاً».

«راوية، هل تسمعينني؟ لا تُغلقي الهاتف»!

«سأتصل لاحقاً. عليَّ الانصراف ـ »، وهنا حدثَ خللٌ آخر وسُمِعَ صوتُ خشخشةٍ كما لو كان هناك شيء ما أدى إلى اضطراب الاتصال. بعدها أشارَ برنامج الـ«سكايب» من خلال علامته الضوئية إلى أن الخط انقطع أو أن راوية أغلقته. أرجعت آمال كرسيها إلى الخلف، رفعت يدها غَضِبةً بلا حول ولا قوة ـ في حين كانت نوريج تنظرُ إليها بصمت، أما آمال فإنها تعلم شيئاً واحداً فقط، وهو أنها لا تريد أن تكون الآن هنا.

كلارا

يبدو أنه ليس هناك شيء مهمّ آخر، وعليه استثمرت كلارا الوقت لتبحث عن كلماتٍ مناسبة، الأمر الذي لا يبدو يسيراً لها، لأنها لا تعلم بالضبط لماذا لجأت فجأة إلى الهاتف. ففي الحقيقة هي عادةً ما تتجنب الاتصال على تارون في المكتب، لهذا يوجد أخيراً الصّيغ التحريرية، مثل الرسائل النصية القصيرة {أس أم أس} أو الرسائل العادية، تلك الأنواع من وسائل التواصل التي لا تحتاج بالضرورة إلى إجابة.

«نعم؟ كلارا»؟

صوتُ بابٍ يُغلَق خلفه كما لو كان تارون عائداً للتو.

«عذراً، تارون».

«لا يهم».

«أردت فقط أن أقول: ـ إنني قرأت للتو إيميلك أو بالأحرى إيميل بريا».

«آه، جيد. شكراً لكِ»، أجاب تارون: «ما هو رأيكِ، هل تعرفين المستشفى الذي كتبت عنه بريا؟ ما مدى خطورة ذلك»؟.

أخذت كلارا شهيقاً، فإن سؤال تارون أزعجَ الطبيبة التي بداخلها. إنَّ تارون يعرف تماماً بأن التشخيص عن بُعد لا يكون تشخيصاً دقيقاً وبالتالي يكون خَطِراً. وبالطبع تعرفُ كلارا من خلال دراستها أعراضَ القلب التي وصفتها بريا، ولكن كم تعقيد الحالة وما مدى خطورة العملية الجراحية، وكم عُلُوّ نسبة احتمال حدوث مضاعفاتٍ، فإن هذا كله يعتمد بالتأكيد على حجم «الفتحة» وموقعها ـ الأمرُ الذي ليس لديها أدنى فكرةٍ عنه.

وعليه أوضحت كلارا: «لا يمكن قول ذلك عن بُعد، فالأهم من هذا هو أن تكون بريا في أيدٍ أمينةٍ».

«وهذا ما اعتقدته أنا أيضاً (أجابَ تارون)، من الجيد أنهم كانوا عند طبيبٍ مختصّ. خطر لي أيضاً أن أكتب إلى نيراد، شقيق صديقٍ لي من كالكوتا، فهو طبيبٌ في دلهي وأود أن أسأله عن رأيه بالمستشفى الذي كتبتْ عنه بريا».

«فكرة جيدة بالتأكيد»، ردتْ كلارا وتبادرَ إلى ذهنها بأن هذا المستشفى له تكاليفه المالية كأنها أدركتْ ما ينبغي عليها أن تسأله أو تقوله الآن. ولكن هل موضوع كهذا مناسبٌ للتحدث عنه في الهاتف؟

«عفواً كلارا، عليَّ الاستمرار بالعمل الآن، لدينا اجتماع. لم ينبغِ لكِ العمل اليوم، أليس كذلك؟ هل نلتقي لتناول الغداء معاً، ونشرب كأسين من التوت الأحمر؟ هلّا نلتقي عند الواحدة والنصف»؟ وافقته كلارا الرأي، ودّعها تارون بسرعة وأغلق الهاتف، في حين بقيت كلارا تتأمل الهاتف بيدها لبرهة.

عندما أزاحت كلارا الستارة الثقيلة من خلف باب المدخل جانباً ودخلت المطعم المملوء بعطرِ الكزبرة والليمون، رأت بالفعل تارون يجلس على مائدةٍ عند الحائط في الجانب الخلفي. كان يتطلع إلى هاتفه الجوال بتركيزٍ عالٍ ويكتب شيئاً ما، توقف قليلاً ثم استَمَرّ بالكتابة، وعندما رأى كلارا قفز من مكانه، وأتى نحوها، وقبّلها، وساعدها في خلع سترتها.

«كلارا، شكراً لكِ على مجيئك».

«بكل سرور»، أجابت كلارا مبتسمةً.

عندما جلسا أشارت كلارا إلى هاتفه الجوال الذي ما يزال أمامه على المائدة، قائلةً: «ما زلت تعمل»؟، أومأ تارون برأسه ودقَّ بلطف على ساعته: «على أية حال لا يمكنني القيام بأي شيء في الساعات القليلة المقبلة. فالساعة الآن في هاورا هي الخامسة عصراً، واليوم هو الجمعة، يعني ليس هناك أحدٌ في موقع البناء. ومديرُ الموقع هناك قد ذهب الآن إلى منزله لتناول العشاء مع عائلته، وبعدها سيصطحب أطفاله إلى الفراش، ثم بعد أن ينام الجميع سنتهاتف معاً، فهو وعدني بأن يتصل عليَّ».

«مساء الجمعة»؟، استدركت كلارا مبتسمة.

رفع تارون يده: «ينبغي ذلك! فهناك أشياءُ ينبغي توضيحها بسرعة. إنَّ مدير الموقع هو واسطة الاتصال الوحيدة المباشرة لي مع الموقع، وتقريرهُ الأخير أوضحَ أن هناك بعض المشكلات في موقع البناء».

«أي نوع من المشكلات»؟، سألته كلارا.

«يبدو أن هناك بعض الشركات لم تلتزم بما وافقت عليه من قبل، فإنهم يأتون متأخرين جداً إلى موقع البناء أو يجلبون معهم عدداً قليلاً جداً من العمال، أو معهم عمال لا يصلحون للعمل ـ إذا لم يتخذ المرء إجراءً ذكياً إزاء ذلك على الفور، فإنه من الممكن أن يتأخر كل شيء بسرعة»، أجاب تارون.

هنا مَثَّلَ أمامهم النادل تشونغ الذي يُعِدّ عادة طلبهما:

«مرحباً بكما (رحب بهما بحرارة) دعاني أخمن ما تطلبان: طبقين من الطبق اليومي كالمعتاد دائماً»؟، أومأ كلاهما برأسه.

«بالإضافة إلى مشروب الفواكه الطازجة الخالي من الكحول»؟.

«اثنان من التوت الأحمر، كالمعتاد»، أجابته كلارا. رفع تشونغ إصبع إبهامه متفقاً معها.

وبينما هما ينتظران الطعام، ضمَّ تارون يد كلارا إلى يده.

«هل أجبت»؟، سألت كلارا.

«على رسالة بريا؟ (أجابها تارون) فقط بشكلٍ مختصرٍ، فقد كتبتُ لها بأنني سأتصل عليها هذه الليلة في رَوِية».

حاولت كلارا أن تتخيل بريا مع جهاز كمبيوتر. وبحسب ما تتذكر فإنه يوجد في شقة بريا الصغيرة منضدةٌ واحدة فقط في المطبخ.

«هل تعلم ميدري ذلك»؟، سألت كلارا وهي تفكر في ابنة أخت تارون الجميلة ذات النقطة الحمراء الداكنة اللامعة بين حاجبيها.

«مثلما أعرف ميدري، فإنه لا أحد يستطيع أن يخفي عليها شيئاً»، ردّ تارون.

أومأت كلارا برأسها، فهذه هي أيضاً الطريقة التي تُقَيِّم فيها الصغيرة ميدري التي اختبأت فقط في الدقائق الأولى وراء أرجل أمها باحثةً عن مأمن لها عند زيارة كلارا لهم. ولكن بعد أن أدركت ميدري أن هذه المجهولة الكبيرة التي لا تفهم لغتها تنتمي إلى تارون، خالها الحبيب، أخذتها من يدها إلى زاوية لعبها وقدمت لها بالإيماءات سكان حديقة حيواناتها المصنوعة من الخشب وقشور الجوز التي صنعها لها أودار، وقلدتْ أصواتهم لها.

بعد ذلك وفي أثناء عودتهما، قالت كلارا إلى تارون: «جميلٌ أن ميدري انسجمت هكذا».

فأجابها تارون: «مع العلم أن ميدري ربما لم تصافح شخصاً أبيض البشرة من قبل حتى يومنا هذا».

جلب تشيونغ عصير التوت في كأسين للنبيذ مزينةً بورق النعناع الطازج.

«في صحة ابن بريا»!، رفع تارون وكلارا كأسيهما.

لم يتأخر الطعام كثيراً، أمسكَ تارون وكلارا عيدان تناول الطعام وأخذا بتقليب الطبقات المختلفة معاً وخلط سلطة الكاري مع الدجاج والأرز.

وبينما قرَّب تارون عيدان تناول الطعام إلى فمه قال: «ميدري ستذهب إلى المدرسة في العام المقبل».

وضعت كلارا كأسها وسألته: «سوف تساعد بريا، أليس كذلك»؟.

أومأ تارون برأسه: «سأطلب منها أن تخبر المستشفى بأن يرسلوا إليّ فواتير الحساب مباشرة إن أمكن ذلك، أو سأدفع مبلغاً ما مقدَّماً».

أخذت كلارا نَفَساً عميقاً: «وهل لديكَ ما يكفي من المال»؟.

رفعَ تارون كتفيه: «لا أعلم كم يكلف ذلك».

فأجابته: «قد يكلف ذلك الكثير، لا سيما في بلدٍ تخضع فيه الرعاية الصحية منذ عقود لنظام المستويين، بل حتى سنوات قليلة لنظام المستويات الثلاث، واعتادت فيه المستشفيات المتخصصة أن يُدفع حساب العمليات مباشرة».

حينها تشكلت على جبين تارون طيتان: «آمل أن تكفي مدخراتي لذلك».

مدت كلارا ذراعها نحو يده وأوضحت: «إذا لم يكن لديكَ ما يكفي فأرجو أن تبلغني بذلك فقد ادخرتُ بعض المال، ثم إن الجائزة المالية لأطروحة الدكتوراه ما تزال موجودةً أيضاً، فهي موجودة في البنك وسأكون سعيدة بتقديمها إليك».

نظرَ تارون إليها مندهشاً ولم تفهم كلارا إن كان فرِحَ لعرضها هذا أم لا، إذ جاء ردُّ فعله متأخراً بعض الشيء. ابتسمَ تارون وأرجعَ ظهره في الوقت ذاته على كرسيه حتى انفصلت يده عن يدها: «هذا لطفٌ منك كلارا، ولكن بريا لن ترغب في ذلك».

«لماذا»؟.

«لأنكِ لستِ شقيقها».

فقالت كلارا: «بالطبع لا، لكني أعيش معه».

«مع ذلك» ـ تلعثم تارون ـ «نحن أيضاً لسنا متزوجين. ولكن هذا ليس كل شيء، بل حتى بريا نفسها لن ترغب في ذلك أيضاً».

«لماذا»؟ سألت كلارا مرة أخرى.

أوضح تارون: «لن يكون الأمر مريحاً لها. بريا معتَدَّة بنفسها وتخجل أن تقترض مالاً من شخصٍ ليس بأخيها أو والديها».

«ولكنها تأخذ قرضاً من البنك»؟ قالت كلارا.

فأجابها تارون: «هنا الأمرٌ مختلف، فالقرضُ أمرٌ أكثر حيادية».

«حيادي؟ إن دفع فوائد القرض أمرٌ في غاية الجنون، هذا إن كان الحصول على المال ممكناً أصلاً، لا سيما في مثل حالة بريا».

رفع تارون كتفيه ثم أومأ برأسه. «وفي هذه الحالة لن تُضْطَر بريا أيضاً إلى الحصول على القرض. وإذا لزِمَ الأمر فأنا مَن سيقوم بذلك».

«ولكن لماذا؟ (سألت كلارا بصوتٍ عالٍ) فالشيءُ نفسه سينطبق عليكَ: المالُ لديَّ وعليك أن تدفع ثمنه فقط».

صمتَ تارون وقال: «لقد ذكرتُ لكِ السبب»، ثم أطبقَ شفتيه معاً.

بالطبع فهمت كلارا السبب، ولكن هذا بالنسبة إليها ليس سبباً لجعل الأمر برمته مُعقداً ومكلفاً بلا داعٍ. «الشيء المهم هو دفع التكاليف»، حاولت هي مرة أخرى بصوتٍ رقيقٍ: «وإذا كنت تعتقد أن اقتراض جزءٍ من المال مني سيكون بالنسبة إلى بريا أمراً غير مريحٍ فلا تقول لها إنه مني».

إنَّ تارون الذي كان في هذه الأثناء يريد التقاط قطعة من الدجاج بالشوكة أعاد القطعة مرة أخرى إلى طبقه: «أنت تريدين مني أن أكذب على أختي»؟، سألها وهو يشدد على كلمة «أكذب» كما لو كانت تطلب منه اتهام شخصٍ بريءٍ بالقتل.

رفعت كلارا يديها مدافعةً عن نفسها: «إذا أرَدت سَمِّ الأمر هكذا..»..

أجابها تارون بجِدّة: «إذا قلتُ إن المالَ هو مني فهذه بحد ذاتها كذبة».

نظَرَا بعضهما إلى بعض قليلاً وأدركا جَلِيًّا أن نبرة الصوت هذه غير مألوفة بينهما. وجدت كلارا صعوبةً في ابتلاع الطعام، في حين استمر تارون بتناول الطعام وهو ما يزال يحدقُ إلى طبقه رافضاً أن يرفع نظره ويلتقي بنظراتها، الأمرُ الذي جعل كلارا تشعرُ بالغضب: «يا إلهي، أنا أريد فقط أن أساعدك! وأنت تتصرف كما لو أنني ارتكبت جريمةً».

نظر إليها تارون الآن دون أن تكون نظرته عدائية ولكنها غير مفهومة. أخذ وقته قبل أن يجيب: «كلارا، هل تريدين مساعدة بريا أو إثبات شيءٍ ما لي»؟.

راجعت كلارا نفسها مرة أخرى. ماذا يعني هذا الآن؟ كيف يفكر بشيء كهذا؟ إنها لا تعلم لماذا يسأل هو عن ذلك الآن، كل ما تعلمه هو أنها تكره تَحْريف الناس للنقاش حينما يفسرون {كلام} الآخر ويحصرونه في تفسيرهم ويجعلونه يَعْلَق فيه حتى لو رفض هذا {الآخر} التفسير في النهاية لنفسه. تُعد والدتها سيدة التكتيك في تغيير مسار النقاش.

فقالت كلارا بغضب: «لِمَ يُهم هذا الآن؟ حتى وإن كان الأمر كذلك فما أهمية هذا الآن؟ لا تفترض أنك تفهمني أفضل مما أنا أفهمُ نفسي».

«أنا لا أفترض وإنما أسأل فقط»، قال تارون ذلك بهدوء ولكن صوته يبدو أبرد الآن. صمتَ كلاهما. استمر تارون يتناول الطعام، أما كلارا فلا.

«أنا فقط لا أفهم لماذا أصبحت عنيداً جداً هكذا. في بادئ الأمر تترجم لي إيميل بريا، تدخلني في القصة والآن تبعدني عنها هكذا. كان بإمكاني أن أسألك أيضاً: هل أنت متأكد أن بريا لا تريد أن تأخذ المال مني، أو تراك لا تريد أخذه مني»؟.

نظر إليها تارون ثم وضع عيدان الطعام بدقة على المنديل بجانب طبقه. أومأ برأسه، نظر إلى ساعته وقال: «لا فائدة من ذلك. يجب أن أذهب».

نهضَ تارون، تركَ كرسيه، تردد قليلاً، من الواضح أنه يفكر في إيماءة، لكنه بسطَ يده بعد ذلك وانصرف. شيء ما في داخل كلارا يريدها أن تقفز من مكانها لتوقف تارون وتنادي: «لا يمكنك الانصراف الآن هكذا»!، ولكنَّ صوتاً ما بداخلها يقول لها أيضاً إنِ عليها أن تتركه إن كان يعتقد أن ذلك مناسباً له، وعليها أن تحتمل رؤيته وهو ينصرف بعيداً، يأخذ معطفه، ويذهب نحو الكاشير ليدفع الحساب تماماً كما لو كان أكَلَ لوحده وغادر المكان. حُبّها له يجب أن يحتمله، قالت كلارا لنفسها وهي تراقب كيف يتخطى تارون الرصيف ليعبر الشارع على الفور باتجاه جزيرة المتاحف، وهو ما كان عليه في الواقع القيام به فيما بعد خلف بار الإسبريسو على هذا الجانب من الشارع. عليها أن تتحمل هذا الإحساس الغريب لديها، إحساس الغضب أو الخوف أو يمكن الاستياء، نعم إنه الاستياء، ظنَّتْ كلارا ذلك وأجبرتْ نفسها على الابتسامة: ألا يبدو هذا كأنه حصى؟ هذا هو بالضبط ما شعرتْ به، شعرت بوجود حَجَرٍ صغيرٍ في بطنها وحلقها. ابتعد تارون من الجانب الآخر للطريق وتحرك بخطًى نابضة.

آمال

بينما تتصلُ آمال هاتفياً على كلارا تحاولُ ترتيب الكلمات المشوشة في رأسها: نوبة قلبية! بغداد ـ خللٌ في برنامج السكايب ـ عدم انتظام ضربات القلب...

«نعم، تفضل».

لم تكن آمال متأكدةً من أنها تتحدث فعلاً مع كلارا، إذ إن صوتها يبدو مختلفاً عن عادته، أصفى وأكثر شفافيةً.

«كلارا؟ هذه أنا آمال».

«آمال»!، يبدو أن كلارا فرحت باتصالها وسألتها على الفور ما إذا كان الكمبيوتر يعمل بشكل جيد.

«إنه ممتاز»، أكدت لها آمال واستنتجت من الضوضاء الصاخبة لحركة المواصلات بأن كلارا في الخارج الآن قرب شارعٍ مزدحم.

«إن أزعجتكِ ــ »، بدأت آمال حديثها ولكن كلارا أكدت لها بأن اتصالها لم يزعجها: «بالعكس، فإنك اتصلت في اللحظة المناسبة تماماً (قالت كلارا)، إذ أتعلمين أين أنا الآن؟ أنا أدخل جزيرة المتاحف! ما زلتِ تذكرينها، أليس كذلك؟ إنها الجزيرة التي تقع على نهر سبري، بين النهر والقناة التي يوجد عليها أيضاً متحف بيرغامون الذي يضم بوابة عشتار».

نعم، تذكرتْ آمال كيف أنهما تحدثتا عن بوابة عشتار التي هي أكثر من مجرد بوابة، إنها البوابة الشمالية لسور مدينة بابل القديمة، وكذلك عن شارع الموكب المرتبط بها والسبب الذي من أجله أرادت المجيء آنذاك من النمسا إلى ألمانيا، إلا إنها على الرغم من ذلك لم تزرْ بوابة عشتار منذ وصولها إلى براندنبورغ حتى اليوم.

«كنا متأخرين ثلاثين عاماً»!، قالت راوية وهي تومئ برأسها عندما طلبت منها الجدة قبل بضع سنوات وهما تتناولان الشاي أن تتحدث لها مرةً أخرى عن الآلهة عشتار وعن بوابتها.

«بقيت البوابة دون أن يلاحظها أحد لأكثر من ألفين ونصف سنة في البادية الصحراوية، ثم يكون الألمان أسرع منا بثلاثين عاماً»، قالت راوية ذلك في نغمة كما لو أنها لم تقرر بعد ما إذا كانت ستبتسم لهذا «التأخير» على أنه سخرية من التاريخ أو تجده ببساطة أمراً مأساوياً.

أضاف حسن: «لكن هذا التقارب الزمني لم يكن مصادفة»، محاولاً استرضاء راوية. ومثلما أدركت آمال حينها فإن اعتراض والدها هذا تطرَّقَ إلى نقطةٍ حاسمة، لأنه في سياق المنافسة السرية بين القوى الاستعمارية حول الكنوز الأثرية للشرق الأوسط كانت فرنسا وصلت بالفعل إلى بلاد ما بين النهرين في منتصف القرن التاسع عشر، غير أنهم لم يتمكنوا في ذلك الوقت من تصنيف مكتشفاتهم الأثرية. وعندما اكتشف بعدها المهندس المعماري الألماني كولديوي في نهاية القرن الطوب المزجج في بابل وحدده كجزء من بوابة عشتار، نظَمَ كولديوي عملية نقله إلى برلين ضمن عملية تنقيب امتدت لعقدٍ من الزمن بتمويل من الدولة البروسية بأعلى درجة من الحكمة العلمية والذكاء، الذي أعجب الإنكليزية جيرترود بيل لدرجة أن بيل بعد الحرب العالمية الأولى أخذت على عاتقها مهمة تأسيس متحف أثري في بغداد تُسَمّيه راوية دائماً بـ«متحفنا» عندما تتحدث عنه حتى بعد سنوات من عزلها عن العمل فيه.

حتى أردفَ حسن قائلاً بهدوء: «ولا تنسي يا راوية أن السيدة بيل كانت معجبة جداً بعمل صديقها العزيز كولديوي».

اتفقت معه راوية: «هذا صحيحٌ ولكن ليس دقيقاً. المهم هو أن جيرترود بيل عملت كل ما بوسعها بعد الحرب العالمية الأولى من أجل ترك الكنوز الأثرية هنا. الشيء ذاته ينطبق على تأسيس متحفنا»!، أوضحت راوية ذلك بصوتٍ عالٍ كما لو كانت تتحدث أمام جمهورٍ كبيرٍ من الناس وليس أمام عائلتها في أثناء تناول الشاي».

«آمال، أما زلت على الخط»؟، سألتها كلارا لتتأكد.

«بالتأكيد»، أجابت آمال على الفور.

«ما رأيك، هل نذهب معاً لزيارة بوابة عشتار»؟.

ترددت آمال قليلاً وتذكرت سبب اتصالها على كلارا في الأساس ــ أي بسبب الأزمة الصحية لجدتها ــ ثم أجابت: «نعم، بكل سرور».

«متى يناسبك ذلك»؟، سألتها كلارا بسرعة.

فأجابت آمال، بأن الأمر متروكٌ إلى كلارا.

وعليه اقترحت كلارا: «لِنَقُل الاثنين المقبل»؟.

سمعت آمال كيف أن صوت كلارا ارتفع في نهاية الجملة.

«حسناً. الاثنين المقبل».

بعد انتهاء المحادثة شعرت آمال بالسرور، لأنها ستلتقي كلارا في غضون بضعة أيام في برلين من أجل زيارة بوابة عشتار. فالغريب بالأمر أنها لم تتمكن طيلة الأشهر الأربعة المنصرمة من القيام بذلك وحدها. أكان السبب يكمن في رغبتها بالادّخار، أم كان بالأحرى يكمن في ترددها بأن بوابة عشتار الواقعة على نهر سبري، حسب ما علمته من راوية، يتكون معظمها من الطوب الأصلي الذي نُقِل في صناديقَ على متن السفن من البصرة إلى هامبورغ ومن ثم من هناك إلى برلين ــ وإن البوابة التي أُعيد تشييدها الموجودة لديهم لا تتطابق تماماً مع البوابة الأصلية تلك؟ إنَّ الأبعاد غير صحيحة، صحيحٌ أن بوابة عشتار في برلين هي كبيرة أيضاً ولكن ليست لافتة للنظر كما كانت عليه في بابل القديمة تحت السماء المفتوحة. ومثلما أخبرتها راوية فإن قاعات متحف بيرغامون لم تكن كافية لها. وهل كانت هذه الحقيقة هي وراء ابتسامة راوية آنذاك عندما تحدثت عن بوابة عشتار وهي تشرب الشاي مع العائلة، أو إن هذه هي ابتسامتها الآن وهنا أمام بوابات برلين؟

دخلت نوريج الغرفة وأخبرتها بأنها رأت «أبو» في القاعة في الطابق السفلي وعلى رأسه كمادة تبريد ويُحيط به جمعٌ من الناس. يبدو أنه كان هناك نزاعٌ بين الشباب وقد تدخل «أبو» لتسوية الموضوع، وبالتالي تلقى بعض الضربات. أومأت آمال بصمتٍ وقررت أن تذهب مساء اليوم لتتفقد «أبو» بعدما يهدأ الوضع.

جلست أمام الكمبيوتر تحاول مرة أخرى وعاودت الاتصال على راوية ولكن دون جدوى، إذ إن هذه المرة لم تكن شبكة الاتصال ضعيفة بل غير متاحة أساساً. تُرى أما زالت راوية في السيارة على الطريق؟ لا، لأنه حسب ما لاحظته آمال الآن فإن راوية قد بعثت إيميلاً لها قبل عشر دقائق تقريباً: «أنا في الجامعة وستبدأ المحاضرة بعد قليل، سأتصل عليكِ لاحقاً».

أغلقتْ آمال الكمبيوتر، نهضت ومشت نحو النافذة. بدأت تشعرُ بالاستياء تدريجياً، إذ يبدو أنه ليس من أولويات راوية أن تُطَمْئِنها شخصياً على حالة جدتها عن طريق الهاتف كلما كان ذلك ممكناً. ألأنها بعيدة عنهم ولا تستطيع فعل شيء بأية حال من الأحوال، أم لأنه حقاً ليس هناك جديد في حالة الجدة، أم أن راوية لا تريدها أن تشعر بقلقها فعلاً تجاه الجدة؟ نظرت آمال صوب الشمس، تخيلت الجدة بين أنابيب التنفس في المستشفى، و«أبو» مع كمادة التبريد على رأسه. أغلقت آمال عينيها وفجأة تخيلتهما أصحّاء أمام معجنات طارق تحت أشعة الشمس. «أبو» والجدة يجلسان على طاولة صغيرة تحت المظلة ويحتسيان الشاي، «أبو» يرتدي نظارات شمسية سوداء وقبعةً من نخيل بنما. يا له من مدهش، وكيف كان يبتسم! أما طارق فكان يرتدي كالمعتاد على خصره مئزرة خضراء غامقة، يستندُ إلى مدخل الباب ويضع إحدى قدميه في المحل والأخرى على الشارع، وأمامه تجلسُ الجدة مثبتة أطراف شعرها كالمعتاد بعناية بشكل {قبة} مستديرة وترتدي فستاناً مرصعاً بالزهور ذا فتحة جانبية من اليسار. إن آمال تعرف الفستان، ولكن ليس من خلال عشتار، بل هو الفستان الذي كانت ترتديه جيرترود بيل في واحدة من الصور في مكتبها بالمتحف في بغداد. أخذت الجدة كوب الشاي بيدها وهي تنصتُ باهتمام إلى «أبو» الذي يتحدث عن شيء ما بحركات حيوية جعلت عشتار تضحك لها، بل تضحك كثيراً حتى إن الكوب في يدها أخذ يهتز. ثم إن طارق كان يستمعُ إلى قصة «أبو» ويتأملُ بصمتٍ خصلةً فضيةً تطايرت من شَعرِ عشتار. عندما فتحت آمال عينَيْها ثانيةً تلاشت الرؤية تلك عنها.

كلارا

{هنا تحاول كلارا قراءة إيميل تارون إلى أخته بريا بعد أن ترجمته بواسطة محرك البحث غوغل، مما نتجَ عنه ترجمة حرفية غير مفهومة تماماً كالآتي:}

«أختي العزيزة،

شكراً على رسالتكِ، وعلى ثقتكِ.

أمامي البحر الأحمر من أشجار القطن والحرير أنظر. وميدري عندما تتجول حول الأشجار. أعطي واحده قبلة من خالها. بريا، أختي، بالطبع سأساعدك. أنت بحاجة إلى لا تقلقي كثيرا. أخبري المستشفى، قولي لترسل لي جميع الفواتير. أنا على الفور عن طريق التحويل المصرفي دفع. أو، إذا لم يكن ذلك ممكنا، قبل العملية، إذا كان عليك الدفع نقداً، فسأذهب إلى أحدها قم بتنظيم المبلغ أمام فرع البنك الذي تتعامل معه حيث يمكنك تحصيله يمكنك الحصول على المال قبل السفر في دلهي. قد في اليوم التالي أسابيع يمكن توضيحها مع المستشفى عبر الهاتف؟

شكرا جزيلا. واسمحي لي أن أعرف المبلغ الذي يقدمونه لكِ قال.

عزيزتي، هل هو مؤكد، كل شيء سيكون على ما يرام. أهم شيء هو أنت في أيد أمينة. أنا سعيد لأنك رأيت متخصصاً. لحسن الحظ، لدينا وقت لأطباء «خطأ». يمكنكِ أن تثق بي، الدكتور العزيز. هل سبق لكِ أن تحدثتي إلى ميدري؟ لديها خوف من الشعور بالتوتر بالتأكيد. تكلم معها. الكثير الأطباء الجيدين الضروريين في دلهي عند ولادة أخيهم الصغير. ميدري لا تفهم، أنا متأكد من أنها ستفهم. عندما أشاهدها وهي تلعب، أدرك أنها تثق بالقدرة على خلق العالم وإصلاح ما هو ضروري. بريا، بداية الربيع، لكنها ما زالت باردة. أحمر، أفتقد البرتقالي، ألوان كالكوتا! أنتِ تعرفين اللون الأصفر هنا ألمانيا ترمز للحسد، لون مشكوك فيه جدا؟

لون الشمس النور الذي ينير الجميع! أعتقد أن هذا شيئا مختلفا لأن اللون الأصفر مختلف. إنه أكثر إشراقًا من القمر أصفر وليس أصفر الشمس. بدون زعفران، كركم أصفر.

عزيزتي، تذكري، لطّخنا مسحوق الكركم على وجوهنا؟ لقد أزلنا مسحوق الكركم ركض مطبخ الأم معه إلى الفناء خلف ورشة الأثاث. نضع البودرة على وجوهنا، مثلنا تماماً شاهدت عرائس مع حينا ثم رقصوا نحن! استدرنا لطرد الأرواح الشريرة كيف تعلموا جميعا. حبيبتي، أنت لا تتذكري مثلنا رقص؟ كم كان لدينا من المرح، وكم القليل من الخوف من الأشباح؟ بريا، سوف يرقص ابنك مثل هذا يوماً ما! لحفل زفافه أو ميدري، أو ما قلته من قبل، في الفناء الخلفي ورشة العمل...

بريا، أخت، أحيانًا هذه الأيام، أنا خائفة أيضاً ننسى كيف كانت اللعبة مليئة بالحيوية في طفولتنا. هناك في الأوان الأخير، كنت أتذكر ذلك الوقت أكثر من ذي قبل. أنا متأكد، عزيزي، سيكون الطفل بخير. دع أعرف ما يقوله الأطباء. وخير لنفسك وذا احترس من الطفل. يمكنك الاتصال بي في أي وقت إذا كنت تريد. أنت تعلم، أليس كذلك؟ اذهب إلى مكتب البريد واسأل.

أنا أحضنك بشدة.

أخاها

شاب».

ابتسمت كلارا مرات عدة، بل إنها ضحكت بصوتٍ عالٍ لشعورها في كل جملة بالهُوَّة الواسعة والمسافة الكبيرة بينها وبين النص، بين دفء الكلمات وقراءتها الباردة الفضولية. تلك القراءة التي كانت تأمل من خلالها التغلبَ في كل سطرٍ على المسافة هذه، ولكنها ترتطمُ فيها مرة أخرى بجدارٍ من الحروف وترتدُّ بينهما، الأخ والأخت، اللذين يتواصلان معاً بلغة لا تفهمها هي، لغة غريبة عليها لدرجة أن أبجديتها تجعل كلارا بعيدة عنها، ورموزها تصبح أمامها كالغابة، كالجدار الذي أرادت أن تحطمه بعنف من خلال برنامج الترجمة ــ وعلى الرغم من أن هذا قد نجح، وعلى الرغم من أنه أصبح لديها الآن فكرةٌ جيدة عن مضمون رسالة تارون ونبرته، غير أنه بَقِيَ لديها شعورٌ عميق بالعجز.

إن هذا الشعور تحول إلى نشاطٍ عندما بدأت كلارا بترجمة الرسائل الأخرى في صندوق بريد تارون التي لا تفهمها أيضاً، إذ ترجمتها إلى اللغة الإنكليزية أولاً لأن البرنامج الذي يجده تارون مناسباً للنصوص البنغالية «لا يجيد» اللغة الألمانية، ومن ثم تترجمه من الإنكليزية إلى الألمانية. وعليه ترجمت رسالة تلو الأخرى كأنما المسألة تتعلق بإشباع فضولٍ لغوي ــ وليس خرقاً للثقة. إنَّ كلارا تعلم بالطبع ما تفعله، كما أنها تعلم أن أدنى انتهاك للحدود كهذا ليس هو الذي يجعلها تشعر كأن الأرض تتلاشى تحت قدميها. هل حقاً إن الثقة هي أول ما يتلاشى دائماً؟ هل عدم الثقة يفتح علينا هاوية سنعرف عواقبها فقط عندما يجتاحنا تيار السقوط، أو أن هذا خرافة أخلاقية، اختراع أولئك الذين يخشون عدم ثقة الآخرين؟ وهل من الممكن إجراء تقييم عام عمّا إذا كان سحب الثقة يحمينا أم بالأحرى يُعَرِّض سعادتنا للخطر؟ سألت كلارا نفسها. ألا يحسمُ الأمرَ أكثر ذلك الذي يعلم بخطورة انتهاك الحدود؟ أغلقت كلارا أولاً صفحة الإنترنت مع برنامج الترجمة ثم حذفت سلسلة البحث من المتصفح. إنها تحذفُ جميعَ الآثار كما لو أنها كانت معتادة هذا الشيء أو خططت له من قبل بإتقان، فهذا هو كل ما ينبغي أن تفكر فيه إن وُجِد، بحسب ظنها وهي تطفئ كمبيوتر تارون وتغادر الغرفة.

لم يَعُد تارون من رياضة الجري بعدُ. ذهبت كلارا إلى المطبخ لإعداد السَّلَطَة وخبز البيتا وصلصة الزبادي التي أضافت إليها بعد شيءٍ من التردد قليلاً من الكركم كما رأته لدى بريا. وبينما هي تحرك الصلصة تذكرت الأصناف العديدة المختلفة المتبَّلة اللذيذة الطعم للغاية التي قدمتها لهم بريا عندما كانوا عندها في المنزل. بحذرٍ ولكن دون تطفل كانت بريا تمد يديها بكل وُدٍّ واسترخاء مراراً وتكراراً وترفع الأطباق قبالة كلارا ــ كل لفتة هي سؤال وكل ابتسامة ترجو كلارا بأن تشعر براحةٍ تامةٍ وتأخذ كل ما تريد، الأرز أو السمك، المزيد من الماء، شراب لاسي أو عصير الفاكهة..كان أودار يطوي يديه عادة تحت مائدة الطعام عندما لم يأكل، وأحياناً يضحك بصوت عالٍ ثم يصمت مرة أخرى، يتأمل ميدري بحنان ويحضرها في وقتٍ ما إلى فراشها.

كَفَتْ كلارا عن تحريك طبق السَّلطة وتذكرت أنه في بداية زيارتها لهم وبعد أن رحبوا بها بقي بريا وأودار صامتين، نظرا إلى تارون بفضول كأن الأمر متروك له لقيادة الحديث، ولكن بعد ذلك عندما جعلَ تارون بكلماته، التي لم تفهمها كلارا وبإيماءاته التي تفهمها هي جيداً، كلا من بريا وأودار وقبل كل شيء ميدري يضحكون ويتحدثون معه، تمكَّنَ من كسر حدة الصمت وأصبح الحديث أكثر مرونةً.

أخرجت كلارا الملعقة من الصلصة ووضعتها في حوض غسيل الصحون ثم وزعت الصحون على مائدة الطعام في المطبخ.

وبعد عودتها من كالكوتا آنذاك سألتها أمها كيف أعجبتها كالكوتا وقبل كل شيء عائلة تارون بالذات، وهل شعرت بالارتياح هناك؟ كان على كلارا التفكير في السؤال، إذ إن عبارة «شعرت بالارتياح» لا تنسجم في نظرها مع المدينة الحيوية المزدحمة، أما بالنسبة إلى أسرة تارون ــ وما إذا كانت شعرت بالارتياح معهم؟ فإنه من الناحية العاطفية، نعم بالتأكيد، إذ كانت هناك أجواء عائلية حميمية ممتعة في بيت بريا وأودار. ومع ذلك، فإنها بقيت بطبيعة الحال دائماً بعيدة عن الأجواء تلك مثل أي شخص غريب كونها لا تفهم لغتهم. لذا سألتها أمها فيما لو كانت تعتقد أن الأمر قد يكون مختلفاً لو كانت تجيد البنغالية. فأجابتها كلارا: «ربما»، ثم أضافت: «لا، سيكون الأمرُ مختلفاً بالتأكيد. إذ لو تمكنتُ من التحدث معهم لاندمجتُ بالتالي مع حياتهم العائلية». وفيما لو كانت مع ذلك تشعرُ بأنها غريبةٌ وتنظر إلى هؤلاء الناس ومجتمعهم من الخارج فقط ــ فهذه مسألةٌ أخرى تبادرت إلى ذهن كلارا وقتذاك لكنها لم تفصح عنها صراحةً. وللتغلب على هذه المسافة إزاءهم فإنها من المحتمل تحتاج إلى وقتٍ كافٍ لمعايشة جميع أفراد الأسرة والتحدث معهم بأحاديثَ تتجاوز السطحية، أحاديث تجعلها تشعرُ أن الآخرين يمكن أن يشاطروها وجهات نظرها، أفكارها وروح الدعابة لديها،

وهذا ما انطبق على ميدري، حسب ما تذكرته كلارا وابتسمت، إذ إنها ما احتاجت إلى استعمال الكلمات عندما لعبت مع ميدري في حديقة حيواناتها الخشبية ليشعرا بقرب بعضهما من البعض الآخر، بل تمكنت من خلال تعبيرات الوجه وإشارات الأصابع أن تُفهمها بأنها خائفةٌ من الأسد، تستغربُ الزرافات وتضحكُ على القردة.

وسألتها صديقتها بيتا إن كان تَوَلَّدَ لديها انطباع في كالكوتا بأن تارون كان هناك «شخصاً آخر»، إلا أن كلارا فندت ذلك قائلة: «كلا، إنه لم يكن هناك شخصٌ آخر، ولكن ربما كان يتصرف بشكلٍ مختلفٍ بما ينسجم مع المناسبة أو الناس، فظهرت جوانب أخرى من شخصيته، من ماضيه البنغالي، دوره كأخ أو ابن، ولكننا نعلم جميعاً أننا في العمل نقومُ أمام أصدقائنا بدورٍ مختلف عما هو أمام أفراد الأسرة، إلا أن تارون بقيَ ذاته تارون! تارون ذا الوجه الجميل المرسوم بدقة، ذلك الوجه اللافت للانتباه بين كل الوجوه الهندية وكذلك الأوربيةُ، وجهٌ ذو بشرة ناعمة تشعرك بنورها حتى في الظلام.

أمسكت كلارا بمنشفة المطبخ، تنهدت وأومأت برأسها بنفس الوقت. إنها تتنهد كما لو كانت امرأة عجوزاً! لكنها تعلم لماذا، فخلافها مع تارون ظهيرة اليوم ما زال يشغل تفكيرها. وكما أدركت في أثناء عودتها من المطعم فإنها بكل الأحوال لم تختلف مع تارون حول المسألة ذاتها خلافاً جاداً. بالتأكيد كان هناك شجارٌ كلامي بعض الشيء وحتى مناقشات ساخنة وتبادلٌ للحجج، ولكن أن يفترقا وهما متنازعان ـ فهذا ما كان جديداً عليهما. ففي معظم الأوقات كان الشيءُ المهمُ لكليهما، لا سيما بعد الخلافات العاطفية، هو أن يقترب أحدهما من الآخر ويجعله يشعرُ بحبهِ له ويرتضي معه. تماماً مثلما حدث ذات مرة قبيل زيارة تارون الأولى لوالديها عندما سألها عن الشيء المفضل لوالديها كهدية لهما، فأجابته بأن كتاباً عن الهندسة المعمارية، أو شيئاً عن تخصصه أو عن موطنه سيكون بالتأكيد ممتعاً لهما. وعليه عاد تارون عند المساء بمعية كتابٍ عن مخطط المدن والمهندس المعماري هيرمان يانسن صاحب الرأي الذي يقول: «ليس للبيت الواحد أن يكون مؤثراً، وإنما مجموعة البيوت»، فسألته كلارا حينها متفاجئة وليست متهكمة: «مهندسٌ معماريٌ ألماني وليس بنغالياً»؟، فأجابها تارون مندهشاً: «وماذا كنتِ تتوقعين؟ ففي النهاية أنا لست هندياً فقط».

عندما دخل تارون في الممر بعد مدة وجيزة أدركت كلارا من الطريقة التي استند بها إلى مدخل الباب كم هو مُتعَبٌ. «لم أكن اليوم في حالةٍ جيدة على الإطلاق». نظرت إليه كلارا وتساءلت إذا كانت هذه الجملة تريد أن تقول شيئاً عن شِجار الظهيرة، ثم أشارت إلى المائدة: «إذا أردت فبإمكاننا أن نأكل».

في أثناء تناولهما الطعام لم يتحدثا عن بريا أو شِجارهما، بل تحدثا عن الكركم في الزبادي وعن البرج. تحدث تارون عن محادثته مع مدير موقع البناء التي كانت على ما يبدو أكثر توتراً مما كان يتوقع، إذ قال منزعجاً: «ما فائدة ذلك إذا كان مدير الموقع ينقل إليّ حرفيا مبررات العمال الذين انطلقوا متأخرين أو وصولوا إلى موقع البناء بأحمالٍ خاطئة من البضائع، مثل زوجة أحدهم المريضة، رخصة تسليم خاطئة لدى الآخر، الاختناقات المرورية... (أياً كان السبب)، قلتُ له دائماً: إن وظيفته كمدير للموقع تكمنُ في أن يتأكد أن بناء الأسس ينبغي أن يستمر على رغم هذه المعوقات! ومن واجبه أيضاً أن يقترب المشروع من هدفه، وأن يتأكد أن العمل يتقدم وفقاً للخطة المرسومة له دون أي سوء فهم، غير أنه بدلاً من ذلك يكرر مرة أخرى ما يقوله الآخرون فقط ويدعو إلى التفهم والصبر، (يرفع تارون حاجبيه) يبدو أن «الصبر» كان كلمة تحفيزية. «وعندما أخبرني بعدها عَرَضاً بأن بعض الموردين الذين حسبنا حسابهم في الأسابيع القليلة المقبلة لم يُوفوا بالتزاماتهم بالشكل المتفق عليه وأرادوا وفقاً لطلبهم «تأخير التسليم» ـ سألتُ نفسي حينها كيف ينبغي لهذا أن يستمر هكذا..»، يبدو الآن تارون غير واثق أكثر بكونه منزعجاً وبدأت أصابعه تنقر على المائدة بتوتر.

«وإلامَ توصلتم»؟، سألت كلارا بحذر.

«غداً سأتحدث أولاً مع أندرياس حول المشكلة. لنتناول العشاء معاً، فأنتِ لديكِ عمل حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، أليس كذلك»؟.

أكدت كلارا ذلك بإيماءة منها.

بعد أن انتهيا من الطعام ذهبا إلى الفراش في وقتٍ مبكرٍ، قرأ كلاهما قليلاً ثم قبّلا بعضهما البعض الآخر بعد أن أطفآ الضوء. إلا أن تارون بدأ بحذرٍ أكثر قليلاً من المعتاد ولكن دون أن يتوقف، بل أصبح أكثر حماسةً ليصبح من ذلك أكثر من قبلة تنتهي أخيراً بأنفاسٍ مُرهقة فوق الغطاء. أما كلارا فإنها ما تزال مغمضةً، ممتدة على السرير، تداعبُ شعرها وتشعرُ بالارتياح. جميلٌ أن ترى كلارا أن تارون أيضاً لا يريد أن يعطي خلافُ الظهيرة الذي حدثَ اليوم القوةَ التي تقف حائلاً بينهما. حتى لو كانت تعلم أن خلافها في هذه المسألة لم يُحَلّ وأن تارون بقدر ما يتعلق الأمر به ربما ينتظر مثلها تماماً ليس إلا: معلوماتٍ من بريا عن قيمة المبلغ، إجابةٍ لسؤال كلارا عما إذا كان عرضها له ضرورياً على الإطلاق. ثم إن عدم ذكر تارون لها في رسالته إلى بريا قد يعني شيئاً ما، وربما لا يعني شيئاً أيضاً.

بعد ذلك حاولت كلارا بعينيها المغمضتين من تحت الغطاء أن تتخيل الأماكنَ والمشاهدَ التي ذكرها تارون في رسالته: الفناء خلف ورشة الأثاث، حفل زفاف راقص و«مطبخ الأم». تُرى هل يبدو مثل مطبخ بريا؟ لقد زارت والدا تارون لبعض الوقت في أثناء رحلتها ولكن دون أن ترى مطبخهما، هما أناس طيبون يرى المرءُ فيهم سنوات العمل الشاق، الأب بيديه المجعدتين، والأم بكتفيها المنحنيين ولكن بعينين يقظتين.

فزعت كلارا في الليل لأنها رأت بريا في الحلم وهي حاملٌ ترقصُ ليلاً حول موقدِ نار. وكان تارون يقف وسط جمعٍ من الناس، حاملاً على يده ميدري، ووجهه يتلألأ من النيران وكان يحرق بها بريا. ثم إنه كان ينادي بكلامٍ غير مفهوم، إلا أن ميدري كانت على ما يبدو تحب ذلك وتنظرُ إليه وتضحك وتسحب يده برتابة.

آمال

أخيراً رنَّ جرس الهاتف. حتى نوريج وضعت كتابها جانباً ونظرت إلى آمال.

«نعم، تفضل».

«راوية»؟.

«آمال»!.

«أين أنتِ يا راوية»؟.

«في البيت» قالت أمها، وفي تلك اللحظة رأتها آمال على شاشة الكمبيوتر.

«كيف حال جدتي»؟.

«حالتها ما زالت غير مستقرة».

«ماذا يعني ذلك»؟.

«ما زالت في العناية المركزة. وهناك اضطرابٌ في نشاط عضلة القلب، ثم إن نسبة سكر الدم غير جيدة، بالإضافة إلى أن لديها ارتفاعاً في ضغط الدم».

«لكنها ما زالت تتناول الأدوية لمعالجة ارتفاع ضغط الدم»؟.

«طبعاً، والأطباء يفعلون كل ما بوسعهم. ورئيس الأطباء يعرف محمود، حتى إنه يعرف أباك بالاسم وقد سألني عنه».

«أكان محمود في المستشفى»؟، سألتها آمال.

«نعم، الليلة الماضية. ويبعث لكِ بتحياته».

«ونهرين»؟ سألت آمال ثانية.

«بالطبع كانت هناك أيضاً، حتى إنها جلبت إليَّ الطعام معها».

«وبهذا ستزداد حالة جدتي سوءاً بالفعل»! تحاول آمال أن تمزح بشأن تصرفات نهرين حتى إن لم يستوجب ذلك الضحك.

فقالت لها راوية: «أنتِ تعرفين نهرين، فقد تحدثت إلى الأطباء بأنها كانت قد قرأت في مكان ما على شبكة الإنترنت بأن مرضى السكري الذين يمرون بأزمةٍ قلبية سيعانون بعدها كثيراً ثم يموتون بعدها جرّاء انخفاض نسبة السكر في الدم».

«وهذا ما تريد نهرين منعه عن عشتار» قالت آمال.

«بالضبط» ردت راوية.

«هل جدتي ــ »، الآن توقفت آمال وأرادت أن تسأل إن كانت الجدة في خطرٍ مميتٍ، ولكنها خشيت من السؤال: «هل جدتي في خطر»؟، هذه الصيغة التي قصدتها آمال.

«مثلما قلت، إن حالتها ما زالت غير مستقرة» ردت راوية وأضافت: «لكن الأطباء يأملون أن تتحسن حالتها في الأيام القليلة المقبلة. على الأقل لأنها ما استاءت في الساعات الاثنتي عشر الماضية».

«يؤسفني أنني لست معكم»، قالت آمال ذلك بعد لحظة صمت.

«أنا سعيدة جداً لأنكِ في ألمانيا، في أمان»، أجابت راوية على الفور، بينما امتنعت آمال عن ربط ذلك بمنظور الأمان، لأنها تعلم أنه لو كان الظرفُ طبيعياً ومناسباً فإن سؤال راوية التالي سيكون عن الموعد المتوقع للحصول على قرار اللجوء، ولأنها لا تعلم المزيد عن هذا، شأنها في ذلك شأن راوية، قالت بسرعة: «أعطي الجدة قبلةً مني وقولي لها بأنني سأزور بوابة عشتار في غضون أيامٍ قليلة».

«بوابة عشتار في برلين؟ في متحف العصر الإمبراطوري»؟ سألتها راوية فجأة بنبرة صوت عالمة الآثار المهتمة بذلك.

«نعم، بالضبط. سألتقي هناك ــ تتوقف آمال لحظة ــ بكلارا».

«هذا جيد»، ردت راوية، «أنا متشوقة لتقريركِ عنها. هل يمكنكِ التقاط بعض الصور»؟.

ردت آمال بأن ذلك قد يكون ممكناً، إذ إن كلارا تملك بالتأكيد نقالاً مزوداً بالكاميرا: «سأسأل كلارا. ربما سنتمكن من إرسال صورةٍ إليكِ مباشرة من المتحف».

«يسرني ذلك، ولكن ليس ضرورياً».

كلتاهما تعلم أنهما تريدان إنهاء الحديث عند هذه النقطة، وأنه ينبغي لهما إنهاءه عند هذه الصورة كي لا تغرقا بعد إنهاء المكالمة مباشرة في شعور العجز والحزن على الفراق. إن نقطة الختام تلك تبدو لآمال غير مناسبة بسبب الحالة الحَرِجة التي توجد فيها الجدة عشتار.

«عِديني يا راوية بأنك ستتصلين بي في حال حدوث تغييرٍ في حالة الجدة، اتفقنا»؟.

راوية وعدتها بذلك ثم أخبرتها بأن عليها أن تذهب لتتفقد القِدر على الطباخ وودعتها بسرعة.

أنصتت نوريج طيلة الوقت إليها، رفعت ذراعها الآن ومدت يدها نحو آمال، وتعني بذلك عرضاً أجابت عنه آمال بابتسامة. نسيت آمال في هذه الأثناء أن نوريج التي تتعلم معها اللغة العربية الفصحى تفهم أيضاً اللهجةَ العربية البغدادية لأن والدها ينحدرُ من الجزيرة، أي من شمال شرق سوريا، حيث قضت نوريج الكثير من عطلها الصيفية في بيت أجدادها هناك.

«قلبكِ هناك وأقدامكِ هنا»، قالت نوريج هذا بصوتٍ منخفض. أذهلتْ آمال تلك الجملة، ليس لأنها تصفُ حالتها، وإنما لأنها تتحدث عن الأقدام، فتوجب على آمال أن تفكر في الحال في أقدام نوريج، الأقدام الضعيفة المملوءة بالنُّدب جراء التعذيب بالضرب في السوط المطاطي السميك في سجن دمشق العسكري بحيث إنها ما زالت تحرقها من شدة الألم. تلك الأقدام ذاتها اقتربت من آمال الآن وجلست بجانبها على سريرها وقالت: «إنكِ تتساءلين لماذا أنتِ هنا؟ وبالتأكيد إن أولئك الذين تفتقدينهم هم أنفسهم فرِحين بوجودكِ هنا، إنهم أرادوا أن تذهبي عنهم ولم يجدوا ذلك أمراً سيئاً، حتى وإنْ بدا المهجر أحياناً (تأخذ نوريج نفساً عميقاً) غريباً، بل وخاطئاً».

حدَّقت آمال إلى أقدام نوريج وصمتت.

«إن جميع الأسباب الجيدة لوجودك هنا مثل الخوف، الذل، الآلام، ولا ننسَ الآمال المعلقة على أوروبا، على ألمانيا، بلدِ القوانين التي تحميكِ بدلاً من أن تسخر منكِ، كل هذه الحُجج ساعدت على هروبكِ، منحتكِ القوة، صنعت الشجاعة لديك، ومع ذلك (تلعثمت نوريج) يصعب علينا أحياناً الوثوق بها. إنها تمزقك لتكوني هنا وليس مع أولئك الذي تحبين. إنكِ تخجلين لأنكِ لا تستطيعي فعل شيء، لا تحتجين ولا تقدمين المساعدة».

راقبت آمال شفاه نوريج بخوف، إذ لم يسبق لها أن سمعت جارتها في الغرفة تتحدث هكذا.

بعدها أضافت نوريج: «وأحيانا تسألين نفسك كيف سيكون الحال لو لم تكوني قد هربتِ».

«ربما تكونين الآن ميتة بالفعل» صاحت آمال وهي تنظرُ إلى نوريج.

أومأت نوريج برأسها: «ربما، بل احتمال. وربما لا، فأنت ما تزالين على قيد الحياة. وبعد ذلك»؟ التفتت نوريج إلى آمال ونظرت إليها كأنها تعلمُ الجواب.

وتذكرت آمال: «ثم يعذبك السؤال إن كان ينبغي لكِ الابتعاد والرحيل».

أومأت نوريج برأسها ثانيةً: «بالضبط. إنَّ ما تفعلينه أنت هو أيضاً غير صحيح تماماً». سكتتْ نوريج وشعرت آمال بالحاجة إلى معانقتها ورفعت ذراعيها حينما صاحت نوريج فجأة: «وهم يعلمون ذلك، فهو جزءٌ من مخططهم، إنهم يريدون أن يرهقوكِ، أن تعذبي نفسكِ».

رجعت آمال إلى الوراء مستغربةً مرةً ثانية من موقف نوريج ونبرة صوتها الحازمة الآن، إذ إن نوريج لم تتحدث عن «وقتها آنذاك» «كمعارضة» سوى مرة واحدة فقط. كمعارضة تكمن جريمتها في أنه كان يوجد على نافذة مكتبتها لبيع الكتب ملصقات تدعو إلى التظاهر في مركز دمشق. «في المرة الأولى جاؤوا إلى مكتبتي وأجبروني على إزالتها. وفي المرة الثانية عندما لم تكن الملصقات والقصاصات على نافذة المكتبة وإنما مُعلقة في داخلها على لوحة الإعلانات مزّقوا بأنفسهم كل شيء ورموا الكتب من على الرفوف، وسألوني إن كنتُ أبيع «قاذورات دينية» أيضاً، لكنني أنكرتُ ذلك. وفي المرة الثالثة لا بد أنهم لاحقوني. وعندما وصلت الاعتقالات في وقتٍ لاحق مكتبتنا وكنتُ أنا أول من أودِعَ في مقر الاعتقالات نادانى أحد معارفي وأبلغني بأنه كان يشعر بالفعل بأن شخصاً ما كان يتبعني في طريقي إلى الاجتماع..»، كل هذا قالته لها نوريج في أول مرة بعد يوم من وصولها إلى السكن ثم التزمت الصمتَ بعدها، ولغاية اليوم، إلى أن كسر طوق صمتها خوف آمال على صحة عشتار. بل وأكثر من ذلك، فمنذ المرة الأولى التي تعَّرفت فيها آمال إلى نوريج شعرت أنه في تلك المرتجفة دوماً التي تعاني من الكوابيس ولا تنام إلا بوضع القرفصاء تكمنُ المرأة التي كانت عليها نوريج ذات يوم في السابق: امرأة واثقة بنفسها ومعتدة بها. تملكُ مكتبةً لبيع الكتب وهي ما زالت في الثامنة والعشرين من العمر، «وتم سداد القرض تقريباً». هذه هي نوريج التي تطبع المنشورات وتسوق العجلة، إنها المرأة التي كانت آنذاك يانعة الصدر وحليقة الشعر. «إنَّ والديَّ غير متدينين ولكن هذا الرأس «شبه الأقرع»، كما تسميه والدتي، كان شيئاً مبالغاً فيه بالنسبة إليهم».

التفتت نوريج إلى آمال ونظرت إلى عينها وقالت بجِد: «أعتقد أن مواصلة الحياة تكون الآن ممكنة فقط عند كسر المألوف. بالتأكيد إنكِ لا تستطيعين نسيان كل شيء ولا ينبغي لكِ هذا، وقد ينبغي لك»، تشنجت عضلات فم نوريج التي وجهت نظرها صوب الشباك وقالت: «عليكِ أن تتمكني من ذلك وأن تتحرري من صور الماضي، عليكِ أن تتعلمي أن تري نفسكِ بمفردكِ في ملابسَ أخرى وتحت ضوء آخر: أنت هنا في المروج بين هذه الأشجار»، أشارت نوريج إلى النافذة، أومأت إلى آمال مشجعةً كلتيهما، ثم نهضتْ وغادرت الغرفة.

كم هو غريبٌ الصمتُ المفاجئ. نظرت آمال إلى نوريج، إذ بقيت كلماتها الأخيرة ترِنُّ في أذنيها بشكلٍ غير عادي، كلماتٌ لها وقع شافٍ بطريقة أو بأخرى. إن ما وصفته نوريج بـ«التحرر» من الماضي يمكن أن يكون تمريناً جيداً للزرافة: فكّري في بيت والديكِ، حسناً، هلّ ترين نفسك الآن على عتبة الدار؟ نعم، حسناً، والآن يمكنكِ الخروج من الماضي كما الخروج من الصورة، من الكواليس، انتبهي، أولاً بقدمكِ اليسرى... أومأتْ آمالُ برأسها كعادتها، نهضت من فراشها، ذهبت صوب النافذة ولكن لم تستطع رؤية نوريج في الخارج بين الأشجار.

على شاشة كمبيوتر كلارا كانت توجد شهبٌ وماسٌّ تتوسط الصورة. تبادرَ إلى ذهن آمال أن تتصل على نهرين لكنها قررت بعد وقت قصير عكس ذلك، إذ بالتأكيد إن نهرين الآن مشغولةٌ في مكتبها القانوني أو بالتحدث مع أحد عملائها. انصرفت عيون آمال نحو جزء الغرفة الخاص بنوريج لترى ما إذا كانت أشياءُ نوريج الشخصية تبدو بحلةٍ جديدة بعد حديثهما معاً. وعندما وقع نظرها على الكتاب السميك بغلافه العلوي الأزرق الذي ما يزال مفتوحاً على بطانية نوريج شعرت آمال بفضول أصابعها نحوه، إذ إنه استفزها لتتناوله وترفع غلافه، لتتصفحه وتعرف ما تقرأه نوريج فيه. اقتربت آمال من السرير وترددت. ألا ينبغي لها أن تستأذن نوريج أولاً؟ ألن يكون هذا أكثر تهذيباً؟ نعم أكثر تهذيباً، ظنت آمال، ولكن حتى وإن لم تحصل على إذنٍ منها فإن نوريج ستغفر لها بالتأكيد فضولها، لا سيما بعد حديثهما، وعليه قررت آمال أن تمسك بالكتاب وتقلب غلافه. كان ثقيلاً عليها وهي تعود به إلى مقدمته، إلى صفحة العنوان الأولى عندما قلبت الصفحة المفتوحة بإصبعها الأوسط بحذر. إنه يضم حكايات ألف ليلة وليلة، طبعة عربية من دمشق طُبعت في نهاية القرن الماضي. رأت آمال على الصفحة الأولى من الغلاف ختماً يحملُ عنوان مكتبة عامة في بوتسدام. وعلى الرغم من عمره فإن الكتاب يبدو نوعاً ما كأنه غير مُستخدَم، غير أن أصابع المتصفحين تركت في أسفل يسار الصفحات فقط بقعاً رمادية اللون. بدأت آمال أيضاً بقراءة الكتاب حتى صادفتها أسماء مثل الجن، أو جن القناني، أو جلنار البحر وقصصهم التي تعرفها آمال مسبقاً من حكايات جدتها، إذ كانت عشتار في كثير من الأحيان بعد الظهر في الحديقة عندما يكون الطقس حاراً جداً للقيام بأي شيء آخر تحكي لها حكايةً أو قصةً خرافية من ألف ليلة وليلة دون أن تتوقف في اللحظات الأكثر إثارة، بخلاف ما تفعله شهرزاد في الكتاب. ربما لم تكن آمال قادرةً على تحمل ذلك، فالقصص كانت مؤثرة جداً وملأتها بالإثارة والرعب. رفعت آمال رأسها وتذكرت تماماً ما كانت تفكر به في أثناء استماعها إلى القصص: بأنه عالمٌ مملوءٌ بالعجائب والنساء الجميلات والحُكّام القُساة المخيفين...

لم تدرك آمال مصدر الضوضاء إلا عندما دخلت نوريج الغرفة، التفتت نحو الباب واحمرَّ وجهها خجلاً عندما رأت نوريج في وجهها: «اعذريني، (لم تعلم ماذا تقول) أنا آسفة يا نوريج، كنتُ فضوليةً بعد حديثنا ــ » (هنا رفعت نوريج يدها وأشارت): «لا يهم»، قالت ذلك وابتسمت أيضاً: «لقد فكرتُ بالفعل في الوقت الذي ستسألينني فيه عن هذا هنا»، وأشارت إلى الكتاب.

ابتسمت آمال ثانية، فكلمات نوريج أراحتها كثيراً. «من دمشق»، قالت آمال ذلك ورَبّتت على صفحة عنوان الكتاب.

أومأت لها نوريج: «كانت هذه النسخة موجودة في مكتبتي ولكني لم أقرأها في سوريا قط. لم أهتم بها في السابق وقلتُ: لماذا أقرأ اليوم شيئاً من هذا القبيل، عن تخيلات الرجال وقصص عالم آخر، عالم يغتصبُ فيه الرجال ما يلذ لهم من النساء ثم يقتلونهن. عالمٌ، كما اعتقدتُ آنذاك، لا تستطيع النساء فيه إنقاذ أنفسهن إلا بعد أن يخدعن المغتصِب بألعاب الحبّ المسلية..»، مَسحتْ نوريج على رأسها وشعرها القصير، «ولكن عندما بدأتُ بقراءة الكتاب وجدتُ أن هناك شهرزاد أخرى غير تلك التي عرفتها ــ في الأقل من الصور فقط. اكتشفتُ امرأةً غامرت بحياتها طوعاً من أجل إنهاء عمليات القتل في بلدها. امرأة لا تنجو بنفسها واثقةً بأنها تستطيع أن تتجنب العديد من العذريات الأخريات كهؤلاء اللواتي بدلاً من أن يغتصبهن الملك ليلة بعد أخرى ويقتلهن في صباح اليوم التالي». بينما التقطت نوريج أنفاسها كانت تنصتُ آمال إليها باهتمام، ثم قالت: «إنَّ شهرزاد ترى القفص الذي تعيش فيه جيداً وتحاول تحطيمه بالقصص وبذكائها الاستراتيجي».

نظرت نوريج إلى آمال وقالت: «أتعلمين، إن المهم هنا هو ليس كيف تهزُّ شهرزاد الجميلة نهديها أو وركها، وإنما كيف تجادل وتبني قصصها: كل قصة تُنسَجُ من الأخرى دون أن تفقد عنصر التشويق أبداً، وتستمرُّ دون أن تكون لها نهاية»، أوضحت نوريج ذلك وأشارت بيديها إلى نهرٍ متعرج يصبُّ بعيداً، وقالت: «ولأنها تثقُ بنفسها وبإمكانياتها كانت لديها المقدرة على تشويق الملك وترويضه في مرور الوقت (وهنا تبحثُ نوريج عن الكلمةِ الصحيحة)، وكما نقول اليوم: لجعله حضرياً».

إن آمال لا تعلم ماذا تقول. بالتأكيد إنها تعرف شهرزاد جيداً، وتعرف الإطار القصصي للقصص المتسلسلة، ولكنها في نهاية المطاف تعرف عنها فقط ما كانت نوريج تعتقد سابقاً بأنها تعرفه عنها.

أردفت نوريج قائلة: «لا يزال العالم قاسياً وذكورياً بشكلٍ صارم. ومع ذلك تحاول شهرزاد ألا تكون ضحية له بأية حالٍ من الأحوال، إذ تتمرد على التقاليدِ السائدة وتفضل الموت على أن تصبح ضحية. (توقفت نوريج ثم ابتسمت وقالت): وبهذا تنتصر شهرزاد وتنقذ نفسها والنساء الأخريات».

سكتت نوريج وكذلك آمال. وبسرعةٍ يخطر في ذهن آمال سؤال عن كيفية انسجام إعجاب نوريج بشهرزاد مع مطلبها مسبقاً في أن يتحرر المرء من الماضي كي يستطيع العيش ــ لأنه ألم تتمسك نوريج بالماضي، بقصة من ثقافتها وطفولتها؟ حتى لو أن نوريج ترى شهرزاد هنا في المنفى بعيونٍ جديدة، فكم يتلاءم هذا مع مطلبها بأن يتخلى

المرء عن كل ما حدث في السابق، في أن يتخلى عن «صور الماضي»، نعم، من أجل ماذا؟ من أجل أن يصبح حراً؟ إنه مطلبٌ ما تزال آمال لم تفهمه، غير أن التفكير في الجَدة وراوية يمنحها قوةً أكثر من أي شيء آخر. أشارت نوريج إلى الكتاب وأوضحت: «عندما أنتهي منه سأستطيع إعارته لكِ إن كنتِ ترغبين في ذلك».

وافقت آمال، أعطت نوريج الكتاب الثقيل وأجابتها: «شكراً لكِ. هذا لطف منكِ. شكراً لكِ على..». (تلعثمت آمال وابتسمتا معاً).

«على الرحب والسعة»، أجابتها نوريج.

كلارا

لقد تفاجأت كلارا لعرض تارون لها بأن يصحبها اليوم من المستشفى، وإن لم يكن ذلك استثنائياً. ففي السابق كان تارون ينتظرها غالباً بعد دوامها المسائي ويذهبان لتناول الطعام معاً وأحياناً إلى السينما، إلا أن هذه الطقوس أصبحت في الأشهر القليلة الماضية فقط نادرةً بينهما.

بعد حلول الغسق بوقت قصير تلألأت المصابيح على أرصفة الشوارع في الخارج ووقفت كلارا تنظرُ مُنهكةً عبر نافذة صالة الجلوس وبيدها كوبٌ من الماء حتى اقتربت الممرضة ميكي من ورائها وقالت لها مبتسمةً: «عمَّن تبحثين»؟.

ابتسمت كلارا لها وأومأت برأسها متعبةً، فهي تتودد لميكي وتعلم أنها لن تصدقها.

سألتها ميكي ثانيةً: «هل تأملتِ الأشجار»؟، فأجابت كلارا: «بالضبط. سألتُ نفسي ماذا لو كنتُ شجرةً والطيور تزقزق على أغصاني وأنا جوفاء من الداخل».

«حسناً، وهناك من لا يحتاج إلى أن يكون شجرةً»، قالت ميكي وغمزت إلى كلارا كأنها تريد أن توضح لها بأن كلارا بالتأكيد لا تنتمي إلى تلك المجموعة من الناس.

أسرعت ميكي نحو الرف، أخذت قلماً من الحافظة المركونة على الرف ووضعته في جيب صدر ردائها وسألتها: «ماذا بشأن المرأة المسنّة يوم أمس؟ هل اجتازت أزمتها»؟.

أومأت كلارا برأسها لتجعل ميكي التي كانت أمس معها عند إنعاش هذه المرأة مسرورة لهذا الخبر وأجابتها: «إنها في العناية المركزة»، فرفعت ميكي لها إصبع الإبهام مسرورةً.

إن رؤيته وهو ينتظرها من دون أن يتنبه هو إلى وجودها مسبقاً، لتعلم بأنه هنا من أجل أن ينتظرها وليس من قبيل الصدفة، وبأنه ربما لن يعرف المكان هذا إن لم يكن كلاهما زوجين ـ فهل هذا هو ما يشحن {وينعش} الوضع الممل بينهما مراراً وتكراراً ويمنحه هالةً مميزةً؟ إن كلارا تعتقدُ أن الأمر ليس سيِّان بين أن يلتقيا في شقتها مساءً، أو أن تُفتَح الأبواب الأوتوماتيكية أمامها ويكشف صريرها عن مجيء تارون حاملاً الزهور بيده إليها، كما هي تراه الآن يجيءُ نحوها بخطى سريعةٍ وهو يحمي الزهورَ من الرياح.

«إنها لكِ»، قال لها وهو يعطيها الباقة، باقة من ورود الربيع، شقائق النعمان والزنبق الأزرق ذي الرائحة العطرة.

تفاجأت كلارا وشكرته دون أن تسأله عن مناسبة الزهور بل بدلاً من ذلك اقترحت أن يسيرا معاً بعض الشيء «في هذا المساء». عندما غادرا المستشفى وهما يتأبّطان ذراعيهما معاً، شعرتْ كلارا بأن ميكي تنظرُ إليها من النافذة، أو لعل هذا ليس شعوراً وإنما أمنيّة.

ما زالت كلارا تفكر في كيفية التحدث مع بريا عندما تطرّق تارون من نفسه إلى ذلك الموضوع وأخبرها بأن بريا أجابته وذكرت له المبلغ المطلوب. وعليه ذكر لها تارون المبلغ موضِّحاً بأنه لن تكون هناك مشكلة لديه إنْ تَحَمَّلَ هو تكاليف عملية المولود الجديد وإقامة بريا في المستشفى. وأضافَ أنه في حال وجوب زيادة التكاليف بسبب تعقيداتٍ غير متوقعة فإنه اتصل مسبقاً بالبنك، والذي أكدَّ له الجدارة الائتمانية لحسابه، بل وأكثر من ذلك فقد شجعه على الاتصال بهم عند الضرورة.

وهنا توقفت كلارا محاولةً أن تفهم: بأن هذا يعني أن تارون قد اتخذ قراره باللجوء إلى البنك وليس إليها في حال اقتراضه مالاً من أجل أخته.

أكمل تارون قوله: «أتعلمين أنني قررتُ فتح حساب بنكيٍّ في كالكوتا أيضاً ليتمكن والديَّ وبريا من اللجوء إليه عند الحاجة. فإن احتاج والداي إلى دعم منتظم في أثناء السنوات القليلة المقبلة أو في حال مَرِضَ أحدهم فإنه سيكون من السهل عليهم اللجوء إليه. ويمكنني ترتيب هذا في زيارتي القادمة لأنه مثلما يبدو (توقفَ تارونُ) سوف أُضطر إلى الذهاب بكل الأحوال في الأسبوع المقبل إلى موقع البناء في هاورا لتمثيل مكتبنا في اجتماعٍ مهمٍّ مع العملاء».

«ستسافر إلى كالكوتا»؟ سألت كلارا بدهشة.

أومأ لها تارون برأسه: «هناك أشياءُ بحاجةٍ إلى توضيح لا يمكن تأخيرها، إذ إن مدير الموقع، كما قلت، لديه مشكلاتٍ في موقع البناء وعليَّ أنا أن أتولاها. فضلاً عن ذلك فإن حكومة البنغال، مانحنا المالي المعتمد، طلبت بشكل غير متوقع تقريراً مؤقتاً. أندرياس وأنا لا نعرف تماماً لماذا طُلب التقرير الآن بالذات، إذ إنه في الواقع قد خُطِّط للتقارير السنوية العادية فقط، ولكن علينا الآن التصرف بسرعة فالاجتماع سيُعقد في الجمعة المقبلة، لذا ربما أسافر في يوم الأربعاء».

«هل تعتقد أن التقرير المطلوب له علاقة بالوضع في موقع البناء»؟، سألته كلارا.

أومأ تارون قائلاً: «لا أعتقد ذلك، فهما عالمان منفصلان بعضهما عن البعض الآخر. ثم إن مدير الموقع ليس جهةَ اتصال رسمية مع الحكومة، وإنما أندرياس وأنا. ربما يرتبط التقرير أكثر بالانتخابات المقبلة للعام المقبل التي تستعد لها الأحزاب الكبرى بالفعل، وما البرج إلا مشروع هيبة لحكومة البلدة ويرتبط مع كونغرس ترينامول للحزب البنغالي الحاكم»، قال تارون ذلك وهو يبتسمُ ثم واصلَ حديثه: «ربما يريد عملاؤنا ببساطة إيجاد عمل لقسم العلاقات العامة لديهم ليس إلا، لأن الشيء الآخر الذي أردت قولهُ لكِ كانت قد قرأته حكومة البلدة بالتأكيد»!، سحب تارون مسروراً ورقةً من جيب معطفه: «انظري كلارا، اليوم نُشِرَ مقالٌ في صحيفة بنغالية كبيرة عن برجنا. مقالةٌ مُبهجة! إنها تدور حول تطوير حيٍّ في هاورا، لكنها تدور في الأساس حول مشروعنا»، أوضحَ تارون ذلك وكشفَ الورقة: «لديَّ نسخة منها أردت إعطاءها لكِ عند الطعام لتتمكني في الأقل من رؤية حجم المقال والصور».

أومأت كلارا برأسها ورأت كيف أن تارون يمرر إصبعه على النسخة غير الملونة التي لم تستطع رؤية محتوياتها إلا بشكلٍ غامضٍ في الضوء الخافت لمصباح الشارع.

عانقته كلارا قائلةً: «تهانينا»، وضمت وجهها في معطفها بشدة.

استمرا بالسير معاً، أمسكَ تارون بخصرها بإحكام وأحصى المطاعم المتاحة أمامهما من أجل الاختيار بينها، في حين كانت كلارا تتصارع مع ذاتها بصمت. لماذا لا تستطيع أن تشارك تارون فرحته؟ هل بسبب موضوع النقود؟ نعم، إنَّ كلارا تعلم ذلك وليس من المنطقي تجاهله، إذ إن قرار تارون في اقتراض النقود من البنك عند

الضرورة لولادة بريا قد أغضبها. لقد غضبت من ذلك لأنها لا تفهم لماذا تارون عنيدٌ هكذا في هذا الموضوع، لا سيما وأنه بخلاف ذلك يستجيب دائماً بحكمةٍ وانفتاحٍ إلى الحجج السليمة. ثم إنَّ ما يزعج كلارا أكثر هو أن الأمر يبدو طبيعياً إلى تارون في أن يبعد كلارا عنه عند اتخاذه لقرارات كهذه، ويواجهها بالأمر الواقع ويضع لها حدوداً لا تستطيع اجتيازها ولا مناقشتها معه، بل يجب عليها تقبلها فقط.

قررَ كلاهما الذهاب إلى مطعم إيطالي صغير يجذب بطاولاته الثنائية وأضواء شموعه المتناثرة قبل كل شيء الأزواج المتحابين. على الرغم من أنه ينبغي لتارون العمل يوم غد فإنه طلبَ زجاجةً كاملةً من النبيذ الأحمر المفضل لدى كلارا، وفيما هما ينتظران وجبة الطعام وضعَ نسخة الصحيفة على المنضدة وقال:

«يذكرُ النص هنا وهناك حواراً معي. ربما تتذكرين عندما أخبرتكِ قبل أسابيع بأن صحفية من كالكوتا اتصلت عليَّ في مكتبي وأجرت حواراً معي؟ وبقدر ما يتعلق الأمر بي فإن النص خَطَّ بفرشاة بوليوود بحجمٍ أكبر من اللازم نوعاً ما المقولة: صبي الإسكافي يذهب إلى الخارج ويعود إلى وطنه كنجم معماري» ــ ضحك تارون رافعاً يديه، كما لو كان يرفض ذلك الخيال.

«أليس هذا صحيحاً»؟ سألت كلارا.

«كلا! أنا لست نجماً، أنا مهندسٌ معماريٌ يصمم لأول مرة مشروعاً كبيراً ويحاول تنفيذه» قال تارون ذلك وهو يمرر يده في شعره الأسود الكثيف، «ثم إن ما هو مكتوب بشأن دوافعي غير متطابق مع الحقيقة».

«إلى أي مدًى لا ينسجمُ مع الحقيقة»؟ أرادت كلارا أن تعرف.

«حسناً، يبدو من النص كأنني كنتُ دائماً أتفوق على الجميع: زملائي التلاميذ، أصدقائي في النادي الرياضي، وبعد ذلك على زملائي الطلبة. لم يكن يهمني أبداً أن أكون أنا الأفضل في كل مكان، وإنما ببساطة أن أحصل على الفرص من خلال الإنجازات الجيدة التي ما كنت لأحصل عليها مع أصْلِي، مثل: التعليم المدرسي الجيد، الدراسة فيما بعد في الخارج، ثم العمل مع أول صاحب عمل يعرف ملف شهادتي وليس طائفتي... أتفهمين ذلك»؟.

وهنا بحثَ تارون عن نظرات كلارا، فأومأت كلارا له. أكمل تارون بصوتٍ هادئ: «لم أحلم بالفوز وإنما بالحرية، أردتُ أن أسافر وأتعرف إلى مجتمعاتٍ أخرى، أردتُ أن أكون واحداً من الطلبة الأجانب، وليس ذلك الرياضي الطويل ذا المنحة الدراسية. أليس هذا مفهوماً»؟.

«نعم، مفهوم» ردت كلارا، إذ إن كل شيء معلومٌ لديها وما من جديد فيه.

يحاول تارون بحركةٍ سريعة تنحية هذا الجزء من المقالة جانباً، وبدلاً من ذلك يربتُ بإصبعه على العمود الأوسط من النص: «المهم هنا هو أن الصحفية أدركت بالضبط ما الهدف من برجنا: من أجل الشفافية والنفاذية، ومن أجل مركزية الحي عند فتحه في الوقت ذاته على الاتجاهات جميعها. وهذه، على الرغم من عدم وضوح شيء للعيان حتى الآن (ضحك تارون وأشار إلى الصورة في الجزء العلوي الأيمن بجانب المقال، إذ تُظهر الأقمار الصناعية صورةً عن الحفريات المستخرجة)، إنها حفرة بنية تقع بين نهر «هوجلي» وعددٍ كبير من الهياكل الخرسانية الكثيفة تتخللها السكك والشوارع».

وتابعَ تارون القول: «وفيما يتعلق بالأعمال الداخلية للبرج فإن المقال يتحدث عن «عدّاد جيجر للعمال البنغال»، إنه مصطلحٌ جميل، أليس كذلك»؟.

أومأت كلارا وأوضحت له إن كان المصطلح هذا يشير إلى المكتبة و«قاعة الهدوء» في الجزء العلوي تحت السقف.

رفعَ تارون منكبيه: «ربما ــ وهنا أشار إلى مقطعٍ آخر ــ ، فضلاً عن ذلك فإن النص يوضّح أيضاً إلى أي مدى تعتمد الهندسة المعمارية، البناء المستدير، على تقاليد الطراز البنغالية».

بجوار أصابع تارون اكتشفت كلارا الآن صورةً صغيرة لمخطط معبدٍ من العصور الوسطى كان تارون قد عرضه في شرحٍ قدمه في كالكوتا وصاحت فجأةً وهي تُشير إلى المخطط: «هذا هو معبد كانتاجي». ابتسم تارون وقال بهدوء: «ما زلتِ تتذكرينه»، أخذ يدها وشبك أصابعه بأصابعها.

«بالطبع» أجابت كلارا، وصمتا لبرهةٍ.

أردف تارون قائلاً: «للأسف إنكِ لن تتمكني من المجيء معي. ففي عطلة نهاية الأسبوع بعد الاجتماع سأزور والديَّ وبريا لأرى ميدري. أنا واثقٌ بأن ميدري تود رؤيتكِ ثانيةً».

سمعت كلارا الحميمية في صوت تارون وشعرتْ بصدق أسفه لعدم زيارتهما معاً عائلته هذه المرة، ولمستْ حنانه بصورةٍ غريبة، إنَّ شيئاً ما بداخلها يمزقها، غضباً يغلي فجأة بداخلها جعلها تتساءل: لماذا تارون واثقٌ هكذا بأنني لا أستطيع مرافقته حتى دون أن يسألني عن ذلك من قبل؟ هل قرر هو ذلك بالفعل؟ بالتأكيد إن قدومها معه ليس بالأمر السهل، إذ إن جدول عملها مثبتٌ مسبقاً لشهور ومن الصعب الحصول على بديلٍ لأكثر من يوم واحد، ولكن هناك دائماً استثناءات ومن الممكن أن يحصل المرء عند الضرورة على إجازةٍ مرضية لمدة قصيرة، أليس كذلك؟ مَن قال إنه يمكن الاعتماد عليها دائماً وأن تظل بمكانها يَقِظةً مستعدةً هكذا؟

وعليه سألته بحدة: «تارون، ما الذي يجعلك متأكداً هكذا أنني لا أستطيع أن آتي معك الأسبوع المقبل، وأنت حتى لم تسألني عن ذلك»؟.

نظرَ تارون إليها مستغرباً.

«إذا كنتَ تعتقد أنه من المؤسف أنني لا أستطيع أن أكون هناك، فكان يمكنكَ أن تسألني قبلها إن كان فعلاً من غير الممكن أن آتي معك بدلاً من أن تواجهني بالأمر الواقع».

ما زال تارون مستغرباً: «ولكن» ــ تمتمَ تارون ــ «الأسبوع المقبل ــ هو أسبوع عملٍ مهني، بخلاف عطلة نهاية الأسبوع التي مع ذلك يتوجبُ عليَّ العمل فيها أيضاً، وسأعود مطلع الأسبوع، وهذا غير ممكنٌ لكِ في وقت قصير كهذا، أليس كذلك»؟، يبدو من صوته أنه غير واثق بما يقول.

«لن يكون الأمرُ سهلاً» ردت كلارا في حين أدت حيرة تارون ويده المرتبكة وفمه المفتوح المتَرَقّب إلى أن تُنهي كلارا هذا الموضوع باختصار: «في الحقيقة بشكلٍ عفوي هكذا ستكون رحلتي معقدةً جداً وغير ممكنة بالتأكيد، ولكن غير مثالية أيضاً».

أغلقَ تارون فمه وبدأت كلارا تتحدث عن ميكي في المستشفى وعن المرأة العجوز التي أوشكت أن تموت يوم أمس، وزيارتها المرتقبة غداً إلى متحف بيرغامون:

«أنا متشوقة جداً إلى معرفة رد فعل آمال عندما سترى بوابة عشتار الأصلية في المتحف هنا في برلين بعد أن كانت ذات مرة في بلدها».

«أنا كذلك»، قال تارون بنبرةٍ جافة: «عندما زرتُ المتحف البريطاني في لندن للمرة الأولى صُدمت تماماً، فكنتُ أعرف مسبقاً أن البريطانيين قد جهزوا إمبراطوريتهم بأكملها بشكل منهجي باستخدام ميلٍ عكست للكلاسيكية الجديدة وفيما بعد للقوطية الجديدة أيضاً، ولكن أن ينقلوا بعد ذلك الكنوز الفنية من أنحاء العالم جميعها إلى جزيرة الملك على مدى قرون فهذا ما لم أكُن أعرفه إلا بعد زيارتي الأولى إلى متحف لندن من خلال تأمل الممرات الطويلة ذات العارضات الزجاجية وحوافظ المعروضات».

صمتت كلارا ثم قالت: «إن والدة آمال عالمة آثار في العراق»، فابتسم تارون: «هذا جيد، لأنه بالتأكيد سيكون الأمرُ محيراً وليس عادياً فقط. فكل عالم آثار، إن كان هندياً أو عراقياً، سوف يؤكد لكِ بأن هناك عدداً قليلاً من البلدان في القرن التاسع عشر كان لديها الخبرة والموارد اللازمة للقيام بتنقيباتٍ أثرية وترميماتٍ مسؤولة، بل السؤال هو بالأحرى ـ يعدُّل تارون جلسته ـ : كيف يُتَعامَل اليوم مع آلاف القطع الثمينة جداً في الغالب التي حُصل عليها آنذاك بطريقةٍ مريبة أو بطريقةٍ لا يمكن معالجتها بعد، أو سُرقت ببساطة».

رأت آمال مزهرياتٍ مزخرفة وأغطيةَ رأسٍ عاجية ورماحاً بأحجامٍ مختلفة وقبوراً كاملة أمامها من الحجر وعليها نقوش.

«أنتَ تقصد أنه ينبغي إعادة الأشياء إلى الدول التي وُجدت على أراضيها»؟.

«أو في الأقل جَعْلها في متناول أيدي نَاسِ تلك البلدان»، أجاب تارون وأحنى نفسه إليها: «لأن هذا ما يُهم في النهاية! لماذا أُنْشِئَت هذه المتاحف العملاقة في لندن وبرلين؟ كـ «مراكز تثقيفية {تعليمية} للجميع»، لأن مؤسسيها، أولئك المتفانين بالإنسانية، يعتقدون أن المرء سيكون لديه تصورٌ عن العالم من خلال النظر إليها وسيتمكن من إدراكه بهذا الشكل. مع ذلك فإن الحقيقة هي أن «كل واحد» يعلم ذلك آنذاك دائماً نوعاً ما، وكان معظمهم من الذكور». توقف تارون لمدة قصيرة ثم واصل قائلاً: «علينا أن نسأل أنفسنا اليوم عن الكيفية التي تمكّننا من نقل هذا الهدف النبيل الأساسي المتمثل بـ«التثقيف للجميع» إلى عالمنا المتشابك والديمقراطي إلى حد كبير. هل تعلمين أن بعض المتاحف على سبيل المثال جعلت مجموعاتها مُتاحةً على شبكات الإنترنت؟ إن هذه الخطوة تَصُبُّ في الاتجاه الصحيح، وإن كان ذلك بالطبع لا يمكن مقارنته مع إبريق الطين الذي يمثلُ أمامكِ وأنتِ تعلمين أنه يبلغ من العمر أربعة آلاف سنة، أو ضريح عليكِ أن تدوري حوله لتستوعبي حجمه». ابتسمت كلارا وتذكرت زيارة المتحف مع والديها هنا في برلين عندما قلّد أبوها وتارون مستمتعين بالرماح المعروضة صراعاً مع الحيوانات المحشوة، وقالت له: «سأخبرك بما قالته آمال».

عندما غادرا المطعم وناولها تارون باقة الزنابق، هديته لها، توجب على كلارا مرةً أخرى أن تفكر ببريا وبقرار تارون الذي اتخذه بمفرده. وعندما اقترح عليها تارون: «هل نستقل سيارة أجرة للذهاب إلى المنزل»؟ تبادر صوتٌ إلى ذهنها يقول: إنها رشوة! «إلى المنزل»؟، قالت كلارا ثانيةً. كلا، إنها لا تريد الذهاب الآن إلى المنزل، وبدلاً من ذلك سألته: «هلاّ نذهب لنرقص»؟.

نظر إليها تارون مندهشاً وضحك قائلاً: «ولِمَ لا»؟.

أخذا سيارة أجرة وذهبا إلى نادٍ لم تَرْتَدْه كلارا منذ سنوات. دخلا في القاعة المتلألئة أرضيتها، رفعا ذراعيهما، رقصا بشكل عشوائي، ابتعدت خطواتهما بعضهما عن البعض الآخر، ارتطما معاً وقبّلا بعضهما، رَقصا ورقصا، رقصا كثيراً حتى شعرت كلارا أن كل شيء اضمحلّ وتلاشى تقريباً.

آمال

ما زال ليس هناك تحسنٌ، إذ كتبت لها راوية صباح اليوم تقول: «حالة الجدة ما زالت غير مستقرة ولم تتغير. أنا متوجهة الآن إلى المستشفى وسأتصل بكِ لاحقاً. قبلات ماما». نظرت آمال إلى وقت الإرسال فاتضح أنها أُرسلت بعد وقت قصير من الساعة السادسة صباحاً بالتوقيت المحلي. أيعني هذا أن راوية كانت قد اتصلت هاتفياً بالمستشفى بالفعل؟

أجابت آمال على الرسالة بسرعة وطلبت من راوية أن تتصل بها في أقرب وقت، بعدها توقفت وفكرت في نزهتها إلى برلين اليوم، فبحثت عن رقم جوال كلارا وكتبت مجدداً: «من خلال الرقم هذا يمكنك الوصول إليّ في المتحف اليوم». وأرسلت آمال الرسالة مضطربةً. شعرت بحكة في أصابعها، إذ إنها تريد البقاء على جهاز الكمبيوتر والبحث في الإنترنت عن الموقع الإلكتروني للمستشفى في بغداد لتلقي نظرة على المبنى الرئيس في لحظةٍ حالمة تكون فيها بالقرب من جدتها، لكنها تفتقر إلى المزيد من الوقت، وعليه حثت آمال نفسها وأغلقت الكمبيوتر، إذ ينبغي لها أن تستقل الباص اللاحق لأن القطار القادم سيغادر المحطة متوجهاً إلى برلين في أقل من ساعة.

كلارا

بعد أن استحمَّ تارون جلسَ على طاولة الإفطار وأجاب سكرتيرته التي تريد أن تعرف أية رحلة عليها أن تحجز له فيها، مثلما أوْضَحَ هو إلى كلارا: «أتعلمين أن مونيكا غالباً ما ترسل رسائلها في الساعة الخامسة صباحاً؟ وقالت إنها لم تخرج من روتين حياتها هذا منذ إجازة الأمومة».

تسللت كلارا نحو المغسلة وهي غير مستيقظة تماماً وأخذت كوباً وملأته بالماء البارد. يبدو أن تارون احتمل الكحول والهواء السيئ في المرقص الليلة الماضية بشكلٍ أفضل منها. وعندما استندت كلارا إلى الثلاجة وأغلقت عينيها سمعت كيف نهضَ تارون، اقترب نحوها، قبّلها على جبينها وسألها بلطف فيما لو تريد أن تشرب كوباً من القهوة أو تتناول شيئاً من الفطور. تشكّلت على شفاه كلارا كلمة «لا»، فوقف كلاهما على مقربة بعضهما من بعض بحميمية قد تقود إلى شيءٍ أكثر ـ ولكن لا، لم يحدث شيء وذابت الحميمية بينهما وهدأت، وفجأة أدرك أنف كلارا أن الرائحة المريرة لعطر ما بعد الحلاقة لتارون أخذت تتطاير بشدة مما أدى بها إلى أن تبتعد وتضرب على خد تارون وتتمنى له يوماً سعيداً.

آمال

عندما أرادت آمال أن تأخذ دفتر ملاحظاتها وتضعه في حقيبة ظهرها لاحظت أن رسوماتها في الأيام الماضية أخذت تنحسر عن السابق، أصبحت أقل عدداً وعلى ما يبدو أقل أهميةً، وإلا كيف يمكن أن يفوتها ذلك؟ وهكذا بدأت تتصفح أوراق دفترها. تأملت زوجة فرس النهر البدينة، رصدت كلاب الحراسة وأخذت تتصفح بسرعة، تعرفت إلى الزرافة ذات الرأس الأحمر وأخيراً إلى مدير المنزل مع «زعانفه» ـ الآن فقط أدركت آمال كم هو مضحكٌ هذا الرسم: المدير المُسرع العجول بنظارته المناسبة له جداً.

استدارت نوريج بسريرها محدثةً ضجيجاً، لمحت إشراقة الصباح وسألت في صوت رخيم فيما لو كانت آمال تريد الانصراف. أومأت آمال لها فتمنت لها نوريج مبتسمةً «أوقاتاً ممتعة».

لا يزال دفتر الملاحظات في يديها، تصفحت آمال أوراقه بهدوء، بحثت فيه وعثرت على الخَرُوف المسلوخ جلده. من ناحية ما يوجد هناك تشابه بين الرسم ونوريج عند النظر إلى بشرة نوريج الشاحبة الحمراء من شدة الخدوش وإلى أصابعها النحيلة أو البطء الذي تغسل به نوريج كوباً، إلا أن الأغنام لا تتناسب كثيراً مع نوريج التي جلست يوم الجمعة على سريرها. وبهذا ظنت آمال أنه على ما يبدو قد استنفدَ ما في داخله، فأغلقت الكتاب.

أوشكت آمال في مدخل القاعة خلف الأبواب المزدوجة أن تتعثر في حقيبةٍ رياضية وأكياسٍ ملقاة على الأرض. وقفت جانباً بحذر وسمعت في اللحظة ذاتها أصواتاً وراءها في الرواق وكذلك بكاء امرأةٍ بصوتٍ عالٍ. اقتربت الأصوات أكثر وفُتحت الأبواب المزدوِجة وإذا «أبو» يدخل القاعة حاملاً على يديه فتاتين صغيرتين.

أدركت آمال أن الفتاتين هما ابنتان لعائلةٍ من الشيشان تقيم في الجناح الغربي للسكن.

«عليكِ الرجوع»، همس «أبو» إلى آمال، «فالسيارة واقفةٌ بالفعل في الخارج».

بدت الفتاتان خائفتين، استدارتا ونظرتا إلى القاعة خلفهما في حين كانت أمهما مثلما رأتها آمال تبكي وتصرخ. أسندها زوجها إليه وأجبرها في الوقت ذاته على أن تتقدمه، أومأت زوجته برأسها وتشبثت أقدامها في مشمع الأرضية وبدأت تقاوم حركة زوجها لكنها رضخت أخيراً كي تتقدمه إلى الأمام. عند حافةِ الباب أمامها تعرفت آمال الآن الى ابنَي الأسرة: الابن الأكبر كان ينظر بريبةٍ أمامه كما لو كان يرى أمامه مباشرة الشخص المسؤول عن كل ما يجري الآن.

وقفت آمال ساكنةً، لا تعرف ماذا عساها أن تقول أو تفعل، وجّهت نظراتها صوب الفتاتين، فكانت إحداهما تتطلع إلى «أبو» كما لو كان بإمكانه أن يفسر لها كل ما يجري الآن، في حين كانت الفتاةُ الأخرى تضعُ يدها على بطنها. وعلى قميصها الوردي اللون رأت آمال تحت يدها ملصقاً لصورة ميني ماوس وهي ترقصُ فرِحةً بشريطِ شعرها الكبير وتبتسم بغُنجٍ وتمُدُّ أرجلها إلى الأمام مغطاة بقفازاتٍ بيض. تُرى هل كانت تنظرُ بازدراء؟ بحزنٍ؟ أو بشيءٍ من الانزعاج؟ لا، لا شيء من هذا كله، ظنت آمال، لأن كل هذه التخمينات تفرضُ وجود علاقةٍ بين ميني ماوس والفتاة وكل ما يجري الآن، لكن لا وجود لهذهِ العلاقة الآن. فهي لا تستطيع أن تجعل رقص ميني ومرحها، القميص الوردي والفتاة التي تعاني في حياتها اليومية من الأذى والإهمال، ينتميان إلى عالمٍ آخر. ذلك العالم، الذي ينتزعُ الآن الفتاتين من أيدي «أبو» مرة أخرى.

اقترب والد الفتاتين وزوجته من «أبو» ووقفا عنده. كانت إيماءاته صامتة ولكن لها معنًى كبيراً، ربما تعني «شكراً»، أو «لقد حان الوقت». انحنى «أبو» على ركبتيه على الرغم من أن هذا يبدو مؤلماً له، ضمَّ إليه الفتاتين واحدةً تلو الأخرى، قبّلهنَّ على الجبين وهمسَ باللغة العربية: «كل شيء سيكون على ما يرام، ليحفظكما الرب»، ثم مد يدَي الصغيرتين إلى يدِ والدهما. تحركت الفتاتان بالشكل الذي جعل آمال ترتابُ لذلك: أتدركان ما يحدث؟ وإذا كانتا كذلك، فهل هذا هو السبب في أنهما وصلتا إلى هنا ماسكتين بيَدَي أبيهما ومع ذلك لم يتركهما «أبو»؟ وقفَ جميعهم هنا للحظة، الرجلان والفتاتان، وهم يمسكون أيديهم معاً حتى تركت الأم يدَ زوجها وذهبت إلى ابنتيها واضعةً يديها على ظهرهما ودفعتهما برفق إلى الأمام. أخذ أحد الأبناء الحقيبة الرياضية من على الأرض ووضعها على كتفه ثم أخذ مع أخيه يحملان الأكياس الكثيرة وذهبا نحو باب الخروج. فتح الأخُ الأصغرُ الباب الأمامي وتسلل ضوء الشمس الساطع نحو القاعة.

رأت آمال في ساحة وقوف السيارات في الخارج حافلةً صغيرة ورجلين يرتديان زياً مدنياً. إن الطريقة التي يقفُ فيها كلا الرجلين، بأرجلٍ متباعدة وأيديهما على أحزمتهما توحي بأنهما رجُليْ شرطة.

استدارت إحدى الفتاتين مرةً أخرى قبل أن تصل إلى باب الخروج ورفعت يدها لتودع «أبو» الذي انهارَ لذلك ولاحظت آمال التوتر عليه، لكنهُ تماسكَ ووقفَ ورفع يده لها عالياً ثم أومأ برأسه متأوهاً لذلك.

كلارا

كان الطقسُ مثالياً لممارسة رياضة الجَري: فأشعة الشمس دافئة والسماء زرقاء صافية. وقد يطلق الكثيرون على منظر السماء تلك «الأزرق المتلألئ»، لكن كلارا لم تدرك هذه التسمية على الإطلاق، فالجميل في سماءٍ صافية كهذه هو أنها لا تبعث إشعاعاً فقط وإنما تجتذبُ الأشياء إليها وتسحبها عالياً. انحنت كلارا مرات عدة على ركبتيها وبدأت بالجري، فالرصيفُ أمام سكنها ما يزال فارغاً في الصباح الباكر، إذ لم يكن هناك سوى عددٍ قليلٍ من أطفال المدارس يمشون في الغالب معاً جنباً إلى جنب. اجتازت كلارا تقاطع الطرق واستمرت في الجَري حتى وصلت المتنزه فأسرعت خطاها هناك. انسجمت أنفاسها مع سرعة الخطى تلك، تسلل الهواء النقي إلى أعماق رئتيها وبدأ قلبها ينبضُ بشكلٍ أسرع. نعم، لقد كان القرارُ صائباً في أن تغادر الفراش وتذهب خارجاً بعد أن غادر تارون الشقة، فقد أصبح فِكرها الآن أصفى، وأفكارها غدتْ أوضح، وتصورها صارَ أدق. تُرى هل تارون في المكتب الآن؟ هل احتفظت بزهوره في الليلة الماضية بالماء في غرفة الجلوس أو وضعتها في المزهرية فقط دون ماء؟ ولكن لماذا جلب تارون الزهور، وبماذا أرادَ أن يحتفل ليلة أمس: أبمقال الصحيفة؟ بالتأكيد، إلا أن هذا لا يحتاج إلى الزهور. ولكن في نهاية المطاف كانت الباقة لها. أينبغي أن يكون ذلك إشارةً إلى حبه لها، أو رجاءً لتقبل قراره بشأن بريا، أو كلاهما معاً؟ هل طرح تارون هذا السؤال على نفسه؟ إنه يعرف أنها تفرحُ بالزهور – أليس هذا سبباً كافياً؟ وهل معرفة السبب أمرٌ مهم؟ فكرتْ كلارا بذلك واستمرت بالجري. إنَّ تلك الأسئلة تراودها بين الحين والآخر وتتلاشى، وهذا هو أحد الأسباب التي تجعلها تحب الجَري، وذلك لأن الأسئلة تتبادر إلى ذهنها هنا من دون الإصرار على إجابةٍ لها، إذ إنها تراودها وتتبادر إلى ذهنها مثل عدّاء قادم ثم تختفي مجدداً.

وعندما تحدثت ذات مرة إلى صديقتها جانين التي تمارس الرياضة باستمرار مع مجموعة فقط وبإشراف أحدٍ ما عن الأسئلة التي تراودها بين الحين والآخر وعن الراحة التي تشعر بها، ابتسمت جانين وأجابتها بشيءٍ لم تَنْسَه كلارا: «نحن لا نطرح العديد من الأسئلة للحصول بالضرورة على إجابةٍ لها، وإنما لنفهم ماذا يحدث لنا».

آمال

كلما اقتُرِبَ من برلين ازداد وجود منظر سماعات الأذن، ومَن يحملها في الأذن يكون عادةً إما شاباً وإما في الأقل ليس كبيراً وَهِناً، إذ قليلٌ من الناس يقرأ جريدةً في القطار، فبينما أكثرهم يقرأ كتاباً، يمسك العديد منهم بالجوال في يده أو ينظرُ عبر النافذة.

كانت آمال تنظرُ أيضاً عَبر النافذة، لا لأنها تشعر بالملل، وإنما لأنها لا تريد أن تضيع المحطة المقصودة لديها. ففي كل مرة كان يتوقف القطارُ فيها كانت آمال تقرأ لوحات أسماء المحطات من خارج القطار وتسأل نفسها كيف يتسنى الأمرُ هذا لنزلاء السكن الذين لا يستطيعون قراءة الحروف اللاتينية أو لا يجيدون القراءة على الإطلاق. ربما لا يذهبون إلى برلين بتاتاً ويتوجب عليهم استخدام وسائل النقل العام من وقت لآخر للوصول إلى دائرةٍ ما أو طبيب ما. فهل يعتمدون في ذلك على عدد المحطات التي يسميها لهم الآخرون مسبقاً، أم على توقيت الساعة بناءً على الثقة في دقة المواعيد الألمانية؟

إن تجربتها الشخصية مع دقة المواعيد الألمانية تكمنُ في أن الألمان ليسوا دائماً منضبطين في مواعيدهم جداً، إذ إن شأنهم في ذلك شأن الآخرين الذين يبدو الأمر ذلك معهم معتمداً على ما إذا كان الوصول في الوقت المحدد يُعد أمراً مهماً أو ضرورياً، أما مَن لديه موعد في دائرة حكومية أو لإجراء فحص ما فينبغي له ألا يتأخر، وإلا عليه توقع نظرات عدم الرضا ونفاد الصبر، ومَن يدري ماذا ينتظره غير ذلك بعد. إلا أننا، على العكس من ذلك، نجد سنتيا وهينينغ المتطوعين للعمل كمساعدين للاجئين واللذين يُبقيان ساعات عملهما الأسبوعي مفتوحةً في السكن لكل شخص يطرق بابهما، وقد يأتيان بوقتٍ متأخر، أو يُطيلان أوقات عملهما أحياناً أو يؤجلان «فترة ما بعد الظهيرة» الخاصة بهما لبعض الوقت. أسندت آمال رأسها إلى نافذة القطار. دائماً تبدأ راوية محاضراتها في الوقت المحدد، كذلك الأب لم يتأخر عن عمله في المستشفى إطلاقاً، إذ أن التأخير حتى لو كان بسيطاً سيكون بالنسبة إليهما تعبيراً عن عدم الاحترام للموقف والأشخاص المَعْنيين. أغلقت آمال عينيها وتذكرت: بأنها حضرت محاضرةً واحدة فقط من محاضرات راوية حينما كانت في المرحلة الدراسية الأولى على الرغم من أنهما كانتا في الحرم الجامعي ذاته كل يوم تقريباً. لكنها تجنبت عمداً حضور محاضرات راوية في المرحلتين الدراسيتين الأولى – على الأقل في البداية – لأنها كانت تريد التركيز على الموضوعات التي لم تكن هي على دراية كافية بها مثل موضوع الأديان في بلاد ما بين النهرين القديمة. لكنها ولمرةٍ واحدة لم تُفوِّت الفرصة للاستماع إلى راوية عندما تحدّثت عن «بابل الجديدة» وإعادة إعمار الأنقاض من قِبل صدام.

بدأت راوية حديثها ببراعة، إذ عرضت أولاً بعض الآجُرّ من القصر الأصلي، يحملُ كلٌّ منه عبارةً محفورةً في اللغة السومرية المسمارية تقول: «أنا نبوخذنصر ملك بابل، ابن نابو بولاصر، بنيتُ هذا القصر تكريماً لإلهي مردوخ». ثم تَبِعَتْ الآجر رسوماتٌ عن القصر بأكمله والتي رسمها الألماني □التر أندريه في بداية القرن الماضي في الموقع ذاته. وعرضتْ راوية هيكل المبنى وأشارتْ إلى الباحات الخمسة الداخلية وأقواس البوابات وأكدت مراراً على القرار الحكيم لنبوخذنصر آنذاك في استخدامه بدلاً من «خليط المونة»، الإسفلت الطبيعي مزيج من الرماد والكبريت والرمل والسيليكا، والذي يحتفظ بمرونته حتى عند أكثر من أربعين درجةٍ مئوية، ويجعل جدران القصر

مستقرة هكذا ومانعة لتسريب المياه. ثم تبعَ ذلك صوراً من الآثار القديمة وبقايا جدار الأساس وفتحة بئر ثم قوس بوابة قديم «أصلِحَ» بطوب حديثٍ من الطين الملون. وأشارت راوية إلى قطعة واحدة من الطوب الأصلي قائلةً: «هل ترون هذه الثقوب هنا؟ إن هذا الطوب الذي بقي لأكثر من ألفَيْ ونصف سنَة دون أن يصاب بأذًى، بدأ يتفكك لأن مادة المونة التي استخدمت برعاية الرئيس صدام آنذاك تُحدث فقاعات عند حرارة الصيف». تحدثت راوية عن ستين مليون طابوقة بُنيت على أنقاض قصر نبوخذنصر: «وهكذا سُحقت هذه المادة الأثريّة القيّمة جداً أو على الأقل جعلها بعيدة المنال». كما ذكرت راوية الهزات الأرضية التي سببتها أدوات البناء التي جعلت الجدران المتبقية من القصر الشمالي البابلي القديم في هذه الأثناء مهددة بالانهيار، وتحدثت عن تغير مستوى المياه الجوفية الذي أدى إلى إحداث رطوبة تخللت الطبقات الأثرية العميقة.

لم تتوقف راوية طويلاً عند القصر المُشيد حديثاً بل اكتفت بصورةٍ شمولية عنه قبل أن تُنهي حديثها بصورةٍ أخرى ذَكّرتنا بالصورة الأولى التي عرضتها مسبقاً وإن كانت تلك غامضةً بعض الشيء، ثم قالت: هذه كانت إحدى قِطَع الطوب المستخدمة في إعادة بناء القصر في الثمانينيات، محفور عليها: «أنا صدام حسين، رئيس وقائد الشعب العراقي، قمتُ بإحياء قصر نبوخذنصر وحضارة الشعب العراقي». وكما هو حال العديد من الطوب الآخر المستخدم فإن الشقوقَ والتصدعات كانت تبدو واضحةً على هذا الطوب أيضاً. واختتمت راوية حديثها قائلةً: «إن هذه الأحجار لم تبلغ من العمر ثلاثين عاماً. وكان كل شق يقتطع الحروف المنقوشة مثل السيف بمثابة انتصارٍ ضئيلٍ لها».

انتصارٌ ضئيلٌ للغاية شعرت به آمال عندما قرأت اسم المحطة التي أوشكَ القطار من الوصول إليها الآن، إذ إنه حتى لو أثبت التاريخ الحديث أن راوية على حق، وإن أكدت اليونسكو حُكْمها الذي يرفض بحزم الاعتراف «بفانتازيا الإحياء» التي قام بها صدام كموقع للتراث العالمي ــ فما هو الثمن الذي كان على والدتها أن تدفعه مقابل تحذيراتها ورأيها السليم!

وما هي إلا أيامٌ قليلة مضت على نشر إحدى صحف بغداد لقاءً مطولاً مع راوية روَّعتْ فيه وغضبتْ من القصر «الذي فرضه» صدام على أنقاض بابل القديمة. وعليه استُدعِيَت في الصباح إلى مكتب مديرها في المتحف وقيل لها بأنها أُعفِيَت من مهامها السابقة بأمر فوري، وقد أوكلت مهامها تلك بالفعل إلى زميلها. وعُرض عليها العمل كسكرتيرة في المتحف لإنقاذ الموقف لكنها رفضت ذلك العرض، حسب ما أبلغت راوية به آمال بعد سنوات من ذلك. «وبغض النظر عن أي شيء آخر فإن هذا يُعد إهانةً للسكرتيرات، إذ إنهنَّ أتْقَنُّ عملهنَّ أيضاً»!.

عادت راوية إلى عملها في الجامعة حيث عَهِدَ لها أستاذها القديم مكتباً وطلبةً {لتقوم بتدريسهم}، وبالفعل بذلت راوية أفضل ما عندها، لكنها أُستبعدت في السنوات اللاحقة من كل الفرق التي تقوم بعمليات التنقيب الصغيرة في مواقع بابلِ القديمة أو أوروك بدون أسبابٍ تُذكر. استمر ذلك الحال على الأقل حتى سقوط صدام، بعد ذلك وتحت وطأة الاحتلال الأمريكي أصبح الأمر معقداً وخطراً، حيث لم يُقَمْ بأية تنقيبات لسنوات عدة.

ظنت آمال وهي تنظرُ عبر نافذة القطار بأن راوية تتمنى الآن بعد انسحاب الأمريكان أن تُستَأنَفَ أعمال التنقيب مرةً أخرى، لربما تحصل على فرصةٍ جديدةٍ لها، إذ قالت نهرين في الربيع الماضي بعد عودتها من الجنوب بأنه في كل مكان يرى المرء حُرَّاسا من الميليشيات الشيعية منتشرةً أمام المواقع الأثرية في بابل والوركاء، أي أوروك سابقاً. أومأت راوية برأسها بصمتٍ، في حين أخفضَ الأب رأسه ودمدمَ بتذمر: «مَن يدري ماذا يجري هناك»؟.

وهنا لمحت آمال يافطة المحطة القادمة تقتربُ منها: إنها محطة قطارات برلين الرئيسة.

كلارا

وكما هو مخططٌ له فقد وصلت كلارا إلى المتحف في وقت مبكرٍ جداً لأنها لا تريد لآمال أن تنتظر طويلاً على الإطلاق. مشت إلى الأمام نحو منتصف الساحة الأمامية الكبيرة وفقاً لاتفاقها مع آمال، بقيت واقفةً هناك وأدارت وجهها صوب الشمس، حيث إن دفء الجسد نذيرٌ لطيفٌ بحلول فصل الصيف، إذ يتوقع المرء هنا «أشد الأيام حراً حتى الآن» كما قيل في المذياع مسبقاً. احتشدت مجاميعُ سياحية عدة حول كلارا التي تتأمل نظرات انبهار السواح بما يشاهدونه: فالجدران الرمادية من الجوانب الثلاثة والدعامات المُحكمة والبوابة الضخمة تبدو كأنها أُنشِئَت من أجل النظرات التي تُلقى عن بُعد ومن أجل المُشاهدين الذين ما يزالون واقفين على الجانب الآخر من الجسر الذي يفصل المتحف في جزيرته عن حياة المدينة في برلين.

توجه ياباني مهذب بكاميرته نحو كلارا وقالَ لها مبتسماً: «عفواً، أمنَ الممكن أن تلتقطي لي صورة»؟ أخذت كلارا كاميرته والتقطت له صورة بأبعاد عدة بعد أن تجمع أفراد المجموعة السياحية كافة معه في الصورة. ولكن أين هي المجموعة تلك؟ هذا ما لم يستطع أحد معرفته بسبب الجموع الكثيرة من الناس التي توجد في الخلف وبسبب الجدار الرمادي. ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يزعج الياباني، بل إنه شكرها بعد أن رأى الصورة عَبر شاشة عرض الكاميرا، ورجعَ بخطوات صغيرة إلى الخلف بعد أن أحنى ظهره كثيراً، ثم التفتَ خلفه لينادي زوجته بكل وُدٍّ، ورفع كاميرته عالياً مسروراً.

«مَن يدري كيف نبدو نحن إلى الناس في باريس أو بكين أو هيروشيما»، كان أبي دائماً يقول هذا عندما كانت الجدة تغضب عند زياراتها الجماعية لـ«شيرن» من أن «جحافل السياح تلك تجتاحُ قاعاتِ المعروضات بصوتٍ عالٍ كما لو كانوا في ساحةِ عرضٍ عامة»، إذ لم تكن زيارة المتاحف مألوفةً عند الجدة منذ زمنٍ بعيدٍ إلا من خلال ابنها الأب الذي كان يعمل حارساً في المتحف في أثناء دراسته، إذ اكتشفت الجدة وهي في أواخر الأربعين من العمر متحف «شيرن» ومتاحف أخرى، ومن هنا نشأ شغفها {بزيارة المتاحف} بسرعة حتى إنها أرادت أن ترى المعارض الدائمة مراراً وتكراراً.

«ليس في كل مكان يكون الفن تدنيساً للمقدسات» كان هذا واحداً من الردود النموذجية للأم على سخط حماتها، إذ تُجيب الجدة عادة بحواجبَ مرفوعة قائلةً: «إنه سيئ بما فيه الكفاية».

رمقت كلارا بعيونها وأدارت وجهها عن أشعة الشمس، إذ انتابها شعورٌ يحتم عليها أن تمعن النظر الآن ــ وبالفعل إن لم يخيبها ظنها ها هي ترى آمال تسيرُ بخطًى مسرعة على الجسر.

آمال

أسرعت آمال خطاها وبقيت واقفةً أمام الجسر حتى أدركت بالفعل: أن هناك امرأة في وسط الساحة الأمامية للمتحف تُلَوّح بيدها عالياً ثم تحركت من مكانها ــ تعرفت آمال إلى كلارا من خلال خطواتها السريعة الشبيهة بخطوات الفرس التي تريد أن تركض، إلا أن شيئاً ما أوقفها في الآن ذاته.

«آمال»! نادت كلارا بغبطة، مدت ذراعيها واحتضنت آمال مع حقيبة ظهرها قائلة: «جميل جداً أنكِ أتيتِ». كان عطر الياسمين يفوح من عنق كلارا، وكانت خصلات شعرها الأشقر المجعد تتلألأ تحت أشعة الشمس. كانت كلارا تبدو أكثر نضارةً وأكثر حيوية من المعتاد.

«هل أنتِ مستعدة»؟، سألتها كلارا وأخرجت من جيبها بطاقتين لدخول المتحف موضِّحةً لها بأنه بإمكانهما الدخول مباشرة إلى المتحف دون الانتظار ثم التوجه إلى شماعة تعليق الملابس والذهاب «إلى الطابق الأول حيث بوابة عشتار».

أومأت آمال برأسها مندهشةً لأنها لم تتوقع أن تجد بوابة عشتار الأصلية التي تعود إلى بابل الأثرية في الطابق الأول من المتحف.

استقبلهما في المتحف ضجيجٌ عالٍ من الأصوات: نداءات من مرشدي المجاميع السياحية يحاولون جاهدين أن يتغلبوا على القهقهات العالية والحوارات الشخصية والمكالمات الهاتفية العديدة في قاعة الاستقبال. بذلت كلارا قصارى جهدها من أجل الوصول إلى شماعة الملابس، خلعت سترتها وعلقتها هناك. ترددت آمال في أن تقوم بالشيء ذاته وأمسكت بحقيبة ظهرها، إذ إنها لا ترغب في أن تتركها هنا بمحتوياتها. أدرك الرجل الذي يقف عند شماعة الملابس انزعاج آمال من ذلك وأشار لها بأن تذهب إلى القاعة المقابلة لشماعة الملابس. وجدتْ هناك خزانات لحفظ المحتويات، خزانات مثل تلك المتوافرة في حمامات السباحة وبعض المساجد، لكنها لم تَرَها في أي متحف من قبل. أعطتها كلارا قطعة نقود وقالت لها: «هذه لخزانتكِ»، وعندما نظرتْ إليها آمال متسائلة أضافت كلارا: «وبإمكانك أن تعيدي لي اليورو عندما نغادر المتحف».

أخرجت آمال من حقيبتها دفتر ملاحظات وقلماً ومحفظةً ولكن ليس مفتاح غرفتها في السكن.

صَعِدتا السلم معاً، دخلتا عبر مدخلِ بابٍ مفتوح، نظرتا إلى اليمين فوجدناها هنا: كبيرة وبلا فجوات، زرقاء متلألئة، كبيرة جداً، أكبر حتى من حجم القاعة التي حُشرت فيها والمكتظة الآن بالزوار. بقيت آمال واقفةً مندهشةً وأدركت بأنها لم تكن لتتخيل هذا أبداً، بل وإن كثرة الناس هنا تُفاجئها أيضاً.

«تعالي»، قالت آمال إلى كلارا واقتربتا نحو البوابة.

تتحرك تنانين مردوخ وثيران أداد من اليسار واليمين باتجاه البوابة في المنتصف، بقوة وبعنفوان كعهدها آنذاك، مثلما دوَّن نبوخذنصر ذلك برموزٍ بيضٍ محفورة على الطوب: «أنا أرسيتُ أساس البوابة ضد المياه الجوفية وصنعتها من الحجر الأزرق المنقوش عليه ثيران وتنانين بدهاءٍ فني... كي تبهر كل من يراها منَ البشر». تمتمت آمال بالكلمات المألوفة تلك ولم تنتبه لذلك إلا بعد أن سألتها كلارا: «هل قلتِ شيئاً»؟.

وبدلاً من أن تجيب أشارت آمال إلى أحد التنانين وأوضحت بأنه يرمز إلى مردوخ، إله مدينة بابل ورمز الخصوبة.

«نبوخذنصر كان يبجل مردوخ جداً».

«هل كان نبوخذنصر متديِّناً»؟، سألتها كلارا مندهشة، «أقصد هل كان متديناً حقاً، بمعنى الخنوع، وليس بالمفهوم التقليدي فقط»؟.

«نبوخذنصر كان متديناً جداً»، أجابت آمال ولم تستطع أن تخفي ابتسامتها: «إن مَن يعرف نبوخذنصر من الإنجيل فقط سيكون لديه بالتأكيد تصور آخر عنه». بتعجب نظرت كلارا إلى آمال، فهي أدركت ما تريد آمال أن تنوه به، وهو أنه لو كان والد كلارا المؤرخ في مكان نبوخذنصر لتَطرَّق «لأسطورة العدو» هذه أيضاً كي يفصلَ بين شخصية نبوخذنصر التاريخية وشخصية ذلك الملك الجبار في عيون أعدائه وما كان عليه أن يكون.

«إذن لم يكن نبوخذنصر شريراً على الإطلاق مثلما هو مذكورٌ في الإنجيل»؟، سألت كلارا، «لكنه استولى فعلاً على القدس، أليس كذلك»؟.

«من المؤكد أنه استولى على المدينة»، أجابت آمال، «أما فيما لو كان ذلك الاستيلاء سبباً في هجرة اليهود مثلما هو مذكورٌ في الإنجيل فهذا ما لم يُثبَتْ في أي نصٍّ أثري أو وثيقةٍ مكتوبة».

لم تتحدث آمال عن ذلك بلهجة تعاطف شديدة وإنما بإعجابٍ كبيرٍ وتباين وجهات النظر، أي من منظور علمي، الأمر الذي جعل كلارا تدرك في الحال: إن ذلك سينال إعجاب والدها.

إلا أن ما تريد كلارا معرفته هو: «لماذا سميت بوابة عشتار بهذا الاسم على الرغم من أن التنانين لا تعود إلى عشتار وإنما إلى إله بابل»؟.

التفتت آمال وأشارت إلى شارع الموكب الذي يؤدي إلى البوابة: «هل ترين الأسود هناك»؟ سألت آمال وأشارت إلى النقوش في الجدار الحجري قائلةً: «إن هذه الأسود تعود إلى عشتار، إلهة الحب والحرب».

«يا له من انسجام» قالت كلارا في سرها وابتسمت.

آمال

بقيت آمال واقفةً أمام أحد الأسود ورفعت ذراعها لا إرادياً: ها هو الآجُرّ الطيني لذلك الزمن. ليس سوى شريطٍ شفافٍ رقيق يصل ارتفاعه حد الركبة، يفصل آمال عن ذلك الحجر العتيق ذي الأعوام الألفين ونصف، والذي يقطنُ الغربةَ الآن قادماً من بابل. وقفت آمالُ على أطرافِ أصابع قدميها، وأصابع يدها تتحرك شيئاً فشيئاً لأنها تريد أن تلمس كفوف الأسود الراكضة المنقوشة على الجدار وتتحسس جلدها المجعد وتمرر أصابعها على ذلك الآجر ذي الملمس الزجاجي الناعم باللون الأزرق اللازوردي والتركوازي. إنَّ المرممين تركوا في الغالب البقع البيض الباهتة على النقوش ــ أي الأسنان وأجزاء من جلد الأسود ــ دون مساس، لكنهم استخدموا طلاءً جديداً للحُلي والأقحوان والشريط البرتقالي الذي تسيرُ عليه الأسود. إلا أنه حتى هذه الإصلاحات الضئيلة التي ربما تكون ملونةً أكثر بعض الشيء مقارنةً بترميمات مدينة بابل التي أمَرَ بها آنذاك صدام والتي غَلَبَ عليها «حشو الثقوب» ربما كانت ضروريةً، إذ إنها جعلت هشاشة الأحجار الأصلية تبدو أوضح. إن ما حرّك آمال هو أن المرء يرى هنا الأحجار وما عايشته وما عانت منه منذ قرون وهي تقاوم راسخةً، ومع ذلك فإنها مُصابة بالضرر. ذلك كله هو ما يميزها من الواجهة شديدة الزرقة ذات الحيوانات الصُّفر في بابل اليوم، تلك النسخة التي لا تعلم أنها بُنيت منذ البُعد الزمني الرابع.

رجَعت آمال إلى الخلف وتأملت القاعة: حيث أصبح للضجيج فجأة منفعةٌ والحرس الموجودون في الزوايا لا يستطيعون دائماً حصر كل شيء بأنظارهم، فضلاً عن ذلك لاحظت آمال أن السيدات الحارسات ذوات البناطيل الدُّكن الزَّرقة كان يبدو عليهن الملل أكثر من اليقظة.

«أينبغي أن أقف أمامك»؟، همست كلارا إلى أذن آمال من قرب. عندها تفاجأت آمال لأنها لم تُدرك حتى هذه اللحظة كم بقيت كلارا تراقبها. ومن دون أن تنتظر الإجابة فتحت كلارا خارطة المتحف التي أُعطيت لهم عند المدخل ووقفت عند الحاجز بالشكل الذي تغطي فيه الخارطة آمال حتى أكتافها. ألقت كلارا نظرةً على آمال وتولّد لدى آمال انطباعٌ بأن كلارا لا تُشير برأسها دون أن تحركه، وإنما تومئ بعينها فقط. مدت آمال يدها نحو الجدار، فترددت، ثم لمست الطوب بسرعةٍ بالغة بحيث لا تشعر بأي شيء حقاً، ولكن لمسته لبرهةٍ كافية كي تعرف أن الجدار غير خاضع لجهاز الإنذار. أومأت برأسها إلى كلارا التي ما زالت تقف بمكانها ولم تغيره، ثم نظرت بسرعة خاطفة إلى ما وراء الخارطة أي إلى الحارسة التي ما زالت تقف عند مدخل السلم وتنظر إلى الأمام وليس صوبها. وفي الطرف الآخر من القاعة كان الحارس يوجه أنظاره نحو الجدار المقابل وليس نحو شارع الموكب {لبوابة عشتار}. مدت آمال ذراعها مجدداً ولكن هذه المرة غطت يدها إحدى قطع الآجُرّ بكامله. دَقّ قلبها بشكلٍ ملحوظٍ وتبادر إلى ذهنها مباشرة السؤال: ماذا يمكن أن تفعله صرخة الحراس الغاضبة بالنسبة إلى طلبها في اللجوء؟ إلا أنه على الرغم من ذلك مرَّ كل شيء بسلام ولمست أصابع آمال الآجُر ذا الملمس الزجاجي {الناعم} بلطفٍ حتى وصلت حافةَ الحجر كي تلمس الأخريات أيضاً. شعرت آمال أن الشقوق الموجودة على السطح العلوي ذي الملمس الزجاجي {الناعم} تبدو كأنها عروقُ الأوراق أو ممراتٌ مائية جافة، وظنت على الفور: بأنه ينبغي لها أن تحكي ذلك لأمها وجدتها في بغداد عندما ستتهاتف معهم في المرة القادمة.

بالقرب منها سمعت خطواتٍ هادئة حيث غيرت كلارا موقعها في الحال ومضت آمال خائفة. حينها تبادرَ إلى ذهن كلارا بأن فكرة التقاط صورةٍ ما ستعجب آمال بالتأكيد وستجعل تلك اللحظة تَعْلَق في ذاكرتها بشكلٍ مختلف. نظرت حولها ورأت أن الحراس لم يغيروا أماكنهم كأنهم متَحَجِّرون تقريباً، وهذا على الأرجح نتيجة لعملهم هنا وهُم مَحُوطون بالأحجارِ والسيَّاح المزعجين. وعليه حاولت كلارا أن تمسك بخارطة المتحف بيدٍ واحدة، الأمر الذي تمكنت منه في نهاية المطاف، ثم أخرجت هاتفها النقال من جيبها فوجدت على شاشته مكالمتين فائتتين لكنها سرعان ما تجاهلتهما، لا سيما وأن رقميهما غير معرّف لديها.

«آمال، انظري إليَّ»، همست كلارا لها حتى استدار إليهما رجلٌ كان يقف وراء آمال ولكن دون أن يتفوه بشيءٍ. نظرت كلارا إلى شاشة الهاتف، تفحصت بسرعة وضوح الصورة وأبعادها وضغطت على زر التقاط الصور مرتين للتأكيد. لكن آمال لم تبتسم إلا بعد أن أعادت كلارا الهاتف إلى حقيبتها.

تساءلت آمال فيما لو أن كلارا كانت تريد من الصورة التي التقطتها أن تطيل أمد اللحظة القصيرة المسروقة القسرية تلك ومنحها البقاء من خلال الحفاظ عليها، إلا أنها كانت تعلم في الوقت ذاته بأن كلارا ربما تريد أن تُسْديَ إليها خدمةً ما. وهذا ما حدث بالفعل: لأنها بعد أن علِمت أن الصورة بحوزتها الآن ابتعدت آمال عن الحائط كما لو أنها «أنجزت المهمة» ويمكنها الآن الاعتماد ثانيةً على النظر فقط.

طوت كلارا الخارطة، أشارت إحداهما إلى الأخرى بتآمر وسارتا معاً بمحاذاة شارع الموكب الطويل حتى اقتربتا من أحد الحراس الذي أثارت نظراته اهتمام آمال فنظرت إليه بلطفٍ لكنه تجاهل ذلك ونظر إليها مثل أي لوحة جدارية بلا نقطة مركزية.

وقبل مغادرتهما الطابق استدارت آمال مرةً أخرى ونظرت إلى بوابة عشتار من بعيد، حيث لونها الأزرق يتلألأ تحت إضاءة المتحف الخافتة وواجهتها تثبت نفسها بشموخٍ بأبعادها المتناسقة وأقواس بوابتها وأسوارها ما بين الجدران الصفراء الباهتة تحت سقفٍ عالٍ نوعاً ما ولكنه في الوقت ذاته منخفضٌ بالنسبة لها. والآن أخذت آمال نفساً عميقاً واعتقدت أن إعادة بناء البوابة الأصلية في الهواء الطلق هو ببساطة أمرٌ غير ممكنٌ في هذا المناخ.

تساءلت كلارا عما تفكر به آمال الآن، فيما لو كانت تأمل الرجوع قريباً في غضون بضعة أسابيع أو أشهر إلى هنا ثانيةً بعد اتخاذ قرارٍ بشأن طلبها للجوء، أو أنه عندما رأت آمال البوابة التي تعرف عنها الكثير توجهت أفكارها تماماً نحو الماضي وليس نحو المستقبل وما تركَته وراءها بشكلٍ لا رجعةَ فيه.

سألت آمال كلارا عما إذا كانت هي أيضاً تجد القاعة صغيرة جداً بالنسبة إلى البوابة وشارع الموكب. أومأت كلارا برأسها: «بالتأكيد. كما يبدو لونها باهتاً جداً، شاحباً. (أشارت هنا إلى الآجُرّ)، لذا أجد أن لون الأحجار الأزرق والفيروزي الحيوي يبدو كأنه سجين هنا».

ابتسمت آمال كأنها مسرورةٌ بالإجابة.

وهنا أضافت كلارا: «لكنْ هناك شيءٌ واحدٌ يفاجئني وهو أنني لم أكن أعرف أن الأقحوان ينمو عندكم»، ثم أشارت إلى الأقحوان الذي يزين شارع الموكب بانتظام.

بدت آمالُ مندهشةً للملاحظةِ تلك: «نعم، بالطبع. لِمَ لا»؟ رفعت كلارا كتفيها وأدركت فجأة مدى ضآلة معرفتها بالعراق والشرق الأوسط. «ألم تقولي إنه ليس لديكم هناك ورود البنفسج الأزرق»؟.

أومأت آمال.

«ومع ذلك فإنني ربطتُ الأقحوان مع المروج الصيفية الرطبة بدلاً من المناخات الصحراوية الحارة الجافة».

فقالت آمال موضِّحةً: «لكنه لا ينمو بكثرة عندنا، إلا إذا اعتُنِيَ به بشكلٍ صحيح... في حديقة جدتي على سبيل المثال تنمو هذه الأقحوانات في ألواحٍ بين النخيل وبجوارِ الدفلى الذي سبق وأخبرتكِ عنه، أليس كذلك»؟.

أومأت كلارا برأسها.

«إن دفلى جدتي هي أعجوبة من الزهور الوردية، عليكِ رؤيتها»! ضحكت آمال، لكنها قطعت ضحكتها وقالت: «وينبغي أن تُسقى كل يوم. جدتي تسقيها عندما تكون في المنزل، أعني ـ عندما تأتين إلينا سترين مدى تنوُّع عالم النباتات في بغداد..». تلعثمت آمال واستدارت.

فقط في وقت لاحق على السُّلم أدركت كلارا تماماً ماذا قالت آمال: إنها تحدثت بـضمير «الجمع خاصتنا»، عن «زيارتنا»، كأمرٍ طبيعي مثل أي شخص يدعو صديقته إلى منزله... حتى لو كان هذا الأمر يجعل كلارا بالطبع حزينةً بطريقةٍ معينة فإن هذا يدلُّ على أن آمال ما تزال في تفكيرها هناك، في بغداد، في البلد البعيدِ ـ لذلك أو ربما بسبب ذلك تحديداً حرَّكت كلارا دعوة آمال وكانت تودُّ الرد في وقتٍ لاحق بكل سرور بأنها قبِلت الدعوة.

اقترحت كلارا على آمال أن تبحث الآن عن الكنوزِ المكتشَفة لأوروك ونموذج برج بابل، لكن لدهشتها أومأت آمال برأسها وأشارت إلى الطابق الأرضي. فجأة أصبحت آمال قلِقةً وشعرت بالذنب لأنها كانت في الواقع قادرةً على أن تنسى جَدَتها، وبشكلٍ أدق أن تنسى الحالة التي توجد فيها الجدة، حتى إن كان ذلك لمدة وجيزة فقط. آمال، طفلتي، اذهبي واستمتعي، ينبغي أن تكون أفكارك حرة، لا أن تُقيدكِ!

لن تلومها الجدة على لحظة النسيان تلك، بالتأكيد لا، ولكن مع ذلك أرادت آمال فعلاً التحدث إلى راوية الآن: «هل يمكنني إجراء مكالمةٍ هاتفية سريعة»؟، سألت مشيرةً إلى جيب كلارا، كما لو كانت تريد تذكيرها بأنها لا تمتلك هاتفاً.

أومأت كلارا برأسها لكنها اقترحت مغادَرَة المبنى أولاً: «لنذهب على الأقل إلى الرواق».

وفي رواق الطابق الأسفل مباشرة قبل باب الخروج أخرجت كلارا هاتفها من جيبها واندهشت لوجود أربع مكالماتٍ فائتة، آخرها كانت منذ دقيقتين فقط، فقالت: «شخصٌ ما اتصل عليَّ»، عندها سألتها آمال على الفور: «مَن»؟.

«الرقم غير معرَّف»!.

«ربما كانت مكالمةً عبر السكايب»؟.

ردت كلارا: «ربما» رفعت رأسها خائفةً: إذ أصبح وجه آمال شاحباً.

«هل يمكنني {قراءة الرقم} ـ لربما كانت المكالمة لي»! قالت آمال وعليها أن تستجمع نفسها كي لا تنتزع الجهاز من كلارا.

سألتها كلارا: «هل أعطيتِ رقمي إلى أحدٍ ما»؟ وعندما أومأت آمال برأسها، بدا وجهها متأثراً كأنه أصيب بضربةٍ ما، فشعرت كلارا بالخوف أيضاً. لكنها تعلم أنه عليها أن تبقى الآن هادئة وتتصرف بحكمة.

«اسمعي يا آمال»، قالت بلطفٍ ولكن بوضوح، «إننا لا نستطيع معاودة الاتصال، ولكن يمكنك تفحص صندوق بريدك. هل تريدين فعل هذا»؟.

أومأت آمال شاردةَ الذهن ونظرتْ إلى أصابعها التي ترتعش.

انتقلت كلارا التي تعرف عنوان البريد الإلكتروني لآمال على ظهر القلب إلى موقع الويب المعني بذلك وأدخلت عنوان البريد الإلكتروني ثم ناولت آمال هاتفها النقال «الآي فون» كي تكتب كلمة المرور الخاصة بها فقط. أدخلت آمال كلمة المرور وسجّلت الدخول وأخذت تحَدِّق إلى شاشة العرض.

هناك رسالةٌ جديدة من راوية مكتوبٌ فيها: «آمال، اتصلي عليَّ! ماما»! دون مزيد.

«عليَّ الذهاب ــ إنها أمي»!، كادت آمال تصرخ.

يبدو أن كلارا فهمت ذلك حتى دون المزيد من الكلمات: «أتعرفين الرقم»؟.

كان على آمال أن تفكر في الأمر للحظة، بالطبع تعرفه إذ إنها ما تزال تتذكر رقم هاتف مكتب راوية. أشارت كلارا إلى هاتفها وقالت بلطف: «تفضلي، اتصلي إنْ كنتِ ترغبين في ذلك».

طلبت آمال الرقم ولم تسمع شيئاً في بادئ الأمر، ثم رنَّ الجرس مرة، مرتين، أربع مرات دون أن يرد أحد. وفجأةً أيقنت آمال أنه بالطبع لا يرد أحد على الهاتف، لأنه إن حدثَ شيءٌ ما فإن راوية لن تكون في مكتبها بالتأكيد... وعليه أخذت تفكّر بجنون في كيفية الوصول إلى راوية من خلال هاتفها النقال، لا سيما أنها لم تحفظ الرقم على ظهر القلب، بل إنه مخزَّنٌ في حسابها على «السكايب»، {مما يتعذر عليها ذلك} في المتحف هنا ــ لذا بينما صاحت آمال بدأ هاتف كلارا يرن: «ينبغي لي الذهاب إلى مقهى إنترنت»!.

عندها قالت لها كلارا شبه متسائلة: «ها هو الرقم المجهول مرةً أخرى ــ أهو لكِ»؟، وناولت الهاتف إلى آمال.

«نعم، راوية، نعم، أسمعك. هلاَّ تقولي لي أخيراً ــ ماذا؟ جدتي ماتت، نعم، فهمت، لا! إنها ماتت؟ ولكن لماذا؟ لمَ بهذه السرعة يا راوية! نعم، لا ــ كفى! إن شبكة الاتصال سيئة وعليَّ أن أفهم كل شيء... لماذا؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك، نوبة قلبية ثانيةً، نعم، راوية، فهمتُ ذلك، نعم، في المستشفى، قبل ساعة ــ قبل ساعة؟ راوية، أرجوكِ لا تبكي يا أمي، إذا بكيتِ الآن فلا بد لي من البكاء أيضاً ــ لا، ماذا تقولين؟ قولي ذلك مرةً أخرى! لنتحدث بعد ساعة عبر سكايب، نعم، بالطبع هذا ممكنٌ، حتى لو ــ ما معنى ذلك الآن...

لا، راوية، لا تغلقي الهاتف! انتظري! ما زالت لديَّ أسئلةٌ: هل هذا أكيد؟ طبعاً. لكن راوية قولي لي شيئاً آخر: هل هي بسلام؟ هكذا إذاً، هذا ما لديك حقاً... نهرين. ما بها نهرين؟ نهرين هنا، جيد، على الأقل إنه لأمرٌ جيدٌ أن تكون نهرين هنا. هذا جيد. في بادئ الأمر أبي والآن عشتار، هذا غير ممكنٌ ــ نعم راوية، أسمعك، نعم، بعد ساعة، نعم، أراك قريباً، لقد فهمت».

لو لم تكن السماء عاليةً هكذا،

لصَعِدتُ إليها، كي أمسحَ على وجهها الأزرق!

جدتي، أين أنتِ؟ لا أستطيع أن أصدق ما قيلَ أعلاه،

ولكني لا أريد أن أرى وجهكِ المتجمد

ويديكِ الباردتين. جدتي، أين أنتِ...

كلارا

لم تسمع كلارا آمال وهي تتحدث العربية على الإطلاق. لكن الآن عليها أن تنتبه إلى آمال عندما انحنت ومسكت بطنها، فتقدمت نحوها، ضمتها إليها واحتضنتها.

اعتقدت كلارا أنها سمعت كلمة «مات» بين نوبتين من التنهدات العنيفة وتساءلت فيما لو كان المقصود بذلك والد آمال.

«جدتي... ماتت».

ابتلعت كلارا ريقَها. تحدثت آمال مراتٍ عدة عن «مقهى الإنترنت» وعن «راوية»، فأدركت كلارا أنه عليها أن تأخذها بأقصى سرعة ممكنة إلى مقهًى كهذا.

مَشَت كلتاهما عبر مدخل المتحف إلى الشارع التالي. قادت كلارا آمال التي تأبطتها وهي تحدق إلى الشارع. وعليه أخذت كلارا تُفَكّر في مكانٍ قريب تعثر فيه على مقهى إنترنت، لأنه على الرغم من أنها أخبرت آمال مسبقاً بأنه يمكنها الاتصال على راوية من نَقّالها الآيفون عند الضرورة عبر حسابها على السكايب، لكن تبدو آمال غير راغبةٍ بذلك، فهي تريد «أن ترى راوية بوضوح على حقيقتها قدر الإمكان»!.

مَثُلَت أمام أعين كلارا شاشةٌ ضخمة لمكتب تارون الهندسي فتوقفت، إذ إن مكتب تارون يقعُ على مقربةٍ من هنا ومن المؤكد أن تكون إحدى غرف المؤتمرات هناك شاغرةً مما سيمنحهما أجواءً هادئةً وشاشة كبيرة وشبكة إنترنت أكثر موثوقية من أي مقهى إنترنت. حسمت كلارا الأمرَ بسرعة، اتصلت على تارون وقالت له بأن الأمر يتعلق بآمال وبحالةٍ طارئة، وبأنهما بحاجة إلى كمبيوتر وغرفة هادئة على مدى الساعتين التاليتين. وسألته كلارا عما إذا كان بإمكانهما استخدام مكتبه، وأضافت بأنها لا تستطيع أن تشرح له الوضع بسرعة، ولكن الأمرَ خطير فهناك شخصٌ ما قد مات.

وافقَ تارون على الفور وأضافَ: «سأُعِدُّ كل شيء».

إلا إنه ليس من السهل تماماً على كلارا إقناع آمال بخطتها.

سألت آمال مراتٍ عدة فيما لو كانت الأجواءُ هادئة في المكتب. وعدتها كلارا بذلك وأوضحت لها أنه في المكتب الهندسي الكبير توجد العديدُ من قاعات المؤتمرات ولا أحد يعملُ فيها بشكلٍ دائم. وأخيراً ما كان للشاشاتِ الضخمة و«شبكة الاتصال الجيدة المضمونة» إلا أن تقنع آمال بذلك.

وبالفعل وجدتا كلَّ شيءٍ جاهزاً منذ دقائق. جلست كلارا بجانب آمال في قاعة المؤتمرات، وخلف نافذةٍ عريضة كانت ستائرُ «الشالوزين» المائلة تحجبُ أشعة الشمس وفي الوقت ذاته تمنحُ إطلالةً على نهر «السبريه» و«القناة الملاحية». لم تلمس آمال الماء والبسكويت الذي أحضره تارون لهما، بل بدلاً من ذلك أخذت تحدق إلى الشاشة. ارتبط حساب السكايب الخاص بها بالإنترنت في حين لم ترتبط راوية بالإنترنت بعد، مما جعل آمال تشعرُ بالقلق، فكتبت رسالةً مرة أخرى لها وأرسلتها. أمسكت أصابعها بفخذيها بقوة، فتألمت كلارا لها وهي تراقبها. فكّرت في قول شيءٍ ما، وضعت يدها برفقٍ على يد آمال، وأضاءَ أخيراً الضوء الأخضر الآن بجانب اسم راوية وسُمع رنين الجرس.

«راوية»!.

«آمال»؟.

«راوية! عشتار ــ ».

أومأت راوية برأسها أمام الشاشة. «آمال..»..

أصبحت محادثتهما أبطأ مما كانت تتوقعه كلارا بعد المكالمة الهاتفية في المتحف. حدقت الأم وابنتها بعضهما إلى البعض الآخر في الشاشة، رفعت كلتاهما اليدين في الوقت ذاته وخفضتاها ثانيةً. ومن خلال صورة الكاميرا المصغرة تعرفت كلارا إلى امرأةٍ جميلة تبدو ذكية وذات ملامح واضحةٍ منسجمةٍ ورقيقةٍ طويلة. وضعت راوية نظارتها على شعرها الأسود الذي كانت تربطه بهيئة «ذيل حصان» يتدلى على الجهة اليمنى من كتفها حتى صدرها، وعلى ترقوتها العارية تلمعُ سلسلة فضية يطابقها قرطان فضيان في أذنيها.

يبدو أن راوية سألت آمال عن المكان الذي توجد فيه، لأن آمال أشارت بيديها إلى الغرفة وإلى كلارا وذكرت اسمها لها.

«مرحباً» سمعت كلارا راوية تقول ذلك ثم أردفتها باللغة الإنكليزية بعبارة: «شكراً لكِ».

أومأت كلارا برأسها ولكن قبل أن تجيب بشيءٍ لطيفٍ بدأت آمال بطرح الأسئلة على راوية. آمال تسأل وراوية تجيب بنبرة صوتٍ فيها عجلة، تقابلها نبرةٌ من جانب آمال فيها وضوحٌ وحِدَّة أكثر. إن كلارا تعلم أن الانفعال العاطفي حتى إن كان وُدِّيا يبدو اندفاعياً بعض الشيء بالنسبة إلى أذنٍ لا تفهم اللغة ولا تدركها إلا عن طريق المحاكاة الصوتية، ولكن مع ذلك شعرت كلارا أكثر بأنه يتوجب على راوية أن تدافع عن نفسها أو أن راوية تشعرُ أن عليها أن تُبرر موقفها إزاء آمال.

«لا»! سمعت كلارا راوية تصرخ بهذه الكلمة مراتٍ عدة، لكن يبدو أن آمال لم تتقبل هذه الـ«لا»!، فأخذ صوتها يعلو وكلماتها أخذت تتسارع، وفي الوقت الذي أدركت كلارا تقريباً أن الاندفاع أو الغضب أصبح الآن جزءاً من المحادثة، نادت راوية بصوتٍ عالٍ: «لا، آمال، ابقي أنتِ في مكانك! ابقَيْ أنت في برلين»! ولكن لماذا تكلمت بالإنكليزية؟ وهذا ما جعل كلارا تظنُّ أن الكلام موجه إليها فنظرت إليهما ــ .

أدارت آمال رأسها بعيداً عن راوية ونظرت صوب كلارا وكانت نظرتها حادة ومتوترة.

«ما الأمر»؟ سألتها كلارا بحذر.

«أريد أن أذهب إلى بغداد»، قالت آمال بحسرة، «لحضور جنازة جدتي. إنها جدتي! ينبغي أن أجلب لها وردَ البنفسج الذي وعدتها به».

«عشتار ماتت» أردفت راوية قائلة، «وأنت ابقي حيثما أنتِ بأمان»!.

لكن آمال أومأت برأسها وقالت: «عليَّ أن أذهب، ينبغي أن أذهب! لقد وعدتُ جدتي»!.

«ولكن ماذا بشأن طلبكِ في الحصول على لجوء»؟ صاحت كلارا بدهشة، فتلقت من آمال نظرة تساؤل واضحة تقول: بجانب مَن تقف هي الآن.

«آمال، بالطبع أنتِ معنا ــ » أضافت راوية التي ظهرت عبر الشاشة من جديد، «ولكن بعد كل ما قمتِ به ــ بعد كل ما حدث ــ ينبغي لكِ البقاء في برلين! فالوضع هنا غير آمن، ينبغي لكِ..». لم تستطع راوية قول المزيد لأن الشِّجار بينها وبين آمال نشب مرة أخرى، أما كلارا التي لم تفهم أية كلمة فكانت ترى كيف إن آمال تتدب وتبكي وتصرخ، هذه المرة بجسدها كله: إذ أطلقت لأذرعها العنان، بدأت تقل لفات شعرها، تضرب مراتٍ عدة بقبضات يدها على ركبتيها ــ وعندما بدأت أقدامها تضرب الأرض تساءلت كلارا عن سبب إيذاء آمال لنفسها هكذا. شيئاً فشيئاً دفعت آمال بأقدامها الكرسي الذي تجلس عليه نحو الخلف، وراوية تكافحُ خلف الشاشة بدموعها، تمسحُ أجفانها، تصرخُ وترفعُ يديها متوسلةً، في حين تصرُّ آمال أكثر، تصرخُ، تنحني، تريد أن تقفز، حتى ضمتها كلارا بين ذراعيها ونظرت إليها قائلةً: «اسمعي آمال، أنصتي إليّ! أنا أذهب إلى بغداد نيابةً عنك! سآخذ لجدتك ما أردتِ أنتِ أخذه لها. اتفقنا؟ أريد أن أفعل ذلك من أجلكِ. اتفقنا»؟.

حدقت آمال إلى كلارا، فإنه ليس واضحاً ما إذا كانت قد فهمتها تماماً. استغلت كلارا لحظة الحيرة تلك وواصلت حديثها ولكن هذه المرة ببطءٍ شديدٍ وواضح لدرجة أنه حتى راوية فهمت ما قالته: «سأذهب إلى بغداد نيابة عنكِ! سآخذ لجدتكِ عشتار ما أردتِ أنتِ أخذه لها، أعدكِ بذلك! لكن ينبغي لك البقاء هنا من أجل جدتك وعائلتك ــ ولانتظار قرار المحكمة. اتفقنا»؟.

مضت كلارا في حين عادت آمال إلى مقعدها ثانيةً وأومأت برأسها، الأمر الذي لم تستطع كلارا تفسيره على الفور، فقد تستدير آمال في اللحظة التالية وتضرب نفسها أو تجهش بالبكاء كالطفلة، ولكن لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل، بل بدلاً من ذلك عادت آمالُ تدريجياً إلى هدوئها، أخذت نَفَساً عميقاً مراتٍ عدة وسألت بهدوء: «هل تفعلين هذا حقاً؟ أتفعلين ذلك من أجلي؟ تذهبين إلى بغداد»؟

إنَّ شيئاً ما في صوت آمال بالإضافة إلى تعبير الدهشة النابعة من عدم تصديقها لذلك وأمنيتها الخفية أثَّر في كلارا بشدة، فأومأت كلارا برأسها، انحنت وأخذت يد آمال إلى يدها: «نعم، آمال. سأفعل ذلك من أجلك، أعدك! بإمكانك الاعتماد عليَّ. سأذهب إلى بغداد».

لم تعلم كلارا بعد ذلك بالضبط كيف أنهما وصلتا محطة القطارات حيثما انطلق القطار ولوَّحت إلى آمال بيدها. بالتأكيد تساءلت كلارا فيما لو أنها تترك آمال وحدها في هذه الحالة وفيما لو أنها متأكدة من أن آمال لن ترتكب أية حماقات، وإن كانت محقةً بذلك فإن ما طمأنها من بين أمور أخرى هو أن آمال، ومثلما تعلم هي الآن، لا تملك حالياً بطاقة الهوية الشخصية. ولكن ليس هذا هو الشيء الوحيد الذي طمأنها، وإنما أسئلة آمال قبل ذلك أيضاً عندما كانتا تشربان الشاي في مقهى المحطة عن إن كانت كلارا متأكدة حقاً ما تقول، وما إذا كان ممكناً لها بالفعل الذهاب إلى بغداد من أجل آمال، وما إذا كان لديها ما يكفي من المال لذلك، وما الكيفية التي تنوي بها نقل ورود البنفسج

معها... أوضحت كلارا كلَ شيءٍ لها بهدوء لكنها لم تفكر وهي تشرب الشاي الساخن كيف أنها ستخبر المستشفى وتارون بسفرها هذا، ومع ذلك أومأت إلى آمال برأسها ورأت كيف اضمحلت التجاعيدُ من جبينها وحول عينيها شيئاً فشيئاً، وكيف تدفق الدم بهدوء إلى وجهها وجسدها تدريجياً. وعندما أصبحت يدا آمال في وقتٍ ما دافئة كما كانتا عليه هذا الصباح في المتحف أدركت كلارا سبب قيامها بهذه الرحلة: لأنها تستطيع القيام بذلك، هي ذاتها «كلارا هوبريشت» بجوازها الألماني، والأهم من هذا لأنها تريد أن تفعل ذلك. فهي ببساطة لم تشعر منذ مدةٍ طويلة بشيءٍ جيدٍ كهذا لا علاقةَ له بعملها في المستشفى.

ابتعد القطار عن الأنظار وما زالت كلارا تسمع آمال ثانيةً وهي تهمس لها عند الوداع: «شكراً لكِ كلارا، أنت صديقة بحق».

الفصل الثالث

آمال

آمال، هل أنت نائمة؟ طفلتي، عليكِ أن تنهضي، فالشمس انزلفت والطقس أصبح هنا على العشب حاراً جداً ـ لكنه تحت أشجار النخيل أفضل، إن غطاءكِ جاهزٌ هناك بالفعل، هل ترينه؟ آمال، لماذا ترُصِّين أذنك في العشب، عيناك مفتوحتان وأنت لست نائمة، ماذا تفعلين إذاً؟ أتريدين سماع جدكِ بعد أن أخبرتك أمك بالأمس بأنه راقدٌ تحت الأرض؟ ولكن حتى من أجل ذلك عليك أن لا ترُصِّي أذنك بالعشب، فبإمكانكِ التحدث إليه في كل مكان. حبيبتي، إنه ينصتُ إليك، تماماً مثلما ينصتُ هو إليّ، جربي ذلك وسترين... لا بد أن أسقي الزهور الآن، فزهور الدفلى تجعدت، وإبريق الماء أصبح ثقيلاً عليَّ. هل تساعديني يا آمال؟ آمال، انهضي، أرجوكِ!

«آمال، هل أنتِ نائمة»؟ ربتت يدٌ على كتفها لمدةٍ وجيزة ثم اختفت. إنها نوريج التي همست قائلةً: «أردتُ فقط أن أسأل فيما إذا كنتِ تحتاجين إلى شيء ما». أيقظَ صوتها في آمال صورةَ الغرفة ـ حيث السريران، والمنضدتان، والكراسي، واثنان من خزانات الملابس ـ ، حتى الوسائد التي تضعها على عينيها لم تنفعها إزاء هذا كله، إذ إنها لم تردّ، ولم تتحرك. {الأمر يتعلق} بالجدة، ففي بادئ الأمر كان الأب والآن هي {الجدة}.

إنها تعرف شيئاً كهذا، إذ قالت نوريج الليلة الماضية بأن المرء فقط عند وفاة شخص عزيزٍ عليه سيدرك إلى أي مدًى يعتبر الأشخاص الآخرين ممن هم في عِداد المفقودين رسمياً، أمواتاً أيضاً بالفعل، مع أنه قد لا يقول ذلك، ومع أنه حتى لم يصدق ذلك بالفعل، ولكن بعد لحظةٍ واحدة، أي في اللحظة الأولى فقط، سيعتقد لا إرادياً أنه هو أيضاً كذلك.

«ماذا يأتي في المرتبة الأولى، ومَن هو الأقوى في النهاية، الأمل أم اليأس»؟، فكَّرت نوريج بذلك بصوت عالٍ في أثناء نزهتها يوم أمس. «إنَّ العقل يُجبركَ على إبقاء كلا الخيارين مفتوحاً أمامك ولكن مَن يستمع إليه..»، أخفضت نوريج رأسها إلى الأسفل، ابتسمت قليلاً وأضافت: «منذ وجودي هنا وأنا أعتقد دائماً مراراً وتكراراً أن المعركة بين العقل والمشاعر لا تُحسم بدنياً. ما دمنا نسير أو نجلس تكون السلطة العليا فينا للعقل، أما نحن فيمكننا أن نستقصي ونُقيِّم ونصنِّف. ولكن بمجرد أن نستلقي (توقفت نوريج) فإن الطاقات ستتدفق عبر الجسم بشكلٍ مختلفٍ، فلا يعد المركز في الرأس وإنما في مكانٍ ما هنا». وضعت نوريج هنا يدها على صدرها ومن ثم أسفل بطنها. كانت آمال تنظرُ إليها وتتابع يدها متسائلة عما إذا كان هذا هو السبب وراء قضاء نوريج وقتاً طويلاً في سريرها، أو أن نوريج تؤمن بنظريتها كونها تبقى مستلقيةً كثيراً؟

إذا استلقى المرء مثل آمال الآن فإن كل حركة له ستكون أكثر إرهاقاً عليه، وكلما طالت مدة بقائه في السرير، بدا معناها مشكوكاً فيه أكثر... وتذكرت آمال أن البروفيسور علاوي يعلم ذلك أيضاً. وفجأة تذكرتْ تلك الأمسية التي عادت فيها راوية مكتئبةً من زيارتها للبروفيسور علاوي، إذ عانقت الأب أولاً دون أن تتكلم ثم احتضنت آمال قبل أن تقول أي شيء. إن البروفيسور علاوي هو أستاذ راوية في علم الباليوغرافيا وكان قد علّمها فك شفرات الخط المسماري، وقد استُبعِدَ من الخدمة الجامعية فجأة وأُحيل على التقاعد قبل بضعة أسابيع ولا أحد يعلم بالضبط ما السبب، لكن انتشرت في أروقة الجامعة إشاعة وجود نزاع بين علاوي والعميد الجديد الذي هو عضوٌ مخلصٌ في الحزب. إلا أن الشيء الوحيد الذي كان مؤكداً هو عدم توقع أي تفسير من الجانب الرسمي. لذا ذهبت راوية أخيراً إلى الشقة الصغيرة قرب نهر دجلة حيث عاش علاوي سنوات طويلة أرمل. وإذا كانت راوية قد زارت معلمها القديم بقصد معرفة المزيد من التفاصيل عن ظروف فصله، فمن الواضح أن ذلك أصبح غير مهم في فترة ما بعد الظهر، لأن راوية لم تقل شيئاً عنه بعد عودتها في المساء، بل كان استياؤها من ما وصفته بـ«تحجر» علاوي كبيراً جداً. «كانت الشقة غير مرتبة ونتنة، وكان البروفيسور علاوي مُبهدلاً ونتناً، في حين كان يرتدي في الحرم الجامعي البدلة دائماً. ومن الواضح أنه كان يعتمدُ في غذائه على المعلبات وينام بملابسه» قالت راوية. لكن ما صدمها كثيراً هو السبات العقلي الذي يتمتع به علاوي، إذ إنه عاد لا يقرأ الجريدة، ثم إنه لم يذهب إلى الطبيب لمعالجة النقرس لديه، بل يتناول مسكنات حسب تقديره الشخصي ويقضي أيامه بـ«الكسل المتزايد». وعندما سألته راوية عن سبب عدم قيامه بشيء ما، أجاب: «لمَ لا؟ ألا يجوز لي أن أقرر ما يحدث لي؟ ألا يمكنني فعل ما أريد الآن بعد أن أُسْكِتُّ، إذ حياتي وأفكاري عادت لا تؤثر في حياة أي شخص آخر؟ وهذا يعني أنه ليس هناك شيء للقيام به بعد». أوضح علاوي لراوية، تلميذته السابقة، بأن كل شيء أصبح لا معنى له، وبأن مواصلة العيش على رغم هذا كله أمرٌ لا جدوى منه: «إنه أمرٌ أكثر من أن يُنعت بالسخيف، أمرٌ مثيرٌ للسخرية، مضحِك! أتعلمين يا راوية إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُزعجني ويؤذيني الآن هو أن أرى نفسي على الرغم من الحقائق مستمراً مثل جرذ عاجزٍ يدورُ في عجلة، مثل عبدٍ محكومٍ بالأمل، وقردٍ يحبس عينيه بين قضبان القفص ويقنع نفسه بأنه ليس هناك قفص على الإطلاق... كلا، يا راوية. كلا. هذا غير ممكنٌ».

همستْ راوية بهدوء: «أتعلمون ما الشيء الذي كان أكثر ريبةً؟ هو إن كل شيء قاله بَدَا منطقياً جداً، حتى إنني لم أتمكن من مجادلته إطلاقاً».

«آمال؟ أتريدين شاياً؟ آمال».

«نعم، نوريج. شكراً لكِ»، أجابت آمال واستدارت ببطء.

كلارا

لم تتفاجأ كلارا من اندهاش تارون من خبر سفرها إلى العراق، إلا أن ما فاجأها هو ردة فعله على هذا الخبر.

«أتريدين الذهاب إلى بغداد بمفردكِ حقاً؟ أليس هذا فيه خطر عليكِ»، سألها تارون بقليل من الدهشة.

أومأت كلارا بكتفيها: «سأنتبه إلى نفسي. وآمال سوف تنصحني بوسيلةِ نقلٍ وتخبرني بالضبط إلى أين ينبغي لي أن أذهب وأين ينبغي أن أكون».

«وهل تعتقدين أن هذا كافٍ»؟.

تأملت كلارا تارون: فهي تعلم أن سؤاله منطقيٌّ تماماً ولا يقصد به فخاً، بل بدا لها هكذا لأنها لا تملك جواباً مباشراً لذلك؟

وبدلاً من ذلك سألته كلارا: «هل أنت قلقٌ عليّ»؟.

نظر إليها تارون مندهشاً: «بالطبع، نعم».

«لا داعي إلى ذلك» ردت كلارا. إن قلق تارون عليها أثَّرَ فيها بعض الشيء مع أنها تعلم أن ذلك لن يؤثر في قرارها.

«تارون، أرجوك ثقْ بي. أنا أثقُ بك أيضاً وبأنك لن تسقط من سقالةِ بناءٍ غير راكزة في هاورا أو أن يعترضك راكبُ دراجةٍ نارية على الطريق».

نظر إليها تارون كما لو كان الأمرُ مختلفاً، غير أنه لم يقل شيئاً. إذ إن ما طلبه منها مؤخراً بشأن تفهّم الآخر والتسامح هو ذاته أسكته الآن، هكذا ظنت كلارا وشعرتْ بطريقةٍ ما بالارتياح لرؤيتها أن تارون ذاته يتصارع مع نفسه أيضاً، وأن عليه هو أيضاً أن يتغلب على نفسه، إذ إنه ليس من السهل عليه دائماً أن يتقبل القرار الذي تتخذه كلارا وتطرحه أمامه دون الاستعداد إلى مناقشتهِ.

«وماذا بشأن عملكِ»؟ سألها تارون في نهاية الأمر.

توجب على كلارا أن تبتسم لهذه المحاولة الجديدة منه. «سيُسَوَّى الأمر. أستطيع أن أتدبر ذلك» ردت بهدوءٍ نسبي.

وفي لحظات الصمت التي تلت ذلك أخذت كلارا يد تارون وقالت له بلطف: «تارون، ينبغي أن أذهب إلى هناك. الرحلة إلى بغداد مهمة. عليَّ أن أفعل ما لم تستطع آمال وأي شخص آخر فعله. هل تفهم ذلك»؟.

رفع تارون رأسه ونظر إليها كثيراً ثم أومأ برأسه، أخذ رأسها إليه وقبَّلَ فمها بحب، راغباً في الاقتراب منها أكثر وأكثر.

«نعم، أفهم ذلك يا كلارا ذات الشعر المجعد، أنا أفهمكِ جيداً». أومضَ تارون جفنيه وشعرت كلارا مرة واحدة كما لو كانت هناك عقدةٌ بينهما قد حُلت، العقدة التي تجلت لها الآن بوضوحٍ في لحظة حيرته.

وفي الساعات القادمة التي استثمرها تارون في التحضير لرحلته لاحظت كلارا كيف أنه يفكرُ عنها وجَلَب حقيبتها من الغرفة مع حقيبته ووضع لها أيضاً على المنضدة كابل الشحن الخاص بحاسوبها المحمول.

«شكراً، ولكن ليست بهذه السرعة» أجابته كلارا وهي تضع الكابل في أحد أدراج المنضدة، «ثم إن تأشيرتي ستحتاج إلى بضعة أيامٍ أخرى، إذ إنني سأغادر في الأسبوع المقبل».

«هل حجزتِ»؟ سألها تارون.

أومأت له كلارا: «عبر إسطنبول، وموعد المغادرة هو الثلاثاء من الأسبوع المقبل».

«وماذا إذا تأخرتْ تأشيرتكِ»؟.

أومأت كلارا برأسها: «إن موظف القنصلية أكدَّ لي بأنني إذا حجزتُ يوم الثلاثاء القادم فسأكون في أمان».

صَمَتا قليلاً قبل أن يضيف تارون قائلاً: «إذاً ستكونين في السفر عندما أعودُ إلى هنا».

«نعم سيكون كذلك» سمعت كلارا نفسها تقول ذلك وقد أعجبها تآلف نبرة صوتها.

آمال

«بينما تجلس آمال في المطبخ لشرب الشاي الذي أعَدّته لها نوريج سألتها تلك قائلة: «أخبريني يا آمال، قولي لي كيف تتخيلين جنازة جدتكِ اليوم: مَن سيكون هناك وأين ستُدفنْ؟ أين ستذهب أمكِ مع أصدقائها بعد ذلك لتناول الطعام»؟.

أخذت آمالُ رشفةً من الشاي ثم وضعت القدح ثانية على المنضدة محاولةً أن تتخيل جنازة الجدة، لكنها مع ذلك لم تفلح، إذ سرعان ما بللَ الدمعُ خديها، فوضعت نوريج يدها الجافة على يد آمال قائلةً: «إن أمكِ، كما أخبرتِني، ليست متدينة. ماذا بشأن أمها»؟.

«ليس كثيراً»، ردتْ آمال ومسحتْ وجهها بأكمام قميصها، تناولت القدح وأخذت رشفة أخرى من الشاي محاوِلةً أن تتخيل الجدة في كفنها وهي ملفوفةٌ بالكتان من رأسها حتى أخمص قدمها... أومأت آمال برأسها، لا، إنها لا تريد أن تتخيل ذلك.

ثم عاودتْ ذلك لتتخيل الجنازةَ في الهواء الطلق: طارق سيكون هناك وربما عددٌ قليلٌ من أصدقاء عشتار القدامى. أما محمود فإنه سيكون إلى جانب راوية لتقديم المساعدة لها نيابةً عن الأب لكنه سيحرص على عدم الوقوف بجوارها مباشرة لأن نهرين سوف تتأبطها وتتَسَّق ملابسها السود مع وِشاحٍ أحمرَ أو زهرةٍ مفعمة، وربما سيكون خلفهما من بين المشَيِّعين المزيد من أصدقاء راوية وزملائها. وعدا ذلك؟ لن يأتي أحدٌ من عائلة الأب لأن والدة حسن متوفاة وليس لديهم صلةٌ منذ مدة طويلة بأقاربهم وأبناء عمهم الذين هاجروا منذ عقودٍ طويلة، ولا حتى بشقيق حسن الأكبر الذي أنكرَ أمه الشيوعية بعد مدة وجيزة من شنقها.

نظرت آمال إلى النافذة وأخذت تفكر في عائلة راوية. كانت راوية الابنة الوحيد للجدة، ولم يبقَ أحدٌ من أشقاء عشتار على قيد الحياة. أما دينا، الأخت الصغرى للجدة التي عاشت في البصرة، فقد توفيت بمرض السرطان قبل سنوات عدة.

«وفيما يخص جدتي»، بدأت آمال الحديث، «فإنه سوف يجلس الجميع بعد الجنازة أمام معجنات طارق تحت أشعة الشمس يحتسون الشاي أو القهوة ويأكلون البقلاوة. وسيواصل الضيوف حديثهم، وربما سيكون هناك غناء أيضاً وليس مأتماً رسمياً لمدةٍ طويلة، ولا حتى طاولات طويلة لخطبٍ كاذبة وإنما بقلاوة وشاي. إنهم سيواصلون نوعاً ما الحياة التي بدأتها، وهذا ما ستستحسنه الجدة. أتفهمين ذلك»؟.

أومأت نوريج برأسها.

«ربما بعد ذلك ستذهب راوية و» ـ تلعثمت آمال ـ «ونهرين إلى حديقة عشتار للجلوس على قبر الجدة. أعرف تماماً أين سيكون، إنه على مقربةٍ من الجدار، ففي كثير من الأحيان قالت الجدة إنها تريد أن تُدفن بين نباتاتها: إلى جوار الدفلى التي كانت آخر هدايا زوجها لها، وتحت شجرة البرتقال التي زرعتها جدتي قبل وقتٍ قصيرٍ من ولادة أمي، بالقرب من ـ تحاول آمال أن تبتسم ـ ورد البنفسج الذي يعودُ إليّ. وستقوم كلارا التي حدثتكِ عنها بزرع البنفسج الأزرق الذي طلبته مني الجدة عند قبرها، إنها وعدتني بذلك».

وضعت نوريج قدح الشاي وسألتها: «هل قلتِ إلى كلارا بأن تزرع البنفسج عند القبر، لا أن تضعه عليه»؟.

رفعت آمال كتفيها: «سأوضح ذلك لها مرةً أخرى ولكن كما تعلمين، سواء كانت التقاليد كذلك أو لا، فإن جدتي لم تكن مؤمنةً وأعتقد أنه حتى البنفسج ـ ترددت آمال قليلاً وأرادت أن تقول «فوق» لكنها قررت أن تقول «على» ـ على رأسها الميت لن يزعجها. بل على العكس من ذلك. أعتقد أن جدتي ستفرح حينما تشعر بتحياتي لها من بعيد متجذرةً مع ورد البنفسج الأزرق».

أومأت نوريج برأسها مرة أخرى وقالت فجأة: «أتعرفين صورة المرأة ابنة الإله على ما أظن التي تنمو الزهور على أصابعها»؟.

أومأت آمال برأسها، ابتسمت ورأت كيف اغرورقت عيناها ثانيةً.

دقّ البابَ شابٌّ «جديدٌ» لا تعرف آمال اسمه، ودخل المطبخ وهو يلوح بعلبة الحليب الفارغة متسائلا ما إذا كان بإمكانهم مساعدته ببعض الحليب. نهضت نوريج، ذهبت إلى الثلاجة، ملأت كوباً من علبة الحليب لديها وأعطته إلى الرجل.

«شكراً لكِ»، قال لها وأخذ ينظر حوله في الغرفة ووقفَ للحظةٍ كي يرى على ما يبدو فيما لو سيقام هنا فطورٌ جماعي، إلا أن صمتهما فقط جعله يفهم أنه لن يكون هناك فطورُ تعارف سعيدٌ هذا الصباح، فرفع يده بعد ذلك وخرج.

«من المحتمل أنه واحدٌ من القادمين الجدد في الجناح الغربي»، خمنت نوريج وأومأت آمال برأسها شاردة الذهن.

بعد ذلك بقيت آمالُ وحدها في الغرفة حينما ذهبت نوريج إلى محاضرة الجمباز وتركت كتابَ حكايات ألف ليلة وليلة على سريرها كالوديعة، أرادت آمال أن تعاود القراءة لكنها لم تستطع، ثم أرادت أن تكتب إلى كلارا معلوماتٍ عن بغداد فلم تستطع أيضاً، وأرادت أن تكون بأفكارها عند المأتم الذي يجري الآن لكنها لم تستطع ذلك كله أبداً. كان كل انقطاع {بالأفكار} يضع آمال تحت ضغط التوتر مما يبقيها مستيقظةً لمدةٍ طويلة وينهكها في الوقت ذاته. الآن، في هذه الدقائق تجتمعُ راويةُ والآخرون كي يودعوا عشتار، دون أن تكون هناك أي شاشةٍ في العالم تمكّنها من أن تكون بينهم. أخذت آمال تمشي في غرفتها من الباب إلى النافذة وبالعكس. وعلى سطح المكتب يوجد دفتر ملاحظاتها المطوي، فتناولت القلم وجلست وأخذت بالتفكير مرة أخرى: هل ترسم المرأة ذات الأصابع المزهرة؟ لا، ليس الآن، أو ترسم نمراً في قفص؟ قد يزيد ذلك من صداع رأسها، أو طائراً؟ استمري بالحلم، أو كلباً متذمراً؟ لماذا؟ بدأ قلم الرصاص يحفرُ الورقة ويثقبُها مشكّلاً حفرةً، لكن آمال لن تترك الأمر بل استمرت بالحفر حتى سمعت فجأة صوتاً مدَوِّياً في الممر، فتح الباب ودخلت نوريج الغرفة مضطربةً: «لقد حصلتُ عليه يا آمال! ها هو تصريح اللجوء، يمكنني البقاء هنا»!.

كلارا

قبل أن ترسل القائمة سألت كلارا نفسها للمرة الأخيرة إن كانت سترهق آمال أكثر بالأسئلة الكثيرة تلك، حتى إن كانت آمال لا تستطيع من هنا من بُعد الاعتناء بمن يبقى لتخفف عنه وطأة الفراغ التي تحلُّ بالمرء عادةً في الأيام القليلة الأولى بعد الوفاة، ولا القيام بـ: التحضيرات الجنائزية وبالزيارات ومكالمات الجيران والأصدقاء. وعلى حد علم كلارا فإن جثمان عشتار شُيِّعَ يوم أمس بالفعل، ومثلما قالت آمال فإن مراسيم الدفن في العراق تتم على أبعد تقدير في اليوم التالي من الوفاة. أبعدت كلارا عينيها عن شاشة الكمبيوتر، حيث يوجد على المنضدة بالقرب منها بذور البنفسج التي اشترتها يوم أمس. أما زهور البنفسج الأزرق المزهرة بالفعل والتي ستأخذها معها على متن الطائرة كي تزرعها في حديقة عشتار فإنها ووفقاً لاتفاقها مع بائعة الزهور ستجليها منها في يوم مغادرتها. رفعت كلارا حاجبيها، إذ إنه ليس بالأمر اليسير زراعة البنفسج الأزرق: «زهور البنفسج في نهاية إبريل»؟، قالت بائعة الزهور بتعجب وأشارت إلى معروضات محلها وأوضحت بأنه ليس لديها المزيد منها قط: «بالتأكيد ترين ذلك»!، فقط عندما بدأت كلارا تروي القصة لها موضِّحةً بأنها من أجل هذا البنفسج المزهر تريد أن تسافر إلى العراق، إلى بغداد، لجأت بائعة الزهور إلى الهاتف واتصلت بمُوَرِّد الزهور إليها، الذي أكّد لها بأنه في الثلاثاء المقبل سيكون في متجرها بعضاً من زهور البنفسج الأزرق المعطر لتأخذها كلارا معها.

حينها سألتها كلارا بحذر: «هل يمكنني الاعتماد على ذلك»؟، أجابتها البائعة: «أن يكونوا هنا، نعم. لكن إن كانت النباتات المسكينة تلك ستنجو من الرِّحلة، وكم من الوقت ستحتمل البقاء في العراق الحار فهذا ما لا أستطيع قوله». ردت كلارا بأن هذا الأمرَ متروكٌ للمستقبل، فالشيء المهم والأساسي هو أن تُغرَس واحدةٌ من ذلك البنفسج في تربة بغداد، وتحديداً في حديقة عشتار.

أخذت كلارا علبة البذور لتقرأ إرشادات استعمالها باللغة الألمانية لأنه ليس هناك أي لغةٍ أخرى على العلبة. بالإضافة إلى ذلك أخذت أكياساً عدة من بذور البنفسج تحسُّباً من أن يتم فحص العلبة ومصادرتها في المطار: تريدين استيراد بذور النباتات؟ للاستعمال الخاص ــ وعلينا أن نصدقك؟ بل إن كلارا احتفظت بكيسٍ بلاستيكيٍّ صغير لحفظ البذور في حال تم في المطار تمزيق الكيس الذي تريد أن تحمله معها في حقيبة الأمتعة اليدوية. وهكذا ستبقى البذورُ محفوظةً حتى وإن لم تكنْ معبأة بشكل «مقاوم للجراثيم»، وهذا هو المهم، مثلما أكدت بائعة الزهور ذلك مراتٍ عدة. لذلك ستضع على الأقل كيسين إضافيين من بذور النباتات في أماكنَ مختلفة من حقيبتها. وبحذر ملأت كلارا الكيسَ العلوي في الحقيبة. ووفقاً لكل ما ذكر في شبكة الإنترنت حوْل إنجاح زراعة بذور البنفسج، وبسبب حرارة طقس العراق فإنه قد يكون من المنطقي وضع البذور أولاً في إناءٍ في الداخل تحت الظل قبل زراعتها في حديقة عشتار الشتاء المقبل وقبل أن تزهر من المؤمل في الربيع المقبل... ولكن هذا ما ينبغي لراوية أن تقرره. وعليه أرسلت كلارا القائمة بكل أسئلتها إلى آمال.

آمال

لم تستطع آمال أن تصف شعورها بالضبط حينما أرتها نوريج الرسالة الخاصة بقرار اللجوء، فأشياءُ كثيرة حدثت مرةً واحدةً وفي آنٍ واحد لدرجة أن المشاعر المتباينة والمتناقضة أحياناً تشبثت في دوَّامة الارتباك. بالطبع هي سعيدة من أجل نوريج وتشعر بالارتياح لأنه أصبح بإمكان نوريج البقاء في ألمانيا. وفي الوقت ذاته تساءلت آمال عما يعنيه ذلك لغرفتهم المشتركة هنا في السكن، فالحقيقة التي تكمن في أن نوريج ستنتقل غداً وقد يشغل سريرها شخصٌ آخر بعد غد جعلت آمال غير مرتاحةٍ وخائفةٍ، فهيَ لا تريد أن تكون بمفردها ثانيةً. إن حزنها وعدم معرفتها يجعلانها غير مرتاحة، ذلك لأنه أمرٌ مريبٌ أن تحصل نوريج التي أتت إلى السكن بعدها على حقّ اللجوء فعلاً، في حين ما تزال هي تنتظر الجواب، حتى إن قالت سينتيا من مجلس اللاجئين مراراً وتكراراً أن أمد الإجراء تعسفي فإن هذا لا يدلُّ بأي شيءٍ على فرص إنجاح الطلب. وبحسب ما ذكرت سينتيا في أحد الاجتماعات الأخيرة معها فإن السوريين يحصلون حالياً على اللجوء في ألمانيا أسرع من أي شخص آخر لكن غالباً ما تأتي حالات الرفض بشكلٍ أسرع بكثير من حالات التعديلات المكثفة. بشكل عام ووفقاً لما قالته سينتيا عصر ذلك اليوم فإن آمال كعراقية في العامِ 2013 عليها أن لا تقلق كثيراً، فالعراق كله تعُمُّه حالة فوضى وانزلقَ أكثر وأكثر في حربٍ أهلية لن تنتهي في المدى القريب... ومثلما تحدثت سينتيا من كرسيها هناك عن الوضع في بلادها وكيف أن جميع الأشياء الغامضة والأخطار اليومية والوحشية التي وقَع والدها ضحيةً لها بطريقةٍ أو بأخرى، وكيف أن كل شيء هنا في الغربة أصبح فجأة لا يُعَدُّ سبباً لطلب الحماية فقط وإنما منفعةً شخصيةً، «مقارنةً بطالبي اللجوء من أوروبا الشرقية مثلاً، الذين يكون موقفهم أصعب»، فإن كل هذا جعلَ آمال تشعرُ بالاضطراب والدوار وبوخزاتٍ في أعلى وجنتيها، الأمر الذي جعلها تعلم حينها أنه ليس هناك ما يساعدها إزاء ارتباك كهذا سوى التركيز على العمل، وعليه قامت بتشغيل كمبيوتر كلارا الخاص بها.

إن قائمة أسئلة كلارا حول رحلتها طويلةٌ ولكنها مدروسة، بدءاً من الوصول إلى المطار، مروراً بالعملة النقدية وبالطريق إلى المدينة، وانتهاءً بالأسئلة حول مكان إقامتها ــ بالطبع تستطيع كلارا البقاء مع راوية والنوم في غرفتها القديمة، وبالفعل قررت آمال ذلك ودوَّنت به ملاحظةً إلى كلارا. فضلاً عن ذلك كانت هناك أيضاً أسئلةٌ حول الحي الذي نشأت فيه آمال. إنَّ كلارا تريد معرفة العنوان الدقيق لحديقة عشتار، وعليه ينبغي لآمال أن ترسمه مع بيت راوية على الخريطة التي ستعطيها إلى كلارا في زيارتها القادمة. وطلبت كلارا منها أن تتناول في الرسم الثاني الحديقة من الداخل مع الموقع الدقيق لقبر عشتار. أدركت آمال في سريرتها سهولة الأمر وتنهدت قائلةً: بجانب الدفلى تحت شجرة البرتقال قرب الحائط: «تماماً هناك، حيث أرادت الجدة أن تكون»، هذا ما كتبته راوية في وقتٍ متأخر من الليلة الماضية في إيميل مطوَّل على غير عادتها تحدثت فيه عن مراسم الجنازة التي تمت قبل الظهر وعن وجبة الطعام فيما بعد. وجدت آمال في سطور الإيميل الذي اطلعت عليه على عَجل صباح اليوم بعضاً مما أخبرت نوريج عنه بالأمس: إذ جاءَ بالطبع كلٌّ من نهرين ومحمود وكذلك طارق وعددٌ قليلٌ من الأصدقاء الآخرين لعشتار، بما في ذلك طبيب العائلة. ثم أكلوا جميعاً في أحد المطاعم ولكن ليس في مطعم طارق وإنما في مطعم كانت عشتار تحب الاحتفال فيه بعيد ميلادها وما إلى ذلك. في الحقيقة لم تتفاجأ آمال بأي شيءٍ كتبته راوية بل لم ترغب في معرفة المزيد عن ذلك في وقتٍ لاحق.

الآن وبعد أن انتهت مراسم الجنازة دون أن تكون هي هناك تريد آمال التركيز على ما ستكون عليه آخر تحيةٍ منها لقبر جدتها: فتذكرت ورد البنفسج الذي ستجلبه كلارا نيابةً عنها إلى حديقة عشتار في بغداد ورجعت إلى قائمة كلارا فقرأت الأسئلة التالية:

8. في الحديقة: حينما أكون هناك بالفعل فينبغي أن أقوم مباشرة بسقي الزرع؟ وإذا كان الأمر كذلك: فأين يوجد خرطوم الماء؟

(الخريطة!) وكذلك يوجد تحت هذا السؤال:

9. لافتات الشارع: هل هي مكتوبة باللغة العربية فقط، في الأقل خارج المنطقة الخضراء؟

نظرت آمال إلى الأعلى وهي تفكر إلى متى سيبقى الأجانب حينما يتحدثون عن بغداد يقسّمونها إلى منطقة خضراء وأخرى حمراء.

كلارا

«انظري»، قال تارون وهو يضع كرتوناً على مائدة الطعام: «إنه لميدري».

على غطاء الكرتون توجد صورةٌ لمواد بناء مختلفة: مثل الآجُرّ والألواح الخشبية، بلاط السقوف، أعمدة رخامية وأسوار، شبكات معدنية وزجاج مؤطر، بل وكذلك كابلات وصَوارٍ وفوانيس وإشارات مرورية صغيرة أيضاً.

«إنه صندوقٌ لمُعَداتِ بناء. في صندوق كهذا كنتُ ألعب وأنا طفلةٌ أيضاً»، أجابته كلارا.

«ولكن بالتأكيد ليس بأشياءَ كهذه»، ردَّ تارون مشيراً إلى قطعتين مربعتي الشكل سوداوَي اللون. «إنها ألواحٌ شمسية تُثَبَّت على سقوفٍ مبنية ذاتياً. إن الكهرباء المُوَلَّدة بهذه الطريقة تعمل على تشغيل المصابيح والفوانيس، بل ويمكن منها أيضاً إنشاء دوائر تحكم معقدة بشكلٍ لا بأس به».

ترى كلارا أمامها زاويةَ لعب ميدري في غرفة نوم والديها. إنها غرفةٌ تميلُ إلى تجنب ضوء الشمس الساقط عليها بدلاً من التأقلم معه.

ثم أضاف تارون قائلاً إن جميع المواد أصلية وليست بلاستيكية، وكدليل على ذلك رفع الكرتون الذي يبدو ليس خفيفاً عالياً.

«هل تتناسب الهدية مع حقيبتك»؟ سألته كلارا.

أومأ تارون برأسه قائلاً: «ستدخل في رف الأمتعة على متن الطائرة»، ثم انصرفَ فرحاً وهو يمشي على أطراف أصابعه.

حَزمَ تارون أشياءه الأخيرة، تجوَّلَ في الشقة ووقفَ لوقتٍ ما عند مدخل غرفة الجلوس. تأملت كلارا ذلك وهي مستلقية على الأريكة وتقرأ.

ثم قالَ هو بشيءٍ من التردد: «أترين تفكيري ألمانيًّا بحتاً أم غربيًّا»؟، رفعت كلارا رأسها من الوسادة مندهشةً واستندت إلى مرفقيها، نظرت إلى تارون الذي كان يمرر قبضة أصابعه على ظهر يده وتذكرت لمدةٍ وجيزة جدالها حول المال الخاص بولادة بريا وأجابته: «فيما لو تفكيرك ألماني بحت؟ لا، لا أظنُّ ذلك. ولكن ما الذي يجعلك تظن ذلك»؟.

استطردَ تارون: «لقد قادني إلى ذلك مدير الموقع في جدالنا الأسبوع الماضي الذي أخبرتك عنه، حينما طلبتُ منه أن يفكر أكثر في موضوع البناء من ناحية الغرض منه ــ عندها اتهمني هو بأني أجادله بطريقةٍ «ألمانية بحتة» أو «غربية»، إذ نعتهُ مرةً بـ«ألماني»، ومرةً أخرى بـ«غربي»، لم يكن واضحاً. كيف ترين ذلك»؟.

بعد شيء من التأمل أجابت كلارا: «إنَّ ما قلته معقول..»..

ابتسم تارون: «حتى هذا أيضاً، على حد قول مدير الموقع، عادةً ما يكون ألمانياً بحتاً أو غربياً: فمجرد الاعتقاد بأن المرء ما هو إلا تناسخ للفكر وأنَّ الجميع أغبياء، بحسب رأي مدير الموقع أيضاً، فإن وجهة نظرك الذاتية فقط ستكون هي موضوعية وصائبة».

حينها أرادت كلارا أن تجيبه بأن الفكر موضوعي في كل مكان، لكنها تركت الأمر حينما واصل تارون قائلاً بالفعل: «أنتَ مثلهم جميعاً! قال لي {مدير الموقع} مثل أولئك الذين يأتون إلينا من أوروبا: يأتون هنا وينظرون إلى كل شيء من ظاهره، ويعلمون كل شيء بشكلٍ أفضل ويطلبون أن يتم كل شيء بالطريقة التي يريدونها هم».

ارتعاشةٌ خفيفةٌ في صوت تارون تكشفُ كم أثّرت مزاعم مدير الموقع فيه حتى إن كان يجدها بالفعل لا مبرر لها. «وعندما أخبرته بأن ما يهمني هو أن أجد لديه لكونه مديراً للموقع مزيداً من المسؤولية وروح المبادرة، وأن هذا ما هو إلا إشارة إلى الثقة بكفايتهِ ــ لكنه أصبحَ حينها سياسياً إن لم نقُل إيديولوجياً»!، أومأ تارون برأسه: «بالنسبة إليه، لأنه كان عضواً في الحزب الشيوعي منذ عقود، فأنا من «أتباع» المهندسين المعمّاريين القادمين من قارة الحكام الاستعماريين القدامى، وكذلك أنا أحد رعايا حكومة الولاية الحالية، وكل هذا فقط لأن حكومة الولاية المدرجة من كونغرس ترينامول على أنها «معارضةٌ» للحزب الشيوعي قد اختارت تصميم البرج ودعمت المشروع. وكان دخول المسابقة مجهولاً في ذلك الوقت»! صرخ تارون. «أما كونغرس ترينامول ــ فقد أعاد قبل بضع سنوات المزارعين الفقراء إلى أراضيهم التي جعلها الحزب الشيوعي تحت تصرف مجموعة إندونيسية من أجل إنشاء مبانٍ صناعية! وهذا كان واحداً من الأسباب الرئيسة التي جعلت كونغرس ترينامول مع رئيسته ماماتا بينيرجي أن يكون قوياً للغاية في السنوات الأخيرة ــ لأن الحزب نفسه تدخَّلَ في قضية سكان الريف الفقراء، لذلك نجح في استبدال الحكومة الشيوعية الحاكمة منذ أربع وثلاثين سنة في البنغال الغربية»!، ثم واصلَ تارون القول: «كانت حكومة تتعتُ نفسها بالشيوعية، ولكن من قبيل الصدفة جاءَ حُكّامها على ما أتذكر ودون استثناء من الطبقةِ الوسطى، لكنّ العقائديين لا يكترثون لشيء مثل هذا». ويؤكد تارون بمرارة مذهلة: «وبالنسبة إلى مدير البناء فإنه يوجد فقط نحن «الرأسماليون» و«رؤساء» المشروع، وهو كجزء من الطاقم التنفيذي الذي حُرِمَ من إلقاء نظرةٍ عامة أو إبداء فهمٍ أعمق وأدق، ناهيك بالتعريف بالمنتج النهائي. ثم إنه لا يُدرك أيضاً بأن موقف المرء هو ما يُحسب ويسجل في الأخير»!

تفاجأت كلارا لرؤية تارون متحمساً جداً هكذا، إذ إنه سبق وأوضح لها مراتٍ عدة على ماذا يعتمد أو يتوقف كونغرس ترينامول، الحزب الحاكم في ولاية البنغال الغربية، ولكن لم يسبق له أن أبدى موقفه الشخصي من الحزب بالشكل هذا.

إن كلارا لا تعلم ما إذا كان تارون ذاته قد انتخبه. لكنها تعلم أنه على العكس من ذلك فإن تارون في شبابه لم يأمل أي «نفاذ حقيقي» من الحزب الشيوعي، وتعلم أن ذلك الإحباط بالتزامن مع أمنيّة تارون هو من قاده إلى الدراسة في الخارج.

«ألا يمكن لمدير الموقع أن يتهمك بالشيء ذاته لو كنت أنت المهندس المدير {للمشروع} هناك»، قالت كلارا له مباشرة. ردَّ تارون بعنفٍ: «لكنني فعلاً قادمٌ من هناك! أتكلم لغتهم ونشأت هناك»!، بالطبع تدرك كلارا ذلك، وعليه أخذت تبحثُ عن حجةٍ أخرى. ثم تابع تارون قائلاً: «إذا كان مدير الموقع شيوعياً هكذا فينبغي له أن يفكر في الأشخاص الذين سيُبْنَى البرجُ من أجلهم! وهذا ما قصدته حينما قلت له إن عليه أن يفكر في الهدف المرجوّ من بناء البرج! إن جميع العاملين في موقع البناء يمرُّون بالأكواخ البلاستيكية في طريقهم، لذا لا يمكن التغاضي عن الظروف التي يتوجب على العمال المهاجرين أن يعيشوها حالياً، فأي تضامن هذا معهم إنْ لم يكن من أجل العمل على مستقبلهم»؟.

تَرَى كلارا أن ما يقوله تارون يبدو مقنِعاً، غير أن الأمرَ يبدو حتى الآن محَيِّرٌ بشكلٍ أكثر.

ثم أردف تارون قائلا بصوتٍ منخفض: «إني أعلمُ ما يعنيه التوقَ إلى الراحة والهدوء الذي يجعل الأفكار أكثر تألقاً، ولم أنسَ ذلك! على الرغم من أنني نشأتُ بين جدرانٍ حجرية حقيقية في مناخٍ يسوده الحب والسعادة وليس تحت أغطية بلاستيكية، ولا أريد هنا أن أجعل ذلك دراماتيكياً على الإطلاق، وحتى كابنٍ لإسكافي كان لدي دائماً ملابسُ نظيفة وآباء داعمين، لكن التوقَ إلى الهدوء ـ يعرفه كل بنغالي نشأ في المدينة هناك وليس في شقق خرسانية فاخرة ذات غرف ضخمةٍ وعازل للصوت ومشغل مصعد شاب». سكتَ تارون، أما كلارا فإنها لا تعرف تماماً بماذا عليها أن تجيبه، لكنها مع ذلك تحاول قولَ أي شيء لأنها ترى تارون يأمل ردة فعلٍ منها، فبادرت القول بشيءٍ من التردد في البداية: «ألا تعتقد أن مدير الموقع يشعرُ ربما أنه مُثقَلٌ؟ فهو في النهاية لا يعلم كيف ممكن لفوضى موقع البناء أن تتحسن. هل لديه خبرةٌ واسعة؟ وهل ستختلف هذه المرة عن الوضع المعتاد، وإذا كان الأمر كذلك فأين يكمن ذلك الاختلاف»؟.

أومأ تارون بمنكبيه: «لا أستطيع الحكم على ذلك عن بعد. ولكني إذا ذهبتُ إلى هناك سأرى ذلك بالطبع»، قال ذلك وأراد أن يضيف المزيد لولا أن نَقَّاله رنَّ، فاستدار حينها وذهب إلى المطبخ ليتلقى المكالمةَ هناك. وبعد بضع دقائق رجع إلى غرفة الجلوس.

«إنه أندرياس، يقول إنه تلقَّى بريداً إلكترونياً من بروفسور في جامعة كالكوتا كان قد قرأ مقالاً عن برجنا ويود مقابلتي».

أومأت كلارا برأسها.

«وتمنَّى لي أندرياس رحلةً موفقة وذكرَ لي اقتباساً لـ«ميس ـ فان ـ دير ـ روه»»، فظنت كلارا أن هذا هو واحدٌ من المهندسين المعماريين الأربعة الكبار المعلقة صورتهم في غرفة اجتماعات المكتب المعماري في الغرفة المطلة على نهر السبريه التي جلستْ فيها مع آمال.

وذكرَ لها تارون الاقتباس قائلاً: «إنَّ فن العمارة هو إرادة جيل تُترجم إلى أرض الواقع».

نظرت كلارا عبر النافذة وهي تضع الاقتباس في ذهنها بجانب مبنى ميس ـ فان ـ دير ـ روه: وهو عبارة عن مكعبٍ من الصلب والزجاج، واضح الشكل وله شفافية أو نفاذية كاملة.

بينما كان تارون يبتسم، كانت كلارا تسترقُ النظر إليه، إلا أنه ليس واضحاً ما إذا كان ذلك نتيجةً لتأثره بفخامة الاقتباس أو لسخريته منه أو لكليهما معاً. ثم إنَّ كلارا ترى أنه من غير الواضح إن كان تارون يشاركها أفكارها ويتساءل أيضاً عمَن هو المقصود بـ«الجيل» في هذه الحالة: هل هو أندرياس وتارون، أو تارون ومدير موقع البناء، أو الهنود في موقع البناء، أو جميعهم معاً؟ وهل هذا ممكنٌ؟ وقبل أن تفصح كلارا بذلك علناً اقترب منها تارون، ضمَّ وجهها بيديه وقال لها بجديةٍ غير متوقعة:

«كلارا، أرجوكِ كوني حذرةً في العراق».

أومأت كلارا برأسها، وتَعانقَ الاثنان.

حينما مرت سيارة الأجرة بعد أقل من ساعة عبر الشارع الهادئ شعرتْ كلارا فجأة ببعض الضيق في الصدر، نظرتْ إلى السيارة من على الرصيف دون أن تلوّح بيدها لأنها ترى هذا الشيء طفولياً وتساءلت ما إذا كان تارون يتحدث بحماسة الآن مع سائق السيارة أو يتفقد محفظته أو يفكر فيها. وعندما انعطفت السيارة عند التقاطع في مقدمة الشارع واختفت تساءلتْ فيما لو كان عليها أن تلوح له بيدها بالفعل أم لا.

آمال

يبقى الوداعُ وداعاً حتى وإن كان لأسبابٍ سَارّة. وربما هذه المرة الخامسة التي تفتحُ فيها نوريج سحّاب حقيبتها الأديداس الحمراء لتتفحص محتوياتها كما لو كانت أمتعتها تزايدت بصورةٍ عجيبة. أخيراً مدت يدها بحزم وسحبت كتاب قصص ألف ليلة وليلة وناولته إلى آمال وسألتها: «هل تستطيعين إعادته لي فيما بعد»؟، ثم أضافت مباشرة: «تنتهي مدة الاستعارة في أسبوعين فقط».

وبإيماءةٍ بالرأس أخذت آمال منها الكتابَ الثقيل وشكرتها عليه. كلتاهما تعلم أن تسليم الكتاب هذا هو بمثابة هدية، الهدية التي ستقدمها نوريج إلى آمال إن كان لديها بالفعل شيء لإهدائه إليها.

إنَّ نوريج التي لم يغِبْ عن بالها أن رفيقتها السابقة بالسكن تتصارع مع الحزن، أحاطت كتفَيْ آمال بذراعها قائلةً: «لنأكل الآن، أليس كذلك؟ فعندما يقول «أبو» إنه يعد شيئاً صغيراً لأصدقائه فهذا يعني بالتأكيد وليمةَ حفل».

إن «أبو» الذي تلقى مثل نوريج إشعار اللجوء قبل يومين عندما يتحدث عن «أصدقائه» يقصد بذلك، وآمال تعلم هذا، ليس فقط الناس المقربين له في السكن وإنما جميع مَن هم في المسكن. فنزلاء السكن جميعهم «أصدقائه»، والسكن هو ليس مجرد سكن بل هو «بيتنا». باستمرار كان «أبو» يتجنب استعمال المصطلحات التكنيكية مثل «اللجوء» أو «الإشعار»، ويفضل أن يسأل فيما لو وصل «الجواب» بالفعل أو لا. وبدلاً من «اللجوء» يتحدث عن «حق البقاء»، وكان ينعت مدير السكن مازحاً بـ «الرئيس».

وها هي تتبعثُ من المطبخ الموجود في ممر «أبو» رائحة النعناع الطازج والليمون والثوم المقلي. وقد وُضِعتِ الأطباق السورية مزيَّنة بدهاءٍ على طاولةٍ بلاستيكية مملوءة تماماً بـ: خبزٍ باللحم المفروم، سلطةِ العدس، أوعيةٍ عدة من التبولة، ملفوفِ ورق العنب، صلصةِ الفلفل الحلو واللوز، وحتى بالكِيك. وكان باب المطبخ الذي يقود «أبو» إلى الخارج وتحديداً إلى «الحديقة» مفتوحاً دائماً، وكلما اقترب «أبو» عبر العشب بدا إلى آمال كما لو كان الرجل العجوز يهز ورْكَيْه مع كل خطوة يسحب {فيها أقدامه}.

ثم صاحَ فرحاً: «آمال ونوريج، كم هو جميلٌ! أتمنى أن تكونا قد أحضرتما الجوع معكما».

أعطته نوريج زجاجةَ آراك جلبتها قبل ظهر اليوم وأشارت إلى آمال قائلةً: «إنها مِنّا نحن الاثنتان».

مغتَبِطاً مَنَحهما «أبو» كأسين. إن من الأمور التي يتعلمها المرء في السكن بشكلٍ سريع هو أن يحضر كل شخص طبقه وأدوات الطعام الخاصة به عند تناول طعام جماعي في السكن. وعادةً ما ينطبق هذا على الأقداح أيضاً، لكن في حفل اليوم أجرى «أبو» استثناءً بحيث إنه جلبَ مسبقاً العديد من زينة الأكواب ووزعها بشكل صفَّيْن على رفٍّ طويل.

كما كان في متناول اليد قارورة الماء البارد ومكعبات الثلج للآراك. ثم سُمِعَت طقطقةُ الأقداح حينما شربوا نخب «المستقبل والأصدقاء البعيدين».

وبينما وضعت آمال القدح على شفتيها أدركت أن الأمرَ هو هكذا تماماً، إذ يكون هناك دائماً بعضٌ من الوعي في البُعد {الغُربة} يُشعِر المرء كأنه في بيتهِ وإن لم ينتمِ إليه. وتأثرت آمال لرؤية الكثير من الناس وهم يتوافدون باستمرار إلى المطبخ الصغير الرث نوعاً ما ويعانقون «أبو» بغبطة ويُرَبِّتون على كتفه، أو يُومِئْن له النساء المحجبات برؤوسهن بلطف. جميعهم يحبون «أبو» السوري اللطيف المرح، صغاراً وكباراً من العرب وأوربا الشرقية، المتألمون سراً واليائسون علناً. كلهم يدخلون حاملين معهم

سكاكينهم وأشواكهم ويملؤون أطباقهم بما لذ لهم من العدس واللحم الحلال طبعاً {المذبوح على الطريقة الإسلامية}!، وكذلك من ملفوف أوراق العنب والتبولة، ثم يخرجون إلى الحديقة لأن المطبخ سرعان ما يمتلئ بالناس من جديد. أما الأطفال فإنهم على أية حال يلعبون في الخارج ولا يدخلون المطبخ إلا عرضاً ليتوجهوا نحو البوفيه من أجل التقاط قطع الكعك على الفور وتناولها بسرعة ــ ما دامت لا تصلها أيادي الآباء. تراقبُ آمال هذا كله وترى أن هناك شيئاً آخرَ أيضاً، ألا وهو: كيف أن نزلاء السكن ولا سيما الرجال يقفون في كل مكانٍ مستمتعين في تبادل الأحاديث بينهم دون الشعور بالحرج أو الغربة. ففي الحياة المحكومة أساساً بالانتظار: انتظار جلسة الاستماع، وقرار اللجوء، وموعد مع طبيبِ الأطفال، انتظار موعد توزيع الملابس، أو حتى موعد مع سينتيا وهينينغ ــ يكون التسكع أمام أعين الآخرين في حالةٍ كهذه من الانتظار والإصرار الدائمين أمراً مخجلاً حتى وإن كان هذا الآخر له وضعه وظرفه الخاص به، لأن هذا الآخر يبقى هو العالم الخارجي، نظرته تبين لي ما لا أريد أن أكون عليه على رغم أني هكذا بالفعل: الشخصُ المتلقي المحكوم بالانتظار، ذلك الذي يحمل بيدٍ كيساً بلاستيكياً مستعملاً لمرات عدة، وباليد الأخرى طِفلاً خائفاً، غير أنه من الناحية الأخرى يكون الحضور والوقوف معاً في الحفلات الجماعية أمراً منطقياً وضرورياً بل جميلاً، إنه وسيلة امتنان تبَيّن لـ«أبو» كيف أن المرء يشاركه فرحته. وبينما ترتشفُ آمال جرعةً من الآراك ظنت أنه بإمكان المرء التنفس بعمقٍ لشعوره بأنه في المكان المناسب وفي الوقت المناسب.

أتت نوريج نحوها وهي تمرر يدها على شعرها الذي يبدو حتى لآمال أنه ما يزال قصيراً جداً ولكن لا يمكن عَدَّه حليقاً، ففي الأشهر التي قَضَتاها معاً في غرفةٍ واحدةٍ كانت نوريج تقصُّ شعرها دائماً حتى بضعة مليمترات، آخرها كانت قبل مدةٍ وجيزةٍ مضت. في أثناء ذلك بدأ شَعر نوريج النحيفة ينبتُ بشكلٍ كبيرٍ في كل جانبٍ من رأسها مما منحها مظهراً قوياً واثقاً. واعتقدت آمال أنه لا بد كانت تسريحة شعرها في دمشق مقرفةً، وشعرت برغبتها في أن تمرر يدها على شعر نوريج لمرةٍ واحدةً وهي تودعها، ثم سألتها بحذر «أتسمحين لي بذلك»؟، وهي تعلم أن نوريج سرعان ما تجد اللمسات غير المألوفة أمراً لا يُطاق. أجابتها نوريج: «بالطبع، تفضلي»، وبقيت ساكنةً بينما يدُ آمال تمرُّ على شعرها ببطء من بُصيلة الشعر خلف رأسها حتى الرقبة. إن الشعور الذي كانت تتوقعه آمال من تمرير أصابعها على شعر نوريج بأنها ستلمس «شُعيراتٍ» لم يتحقق، لأن شَعر نوريج ناعمٌ جداً.

سألت نوريج آمال وهي تُشيرُ إلى تسريحتها: «ولكن مَن عَلّمك تصفيفة الشعر توربو تلك»؟.

«جدتي»، أجابتها آمال بينما دوَّت فجأة من الحديقة صيحاتُ رجلٍ ذي صوتٍ جَهْوَري: «هيا، تعالوا جميعاً، هيا»!، وسمعت آمال صفقات يد. «تعالوا، هيا تعالوا معنا، تعالوا معنا جميعاً»! بالإضافة إلى ذلك تعالت الآن دقات طبلٍ مع تصفيق، يبدو كأنها دقات أصابع متمرسة بشكلٍ صحيح: تمكنت آمال من خلال بروازِ الباب أن ترى هناك في الحديقة رجلاً صومالياً هزيلاً طويل الشعر يحملُ طبلاً على خصره، يدور حول الضيوف الواقفين ويدعوهم إلى الرقص. رأت آمال أن دورانه بشكلٍ حلقة يُذكّر بالراعي الذي يريد أن يجمع قطيعه من خلال الموسيقى، ولاحظت كيف أن الأطفال كانوا أول مَن انضمَّ إلى نور الدين ــ الآن تذكرتْ اسمه ــ، كانوا يتبعونه ويستديرون حوله بنفس الطريقة التي يقوم بها نور الدين: إذ يحني جسده إلى الأمام أولاً ثم يرمي به إلى الوراء وينظر بعينيه إلى السماء: «إلى السماء»!، ثم يعاود النظر إلى الأرض.

«أبو، أبو»! صاحَ نور الدين، مدَّ يده واختفت صورته عن بروازِ الباب. فاقتربت نوريج وآمال من بوابة الحديقة ونظرتا إلى نور الدين في الحديقة وهو يمسك «أبو» الآن بيده، وتشكلت حلقة صغيرة من الأطفال بالفعل حولهم يتوسطهم «أبو» يضحك وقد بدأ في التَرَجُّح والدوران ببطء. كان الأطفال يهتفون حوله، يصفقون ويريدن مساعدة «أبو» في دورانه، ولكن «أبو» المفعم المنتعش لا يحتاج إلى مساعدةٍ اليوم، إنه يترَجّح ويستدير، يحني رأسه إلى الأمام وإلى الخلف بشكلٍ إيقاعي ولا يدَعُ شيئاً يُخرجه من الإيقاع الذي يسمعه هو من طبل نور الدين بالتحديد، وفقاً لما رأته آمال وهي تراقبه. وبدأ العديدُ من النساء بالغناء، من بينهن زوجة نور الدين واريس، أو وريس. كان مطلع الأغنية يبدأ بـ«أبو»، أما باقي الأغنية فإن آمال لم تفهمه وهذا لا يُهم لأن المهم هو أن «أبو» يتفاعل مع الغناء، يرفع ذراعيه ويتموج ويبدو أنه مستمتع بذلك فيستمر في الدوران.

«هيا ارقصا»!، نادى «أبو»، «تعالَيا، تعالَيا، هيا ارقصا»!، صاحَ «أبو» مبتهجاً وهو يُشير إلى نوريج وآمال. امتنعت نوريج على الفور ورجعت مباشرة بعض الخطوات إلى الوراء، ويبدو أن «أبو» فهمَ ذلك، فأنزلَ يده واستمر في الرقص في أثناء ذلك تشكلت حول الأطفال مجموعةٌ أخرى من الضيوف، معظمهم من النساء الصوماليات، ولكنّ من بينهم أيضاً زوجان من مقدونيا وغيرهما من الضيوف، فشكّلوا الآن حلقةً أكبر تدور باتجاهٍ معاكسٍ لحلقة الأطفال، واختلط صوتان أنثويان عميقان مع ترنيمة «أبو» في مزيجٍ من الكلام والغناء، وتحركتا بشيءٍ ما بين الرقص والمشي، وفجأة قطعت إحداهما الرقص وأمسكت بذراع آمال وجذبتها نحوها. إنَّ آمال لا تعلم تماماً ما يحدثُ لها، ولكنّ شيئاً ما كان يقول لها بأنه عليها ألا تمنع نفسها، وهكذا انضمت إليهم واستقبلها «أبو» مبتسماً بحق ولوّح لها: «آمال، هيا، تعالي معنا»! جذبوها إليهم وانضمت ترقصُ مع الكبار، وهنا أصبحَ كل شيءٍ أعلى: الأصواتُ أعلى، الحركاتُ أسرع وكذلك الدوران، بل وجميلاً أيضاً، وهنا رأت آمال أنه لا خيار آخر لديها سوى أن تحاول البحث عن نوريج حتى لمحتها من بعيدٍ فقط لأن الحلقة تحركت بشكلٍ أسرع، فرفعت ساقيها لتتمكن من اللحاق بهم، قفزتْ وسقطتْ، تمايلتْ نحو اليسار ونحو اليمين، تحركتْ على إيقاع الطبل وهي تتمايل وتمشي وتتزُّ {بشفاهٍ مغلقة} ــ وفجأة أدركت أيضاً ما تعنيه جملة الهتاف في مديح «أبو»: «أبو، أب الاحتفالات»: «ليحْيَ «أبو» وليَعِشْ أمداً طويلاً»! فهمت آمال معنى ذلك واستمرت بالرقص والتمايل وأخذت تدور حول نفسها، وفجأة رأت أباها حسن وهو يرقص أمامها في عيد ميلاده في غرفة الجلوس محوطاً بالضيوف الفرحين به: حسن! أبي! فتعثرت آمال وسقطتْ، تدحرجتْ وأخرجت من الحلقة. أبي، أين أنت؟

كلارا

لا يمكن التعرف إلى آمال من بين الجمع الغفير من الوهلةِ الأولى. جمعٌ من الناس تجمع حول الحافلة الصغيرة عند موقف الباصات حينما نزلت سائقة الحافلة وفتحت صندوق الأمتعة في الباص. ويبدو أن السائقة كانت تعرف جيداً الكثير من الأشخاص المحيطين بها لأنها أخذت تحييهم جميعاً وأخذت أولاً أمتعة رجلٍ عجوزٍ ومن ثم أمتعة امرأةٍ هزيلة، وهنا استدارت المرأة النحيلة ومشت نحو شخص ما من بين الجمع ذلك ــ نحو آمال ــ احتضنتها وأمسكت بها للحظة.

شعرت كلارا بشيءٍ من الخوف والريبة حينما رأت آمال تقفُ مع هذه المرأة التي تبدو بمثل سنها، وتدلُّ عضلات ذراعها القوية المُنْضَوية تحت القميص الأبيض الذي ترتديه على أنها كانت حتى بضعة أشهر مضت امرأةً قوية ورياضيةً مَرِنة قبل أن يصبح جسدها هذا هزيلاً جدًّا لدرجة أن بنطال الجينز يتدلى الآن حول الساقين، فسُحِبَ بحزام أعلى عظم الورك، إذ يبدو كأنه شُخصٌ ما أو شيءٌ ما جبّار قتلَ القوةَ التي ما تزال هذه المرأة توحي بها، واعتقدت كلارا ــ في الأقل في البداية ــ إن هذا الشيء لم يكن مَرَضاً.

في بادئ الأمر حررت آمال نفسها من العناق ثم رفعت ذراعها ومسحت بكمها على وجهها، وهذه الحركة تألفها كلارا لديها والتي ربما هي مَن جعلتها تبتسمُ لذلك. ترددت كلارا من الاقتراب منها، إذ ما تزال آمال لم تكتشف وجودها بعد، ثم إنها بدورها لا تريدُ أن تقطع المشهد الذي يبدو على أنه وداعٌ. فقط بعد أن جلس كلُّ من المرأة النحيفة والرجل العجوز في الحافلة الصغيرة وأغلقت السائقة الباب بصوتٍ عالٍ انتبهت آمال إلى وجود كلارا في الممر، لوّحت لها واتجهت صوبها. تفاجأت كلارا بالحميمية التي استقبلتها بها آمال وهي تقول لها: «كلارا، شكراً لكِ لأنكِ جئتِ إلى هنا». وعندما مرَّت الحافلة الصغيرة من أمامهما أومأت آمال بإيماءةٍ سريعة إلى المرأة النحيفة والرجل العجوز الذي لوَّح لآمال بمنديلٍ من النافذة بسعادةٍ غامرة.

«هل سيرحلان»؟ سألتها كلارا كما لو لم يكن ذلك واضحاً للعيان.

«نعم، لقد حصلا على حق اللجوء وهما الآن في طريقهما إلى أماكن إقامتهم الجديدة»، أجابتها آمال.

«وأين سيعيشان»؟.

«في شقق إحدى مُدُن براندنبورغ هنا. لقد نسيتَ اسم المدينة»، قالت آمال ذلك وهي ما زالت تنظرُ إلى الحافلة الصغيرة التي غادرت المبنى للتو وانعطفت إلى يسار الشارع.

وهنا تساءلت كلارا عن الكيفية التي ينبغي أن يؤثر فيها ذلك الوداع في آمال وهي ذاتها تأملُ الحصول على اللجوء. فهل كان الاثنان هنا منذ مدة طويلة؟ ومن أي بلد ينحدران؟ إن جميع تلك الأسئلة أرادت كلارا أن توجهها إلى آمال لكنها لم تفعل ذلك خشيةً من أن تزعجها وترهقها بها.

«كلاهما ينحدران من سوريا» قالت آمال كأنها سمعت أسئلة كلارا، ثم واصلت القول: «السوريون في ألمانيا يحصلون حالياً على اللجوء بشكلٍ أسرع».

شعرت كلارا بالارتياح لإجابة آمال التي أظهرت في الوقت ذاته أن ذلك لم يجعل آمال تشعرُ بالانزعاج.

في الطابق العلوي حيث غرفتها نصف الشاغرة ونصف المشغولة سحبت آمال ورقةً من درجِ مكتبها وأعطتها إلى كلارا: «لكي تجدي طريقك في بغداد بسهولة».

إنها خارطةٌ مرسومة بخط اليد ومكتوبة باللغة الإنكليزية عن الحي الذي تعيش فيه راوية ونشأت فيه آمال. ترمزُ فيها المربعات ذات الصلبان في الوسط إلى البيوت، أما المربع الفارغ فإنه يعني «حديقة عشتار» و«لمعجنات طارق» في الزاوية رسمت آمال فنجاناً من القهوة الطازجة وارتسمت أقرب موقف للحافلات مَحُوطاً بدائرةٍ كُتِبَ بوسطها الحرف «H» على غرار محطات الحافلات الألمانية. «وعلى الصفحة الخلفية تجدين حديقة عشتار بشكل منفصل» قالت آمال ذلك، فقلبت كلارا الصفحة لتتأمل المسار بين الأشجار «X» والشجيرات «x» مروراً بالجدار وانتهاءً بقبر عشتار {الذي رمزت إليه} برسم «وردة».

أثارَ ذلك الجهد وتلك العناية المبذولة في إعداد الخارطة هذه إعجاب كلارا.

«أخبرتني راوية هذا الصباح بأنها ستكون بالتأكيد في المنزل عندما تصلين وتقرعين الجرس. ومع ذلك تريد أمي أن تعرفي أين يوجد مفتاح الطوارئ للباب الأمامي لمنزلنا»، قالت آمال ذلك وأشارت إلى النقطة المجاورة لمدخل حديقة عشتار.

«إن بوابة حديقة جدتي مفتوحة دائماً وتحت أول وعاء فخاري على الحائط هنا ـ تمرر آمال ظفر إصبعها فوق خطٍّ مستقيمٍ ـ يوجد مفتاح منزلنا، أقصد منزل راوية. هل فهمتِ ذلك»؟.

أومأت كلارا برأسها وسألت نفسها عما إذا كانت مفاتيح المنزل في العالم أجمع تُخْفَى تحت حصائر الأرضية أو في أواني النباتات.

إضافة إلى ذلك أوضحت آمال أرقام الهواتف في أعلى يمين الصفحة ـ التي تعود إلى مكتب راوية وصديقتها المحامية نهرين. «ونصحتني نهرين بسائقٍ سيأخذك من المطار، ورقمه تجدينه هنا»، قالت آمال ذلك وأشارت إلى الرقم الثالث.

شكرتها كلارا، طوت الورقة بعناية وشعرت وهي تضع الخارطة في الجيب الجانبي لحقيبة ظهرها بشيءٍ أشبه بحمى السفر للمرةِ الأولى.

أخذت آمال دفتر ملاحظاتها من على منضدتها وبدأت تتصفحه كما لو كانت تبحثُ عن شيء ما. إنَّ كلارا تعرف الدفتر هذا منذ أن كان لدى آمال في متحف بيرغامون، فسألتها عما إذا كان هذا هو دفتر يومياتها. أومأت آمال بمنكبيها: «انا أرسمُ فيه أكثر مما أدوّن».

«ماذا ترسمين، أو مَن ترسمين»؟.

ترددت آمال ثم أجابت: «أرسمُ الحيوانات التي نكون نحن جميعاً على هيأتها، أو ممكن أن نكون عليها».

أثارت إجابة آمال فضول كلارا، إذ فعلت إيماءةً مبهمةً بيدها حينما قررت آمال إعطاءها الدفتر: «هذا هو العجوز السوري الذي غادرَ في الحافلة اليوم»، قالت ذلك وهي تشير إلى رجلٍ يرقص.

وعليه رأت كلارا شخصاً يرقص، يترَجّح بساقيه، رجلاً عجوزاً ـ له وجه قرد ملتَحٍ وشعرٌ أبيضُ مجعد طويلٌ حد الأذنين مثل آلبرت آينشتاين تقريباً، لكن أنفه وقبل كل شيء خياشيمه وفمه الكبير الضاحك يذكّرونا بالشمبانزي، ويوجد حوله حلقتان من القرود الراقصة الأصغر سناً منه، قرودٌ تحمل سلاسلَ ذهبية على صدرها المشعر، وقرودٌ ترتدي جيبات وأساورَ ولها ضفائرُ متشابكة، بل حتى إن القرد المتعثر كان لديه عقدةُ شعرٍ مثل تلك التي لدى آمال! اتضح لكلارا أنَّ كل هذا رُسِمَ على عَجلٍ ولكن بخطٍ راسخٍ ذي تفاصيل قليلة لكنها لافتة للانتباه ـ فالأذنان الكبيرتان والقليل من شعر اللحية الموزّع على الفم المجعد تشير بوضوحٍ إلى القرود.

فكّرت كلارا {بالعبارات} رقصة القرود... يجعل نفسه قرداً... وما إلى ذلك كله دون أن تعلم ما إذا كانت آمال قد أوجدت ذلك، وما إذا كانت التعابير تلك موجودةً أصلاً في اللغة العربية.

إنَّ كلارا تريد أن تعرف ما إذا كانت الرسوم تلك قد أُنجِزَت اليوم، الأمر الذي أيَّدته آمال لها وأخبرتها بأنه أُقيمَ عصر اليوم حفلُ وداعٍ لسوريين غادروا السكن وتخلله رقصٌ عفوي: «قبل ساعاتٍ قليلة من مجيئكِ». وأوضحت لها آمال أنها رسمتها في غرفتها بعد الحفلة بوقت قصير.

«هل ترسمين أمام أناسٍ آخرين أيضاً»؟ أرادت كلارا معرفة ذلك.

مدت آمال شفتها السفلى إلى الأمام وهي تفكر في الرد حتى جاء ردُّها أخيراً: «حقاً لا أنتبه إلى ذلك».

ما زالت كلارا تنظرُ إلى القرود الراقصة في حين كانت آمال تشجّعها على الاطّلاع على الرسومات الأخرى أيضاً.

أخذت آمال الدفتر من يدها وقلبت الصفحات بسرعة كي تُري كلارا زرافةً ذات شعر أحمر ناري، وفرسَ نهرٍ في تنورة الترتان، وحشداً من وحيد القرن البدين المهدَّد الذي يقتصرُ فيه الشيء الإنساني الوحيد على الملابس فقط. إنها صورةٌ مزعجةٌ.

استمرت آمال تقلّب الصفحات حتى وصلت صفحةً رُسِمَ فيها خروفٌ نائمٌ، وفجأة انتبهت كلارا إلى التنانين على بوابة عشتار! ألم تكن مخلوقاتٍ هجينة نصفها خيالي أسطوري ونصفها الآخر حيوان؟ «كما في بوابة عشتار» قالت كلارا بصوتٍ عالٍ فنظرت إليها آمال متفاجئة:

«ماذا تقصدين»؟.

أوضحت كلارا ما تعنيه وسألت آمال فيما لو ترى كذلك العلاقة بين حيواناتها المخنثة والمخلوقات الأسطورية على بوابة عشتار وتنانين مردوخ ذات رؤوس الأفاعي... لكن من الواضح أن آمال لا ترى العلاقة تلك، لذلك بدت التجاعيد على جبينها عميقة جداً وحتى أنفها تجعد عندما أجابت: «لكن هذه الحيوانات لا تملك شيئاً بشرياً على

الإطلاق. إنها انبثقت من الأسطورة، ومن التاريخ والخيال، وليس من تصور البشر».

«ليس من تصور البشر ولكن ربما انبثقت من تصور الحيوانات» أعربت كلارا التي ما تزال المقارنة بالنسبة إليها تبدو أكثر من مُصادفة.

ترددت آمال في الإجابة ويبدو أنها تفكر في الرد المناسب، أحنت رأسها وقالت: «بالطبع، عندما يتعلق الأمر بالرموز الأسطورية فإن العلامات البارزة للحيوانات تكون: الحضور {المظهر} الملكي أو الخطورة أو شيئاً من هذا القبيل. ومع ذلك فإن هذه الرموز الدينية وأخيراً وليس آخراً الرموز الأسطورية ورسوماتي التي زُجَّت هنا كانت وستظل شيئين وعالمين مختلفين». تحدد آمال ذلك وتومئ مقتنعةً برأسها لدرجة جعلت كلارا ترد بسرعة: «بالتأكيد، ففي النهاية أنتِ تعرفين ذلك أفضل من غيرك».

وضعت آمال الكتاب على منضدتها ثانيةً ثم واصلتا الحديث لبرهة عن العملة العراقية، وعن حلوى آمال المفضلة من معجنات طارق، وعن المطار الذي بناه صدام حسين، مطار بغداد، والجامعة التي تحاضر فيها راوية. وفقط عندما نظرت كلارا إلى ساعتها أدركت أنه ينبغي لها المغادرة الآن إن لم تكن ترغب في قضاء ساعتين على الأقل في المحطة لانتظار القطار التالي. عرضت آمال على كلارا في أن ترافقها إلى مدخل السكن مشيرةً بنفس الإيماءة التي قامت بها عند فتحها الباب لها، وهي ذات الإشارة التي يقوم بها كل مُضيِّف لضيفه. إذ أن آمال تعيش هنا أيضاً، على الأقل بصفةٍ مؤقته، كما تظنُ كلارا في سرِّها.

وفي الممر قبل قاعة المدخل مباشرة رأت كلارا صناديقَ عدة للنفايات خلف النافذة موزَّعَةً على المِسَاحات العشبية الكائنة بين جانبَي السكن بما يُشبه الحديقة. وتشيرُ قناني الاستعمال الواحد المحشورة في الصناديق تلك وبقايا الطعام والأكواب البلاستيكية والعلب الكرتونية إلى انتهاء حفلٍ حدثَ هنا قبل وقت ليس ببعيد.

إنَّ الوداع الوشيك في ساحة وُقوف السيارات خارج السّكن جَعَل كلًّا من كلارا وآمال قليلَتَي الحيلة نوعاً ما.

«حالما أصِل هناك عند راوية سأتصل بك، اتفقنا؟ وعندما أعود إلى هنا سأراك على الفور ــ في برلين» قالت كلارا ذلك لأنه لا أحد يدري ما إذا كانت آمال ستبقى هنا في السكن أو لا.

أومأت آمال برأسها وطلبت منها: «التقطي صورةً للبنفسج عند القبر بعد أن تزرعيه».

وعدتها كلارا بذلك، فتحت ذراعيها، تعَانَقَت الاثنتان وبقيتا هكذا لمدةٍ وجيزة.

«شكراً لكِ كلارا» همست آمال، «أتمنى لكِ رحلةً موفقة».

أدارت كلارا ظهرها لآمال ثم رجعت بسرعة، استدارت ورفعت يدها ولَوّحت بها للمرةِ الأخيرة لترى آمال خلفها تُلَوّح لها أيضاً، فخفضت كلارا ذراعها وأدركت عند مغادرتها فجأة كأنما اجتاحها شعورٌ مؤلمٌ مختلفٌ مرةً أخرى، لماذا رحلتها مهمة جداً بالنسبة إلى آمال. إنها ليست مهمة فقط لذلك الجزء من آمال الذي يفكر في عائلتها، بل إنها مهمةٌ أيضاً لآمال التي تعيش الآن في ألمانيا ولا تستطيع الذهاب إلى هناك وتشعر أحيانًا كأنها قردٌ مكبوتٌ في حلقةٍ دائرية، إنها مهمة لآمال الموجودة هنا في هذه الطبيعة بين أشجار الأسفندان وزهورها، وتنتظر اتصالاً منها من بغداد.

سارت كلارا بسرعةٍ بالغةٍ لدرجة أنها لم تنتبه إلى الدراجة التي مرت منها وزمَّرَت لها عالياً إلا بعد وقت متأخر. قفزت جانباً، نظرت إلى الدراجة فاسترقت النظر إلى شعر سائق الدراجة من تحت الخوذة وتوَجَّب عليها الضحك على الصدفةِ تلك، على تكرار ذلك الموقف. إنه ليس تكراراً للموقف، بل هو انعكاسٌ له... سائقو الدراجات، إذ إنه بعد أن اختفت الدراجة تساءلت كلارا فيما إذا كان هناك في بغداد سائقو دراجاتٍ يُزَمِّرون بصوتٍ عالٍ في الشوارع والأزِقّة وأمام حديقة عشتار ومعجنات طارق؟

آمال

منذ بداية حديثها كانت راوية تتصرف بغرابة، إذ إنها تبدو عاطفية بشكلٍ غير مألوف ولم تخشَ حتى العبارات المثيرة للشفقة: «آمال، كم تبدو تصفيفة شعر عشتار جميلةً عليكِ ومناسبة لكِ! إنكِ تبدين بهية وحيوية مثل عشتار في الصور التي سبقت ولادتي بقليل وهي تجوب شوارعَ بغداد مع جدكِ..»..

ثم أخذت تتحدث ثانيةً بشكلٍ غير منتظم، غائبةً لمدة وجيزة وليست منتبهة وهادئة كالعادة. حتى حينما طلبت منها آمال أن تُعِدّ لكلارا طبق الإنجاري ترحيباً بها إذ تحبه آمال كثيراً، أجابتها راوية بشكلٍ عابر ليس إلا: «لنَرَ حينها»، ولذلك تأكدت مرتين أنها دوَّنت موعد وصول كلارا إلى بغداد بشكلٍ صحيح بالفعل، وتساءلت وهي تضع القلم عما إذا كانت كلارا خائفةً بالفعل من الرِّحلة.

«خائفة، لماذا»؟، أجابت آمال التي عليها أن تعترف بأنها لم تطرح هذا السؤال حتى الآن.

رفعت راوية كتفيها قائلةً: «إنَّ العراق ليس وجهة سفر مثالية تماماً».

بالطبع لا، وآمال تعتقدُ ذلك، لكنها لم تُدرك ما الذي تريد راوية قوله. هل هي قلقة بشأن أمن كلارا وسلامتها؟

فأجابتها آمال قائلةً: «أعتقدُ أن عليكِ ألا تقلقي. كلارا ذكية ويبدو أنها تعرف ماذا تفعل. إنها طبيبة وبالتالي فهي معتادةٌ الخطر ثم إنها مثلك، تتصرف بتعقّل وروية ــ » قالت آمال ذلك آملةً تبديد مخاوف راوية.

أمسكت راوية بنظارتها وهي صامتة ثم قالت فجأة وبلطف: «هذا جيد وطَمْأنني».

سادَ الصمت بينهما لكنه ليس سلمياً، إذ إن آمال شعرت بأن هناك شيئاً ما يزعج راوية ويؤلمها.

وعليه سألتها منزعجةً فجأة: «هل هناك أخبار من أبي»؟.

أومأت راوية برأسها لمدة طويلة ثم قالت: «ليس هناك شيء جديد عنه يا آمال، مع ذلك أدركتُ أنه علينا ألا نأمل في بقاء حسن على قيد الحياة».

«لماذا»؟ سألت آمال مندهشة.

«لأنه أمرٌ غير واقعي ومُرهق» أخذت راوية نفساً عميقاً: «إن كان سيأتي يومٌ ويقف فيه والدكِ على عتبة بابنا، فهذا يكون أفضل، لكن علينا ألا نأمل ذلك فأنتِ تعرفين القصص هنا».

بالطبع تعرفُ آمال القصص، تعرفها حقاً مذ كانت في بغداد. وهنا بدت راوية مختلفةً عما هي عليه!

إن كآبتها المفاجئة أقلقت آمال. هل عادت الكوابيس إلى راوية مرةً أخرى كما حدث لديها بعد مدة وجيزة من اختفاء الأب؟

عندها قالت راوية: «كنتُ أفكر في حديثنا الأسبوع الماضي في يوم وفاة عشتار»، غيّرت من وضعية جلوسها وواصلت القول: «آمال، أنتِ تعلمين بأنه قليلة هي المرات التي رجوتكِ فيها لشيءٍ ما طيلة حياتكِ. ومع ذلك هناك شيءٌ واحدٌ مهمٌ جداً بالنسبة إليّ: فأنا أَوَدّ ــ »، توقفت راوية لبرهة، «أن تعيشي الحرية، لا أن تعيشي حياةً حرةً فقط، وإنما أن تعيشي الحرية ذاتها، أتفهمين ذلك؟ الحرية فكرة، موقف، بل أكثر من ذلك، إنها شيءٌ ثمين وربما أثمن ما لدينا. آمال، أود أن تستوعبي الخير هذا، وألا تنسي التالي: ليس ما نفعله نحن يجعلنا أحراراً فحسب، بل أيضاً الكيفية التي نفعله بها. هل تفهمينني؟ إفعلي ما عليكِ القيام به لدرجة أن تظلي صادقةً مع نفسك وقيمك»، قالت راوية هذا وهي تضغط لبرهة على جفونها، «اعتبري إمكانية تطوير مهاراتكِ هناك فرصةً حظ لكِ واعملي على إبداعها هناك ــ في ألمانيا، في هذا البلد الآمن والحر الذي آمل ألا يكون غريباً عليكِ في الوقت القريب». «ولكن يا راوية» ــ بيدو أن آمال تريد مقاطعة حديث أمها بحذر، إلا أن راوية واصلت حديثها بثبات: «آمال، معنا هنا لا تستطيعين أن تطوري من إمكانياتكِ، وأنتِ تعلمين ذلك. فهنا يسود التعسف والظلم، والباطل يصبح حقًّا. إنَّ العنف هو نظامنا»، قالت راوية ذلك وهي تقبض على يدها اليمنى. «مَن يدري، ربما عندما تصبحين في عمري أو حتى في سن عشتار سيأتي اليوم الذي ستتمكنين فيه من العودة إلى بلدٍ سيكون بلدكِ، بلدٍ آخر عما هو عليه الآن. أما في الوقت الحالي فأنا أود أن تكوني حرة هناك في ألمانيا، وأن تدركي الفرصة تلك».

هنا قاطعتها آمال بحدة: «لحظة، راوية، اسمعيني الآن: أنتِ تتحدثين كما لو كان من المؤكد أنني سأحصل على اللجوء هنا في ألمانيا. لكن هذا ما لا تعلمينه أنتِ حتى الآن»، ثم صاحت آمال منزعجةً، «إضافة إلى ذلك، فإنكِ تتحدثين كما لو كان كل شيءٍ بيدي كأنه مسألة تتعلق بالإرادة»!، أومأت آمال برأسها وشعرت بالدوار حين تذكرت قصة الهروب، جلسات الاستماع:... نعم، ما زلتُ في تركيا، تسلقتُ إلى أرضية الشاحنة ولم أعلم أين أنا ثانيةً إلا في ألمانيا ــ لماذا هذه هي ألمانيا بالتأكيد؟ كان هناك لوحاتٌ صُفر تحمل أسماء الأماكن، وفي المحطة كان هناك قطار إقليمي: اللوحة تحمل العنوان BRB. ــ تُرى هل هو اسم المحطة أو شيء ما؟

أجابت راوية بهدوء: «آمال، أنا متأكدة أنكِ ستحصلين على حق اللجوء. ألمانيا دولة دستور وأنتِ عراقية. العالم يعلم ما يحدث هنا، في الأقل العالم الحر المطَّلع بشكل ناقد».

إنَّ تركيز راوية المفرط على مُفردتَيْ «حرة» و«حرية» بدأ يزعج آمال. «أنت متأكدة يا راوية لأنكِ لست موجودة هنا، لأنكِ لا تعرفين القوانين والناس في ألمانيا مثلما أعرفهم أنا! هل تعلمين أني أعرف هنا في السكن أكثر من شخصٍ واحدٍ بل عائلاتٍ بأكملها رُحِّلوا إلى وطنهم»؟.

فسألتها راوية «من أي بلدٍ ينحدرون هؤلاء الناس»؟.

«من الشيشان ــ ».

«أها، لذلك».

«ماذا يعني هذا؟ ألم يستحقوا اللجوء»؟.

«المسألة ليست هنا»، فجأة أجابت راوية البروفيسورة تماماً بشكلٍ موضوعي وحازم مستمدة قوتها من الحجج والبراهين المنطقية، في حين ترى آمال غاضبةً أن الحجج تلك تستندُ إلى واقعٍ مرتبطٍ بالمُثل والصور التاريخية أكثر من ارتباطه بالواقع الحقيقي الذي يتجلى لها هنا كل يوم. مَن قال إن ألمانيا ستكون خاليةً تماماً من التعسف؟ بلد دستوري أو لا ــ .

«آمال» نادتها راوية بصوتٍ أرقّ وبنظرةٍ كلها ريبة.

«صدقيني»، قاطعتها آمال منفعلةً، «سأحاول أن أتصرف بشكلٍ صحيح، لكني لا أستطيع أن أضمن لكِ أي شيءٍ يخص اللجوء، إذ لا أحد هنا يمكنه فعل شيء بشأنه بما في ذلك الناس من مجلس اللاجئين الذين يريدون حقاً مساعدتنا».

«بالطبع»، سارعت راوية بالقول: «أفهم ذلك، بالتأكيد. آسفة يا عزيزتي، أنا لم أُرِدْ ــ أردتُ فقط..». وفجأة غابت راوية قليلاً، كما في بداية محادثتهما، ويمكن القول أيضاً: كان يوجد استسلام في نبرة صوتها لا تعرفه آمال من قبل. «آمال، لم أُرد إيذاءكِ، فأنتِ ابنتي..»..

وللحظةٍ قصيرة حزنت آمال على راوية الصارمة الحاضرة كلياً.

«بالطبع أنا أثق بكِ يا آمال. ولهذا السبب بالذات رجوتكِ بشأن حياتكِ في ألمانيا ــ ».

قاطعتها آمال قائلة: «لنترك ذلك، دعينا ننتظر. اتفقنا»؟.

نظرت راوية إلى الأسفل وخيَّمَ الصمت عليها. كان صمتاً طويلاً جعل آمال تقلق بسببه.

«راوية؟ أما زلتِ على الخط»؟.

«نعم ابنتي. ما زلتُ هنا»، أجابت راوية في نبرةٍ مثيرة للشفقة وحزينةٍ لدرجة أخافت آمال فأرادت جذب اهتمام راوية إليها.

«وأنا هنا، راوية، أنا معكِ، أتعلمين ذلك»؟.

ردت راوية ببرود: «نعم صغيرتي، أعلمُ ذلك».

موجةٌ من الإرهاق خيَّمت عليهما مما جعل من الصعب قول المزيد. لكن كان هناك بعض من كلماتِ المحبة، إذ كلتاهما أظهرت للأخرى عدم رغبتها في إحداث شِجار.

« آمال، انتبهي لنفسكِ. أتعديننني بذلك»؟.

«أعدكِ».

وما إن أغلقت راوية الخط واستحضرت آمال المحادثة كاملةً مرةً ثانية، أدركت آمال أنها عادت لا تكون راوية صراحةً بما طلبته منها، وظنت أنها ربما تَعِدُ والدتها بذلك في المرةِ القادمة.

كلارا

بعد أن سلمت كلارا حقيبتها واجتازت الجوازات حاملة معها زهرة البنفسج في حقيبة ظهرها جلستْ على كرسيٍّ قرب النافذة في قاعة المغادرة وهي تفكرُ فيما ينبغي لها القيام به في الساعةِ المتبقية من الوقت: هل تشرب قهوةً مرة أخرى، أم تكتب رسالةً إلى تارون أو تقرأ في دليل «السفر إلى العراق» الذي لم تجلبه إلا صباح هذا اليوم مع ورد البنفسج، بعد أن كانت بائعة الكتب قد اعتذرت لها لما قاله مُوَرِّد الكتب بأن «الكتاب لم يُطلب منذ مدة طويلة»، ومن هنا جاء تأخر تسليمه.

«ولكن كما أرى فإنكِ ما زلتِ هنا»! نعم، إنها هنا، ولن تكون هنا أيضاً بعد ساعة أو أكثر من الآن، إذ ستكون غادرت ألمانيا وستذهب دون أن يلاحظها أحد وسيبقى الأمر كذلك إلى حد كبير، لأن والديها لا يعلمان شيئاً عن تلك الرِّحلة. فقط آمال وتارون وراوية يعلمون إلى أين ستتجه هي اليوم. هذا كله جالَ في خاطرِ كلارا الآن مما جعلها تَشْعرُ بشيءٍ من الاضطراب.

ففي صباح يوم أمس اتصلتْ بالمستشفى وأخبرتهم بأنها مريضةٌ وحصلت فعلاً من صديقتها جانينا الطبيبة في الطب العام على الإجازة المَرَضية التي تحتاج إليها، حيث كانت جانينا قدَ التقتها أثناء استراحة الغداء في المطعم الصغير بالمركز الطبي الذي توجد فيه عيادتها ووضعت لها الإجازة موَقعةً من قِبَلها على المنضدة حتى دون أن تسألها عن أسباب طلبها غير المألوف هذا. إذ إن حجةَ كلارا عبر الهاتف بأنه يتوجب عليها السفر بسرعة لمدة أسبوع دون إمكانية قولها لماذا وأين بالضبط، كانت على ما يبدو كافيةً بالنسبة إلى جانينا التي اكتفت بالقول لها: «أتمنى لكِ النجاح في ما تنوين القيام به». وأخذت كلارا تفكر عما إذا كانت مفردة النجاح مصطلحاً مناسباً لهذه الرِّحلة، فإذا كان هناك شيء يمكن أن يكون ناجحاً فإنه على الأرجح يكمن في غرس زهور البنفسج في التربةِ عند قبر عشتار.

أما ما يخص لقاءها براوية وربما بنهرين وبوصولها وعودتها، فهذه ربما أمنياتٌ أقرب إلى «الحظ» أو «القدر». في هذه الأثناء امتلأت قاعة المغادرة بسرعة. جلسَ قربها رجل أعمال له شنب، يرتدي بدلةً باللون البيج وعلى ساعده ساعةٌ أنيقة باللون نفسه أيضاً، وبدأ على الفور يقرأ من هاتفه الذكي. نظرتْ كلارا حولها وتساءلت مَن مِن هؤلاء المنتظرين هنا سيواصل الطيران مثلها من إسطنبول إلى بغداد ــ ربما أكثر من حفنة من الركاب؟

ما يزال الهاتفُ في يدها لا يُظهر أية رسائل جديدة. فقد تهاتفت مع تارون مرة واحدة فقط منذ مغادرته، وكان ذلك بعد وقتٍ قصيرٍ من وصوله إلى كالكوتا عندما كان في سيارة الأجرة أثناء طريقه إلى فندقه. بعد ذلك وصلت منه رسائل قصيرة فقط تذكر أنه مشغولٌ للغاية وأن العمل في موقع البناء يمضي قدماً، وأن الاجتماع مع العملاء كان «جيداً ونيِّراً»، وكل شيء في الوقت ذاته كان «معقداً» للغاية «وسياسياً من نواحٍ عدة». إن كان هذا التعقيد محفزاً بالنسبة إلى تارون أو متعباً له فإن هذا ما لا يمكن الاستدلال عليه من رسائله. لكن كلارا كانت واثقةً بأنها ستستنبط ذلك في مكالمتها الهاتفية القادمة معه واكتفت الآن بكتابة رسالةٍ قصيرة له: «أنا بانتظار موعد المغادرة وأدرك أنه ليس لدي أدنى فكرة عما ينتظرني في العراق. ومع ذلك أشعر بالتأكيد بأني في حالةٍ جيدة»، كتبت ذلك ثم حذفت كلمة «بالتأكيد» لتغير الجملة الأخيرة إلى: «وأنا أشعر بأني بحالة جيدة». ثم أنهت رسالتها بـ:«قبلة وتلويحة من خضم الضباب الدخاني»، لأنه بـ«قبلة وتلويحة من خضم الضباب الدخاني» ختمَ تارون رسالته الأخيرة لها.

وهنا استُدعِيَت الرِّحلة المتوجهة إلى إسطنبول فنهضت كلارا، أخذت حقيبتها وتوجهت نحو «بوابة المغادرة».

آمال

ها هي أكثر من سبعين ساعة مضت الآن ولم يَرِد أي اتصال بعد. ليلتان مرت وها قد حلَّ صباح اليوم الثالث الآن. كان آخر اتصال بينهما يوم الأحد، أما في يوم الاثنين فكان خط راوية غير متاح للاتصال، وكذلك يوم أمس الثلاثاء وهو اليوم الذي توجد فيه راوية في الجامعة لأمدٍ طويل. إلا أن ما كان يُطمْئن آمال هو افتراضها أن راوية منهمكةٌ في التهيؤ لزيارة كلارا، تشتري الخضار الطازجة من السوق، تطبخ الإنجاري لها في المطبخ أو ترتب سرير آمال لدرجة أنها لا تسمع رنين هاتفها. نظرت آمال مرةً أخرى إلى الساعةِ في الزاوية اليمنى أعلى شاشة الكمبيوتر: بعد عشرين دقيقة ستهبط كلارا في مطار بغداد ومن المفترض أن تكون عند راوية بعد نحو ساعة ونصف، ثم بعد ساعاتٍ قليلة من تناول الطعام سيتحدثنَ جميعهنَ بعد الظهيرة عبر الشاشة: والدتها وهي بالإضافة إلى كلارا التي توجد هذه المرة بجوار راوية، أي على «الجانب الآخر» إذا جاز التعبير. ابتسمت آمال مسرورةً لذلك وكانت في الوقت ذاته قلقةً ولا تشعرُ بالارتياح. أكثر من سبعين ساعة مضت الآن. تُرى هل أمضت راوية ليلتها الماضية عند نهرين وستعود إلى شقتها صباح هذا اليوم؟ وهل شاركت راوية في مؤتمرٍ ما بالأيام القليلة الماضية، أو كانت مع رجلٍ ما؟ بسرعةٍ هكذا بعد وفاة الجدة بوقتٍ قصير؟ أو ربما حدث هذا الآن بعد غياب عشتار مباشرةً.. أمسكت آمال بجبينها: هل كان هذا هو السبب الذي جعل راوية يوم الأحد تقول بأن عليهم ألا يأملوا عودة أبيها بعد الآن؟ أبعدت آمال يدها عن رأسها وظنت بسرها وهي تدعك بأصابعها على المنضدة: إذا كان الأمر كذلك، أي إذا كانت راوية نامت بالفعل مع رجلٍ ما في الليالي الماضية، فكيف لها أن تلومها على ذلك، بل على العكس من ذلك عليها أن تفرح من أجلها. إنَّ هذا كله غير واضحٍ ويصعب فهمه، فمجرد حديثها مع راوية يوم الأحد أظهرَ بالفعل ما فقَدَتْه جرّاء البُعد.

وبغض النظر عن مدى الجهد الذي يبذلنَه عبر الشاشة للحديث عن كل ما يحرّكْهنَّ، عن كل ما هو مهمٌ في حياتهنَّ اليومية وفي مكنوناتهنَّ، فإنه دائماً ما يبقى هناك شيءٌ مفقودٌ يجعل آمال تشعرُ به بعد كل مكالمة أحياناً وقد يكون هو الشيء الأهم، الذي يزعجُ العائلة: حتى من دون قول الكثير من الكلمات لمعرفة كيف هو حال الآخر. إن كل الأمزجة والإيماءات وتلك الأشياء الصغيرة التي لا يُتحدث عنها مباشرة لكن يَشْعرُ بها كلُ مَن يعيشون تحت سقفٍ واحدٍ، لا تجدها هي هنا في الغربة. فهي لا تدري إن كانت راوية ترى حَسَناً في المنام وفيما إذا كانت بحاجة إلى حبوب منومة، وفيما لو كانت تغادر المنزل في الصباح على مضض أو عجالةٍ. إنها لا تعلم ما الذي جعلَ راوية لا تريد انتظار أبيها ولماذا فقدت الأمل في ذلك. لكنها تعلم أن والدتها لا تريد أن تخفي عنها، أي عن ابنتها، أي أثرٍ لحسن، لذلكَ ينبغي أن يكون السبب وراء تغيير راوية هو شيءٌ آخر. ألأنها فقط عادت لا تقوى على ذلك؟ هل سئمت «راوية» الانتظار.. وأرهقها ذلك وأنهكها؟ هل هو حقاً مثلما قالت نوريج الأسبوع الماضي بأن الأمل خيارٌ يجبرنا عقلنا على القيام به ولكنه يتطلب أيضاً قوةً ما قد نفتقرُ إليها ببساطة، أو تُستخدَم في وقت ما؟

على أية حال، فهي نفسها لم تتخلَّ بعد عن فكرة أنه قد يُطلق سراح الأب في يوم ما ويعود. حتى لو لم يكن هذا السيناريو واقعياً دائماً لها وأحياناً سخيفاً ثم محتملاً أحياناً أخرى، وعلى الرغم من هذه التقلبات في الاحتمالية فإنها لم تتخلَ نهائياً عن إمكانية أن يقرع الأب يوماً ما باب راوية نحيلاً ولكن حيًّا. لأنها ــ على العكس من راوية ــ بحاجة إلى الأمل.

اقتربت خطواتٌ في الرواق منها وإذا بشخصٍ يطرق بابها وينادي من الخارج: «آمال! هل تسمعينني؟ هناك رسالةٌ لكِ».

بدأت دقاتُ قلبها تتسارع، فقفزتْ آمال من كرسيها وأسرعت إلى الباب وفتحته بسرعة. في الخارج أومأ لها نور الدين برأسه كأنه توقع سؤالها: «لقد رأيتها للتو في صندوق بريدنا ــ هناك رسالةٌ لكِ من الدائرة».

إذاً اليوم. اليوم هو يوم إصدار الحُكم. شعرتْ آمال بنبض قلبها يدقُّ بقوةٍ في صدرها والعرقُ يتصبب على جبينها وأومأت برأسها لأنها غير قادرةٍ على الرد. وضعَ نور الدين يده على كتفها وقال لها بجدية مبتسماً:

«حظاً سعيدا».

كان مشمع الأرضية ينزلقُ بها والأبوابُ تنفتحُ ببطءٍ شديدٍ والسُّلَّم مملوء بالناس ــ وبدا الممرُّ في بادئ الأمر طويلاً بالنسبة إليها بشكلٍ لا يطاق حتى وصلت إلى نهايته مرةً واحدة، فوجدت صندوقَ البريد في مدخل السكن والمُغَلَّف شاخصاً على حافتِهِ هناك.

كلارا

إن منظر الطبيعة الذي شاهدته كلارا عبر نافذة الطائرة عند الاقتراب من بغداد بدا أوضح مما توقعته بعد قراءة الدليل السياحي. فهنا تهيمن الطبيعة وتتناوب المروج الكبيرة مع الحقول ذات اللون البني الفاتح، وأحياناً يرى المرء غابةً صغيرةً مع مجموعة بيوتٍ ذات مساحاتٍ خُضر ليست ببعيدة، وحتى البيوتات ذاتها كانت متصلةً بعضها ببعض من خلال طرق سريعة خرسانية متعددة المسارات، ومن خلال مخارجها تعرفت كلارا مجدداً على مساحاتٍ مُسَيّجةٍ توجد عليها قاعاتٌ مستطيلة ذات سقوفٍ مسطحة متصلة بعضهما مع بعض، ربما تكون مستودعات تخزين. ويوجد قربها العديد من الحلقات البيض تتصل بصوامع، فضلاً عن مستطيلاتٍ أخرى زُرق صغيرة تتصل ببرك ماءٍ. وإلى الخلف منها على بعد مسافةٍ ما يتلألأ في ضوء النهار نهر دجلة الواسع بلونه الأزرق التركوازي. وظنت كلارا وهي تطوي خريطة دليل السفر أنه ربما كان هذا رد فعلٍ احترازي {لديها}: فكلما كان بلد وجهة السفر شديد الخطورة أو كلما ازدادت سمعته خطورةً، ازداد انعكاس مقارنة المرء لما يشاهده بما سَمِعَ أو قرأ عنه من قبل، كمحاولةٍ لتقليل ذلك الخطر من خلال عزل ما هو مفاجئ وغير متوقع وبالتالي مراقبته.

عندما لامست عجلات الطائرة الأراضي العراقية تناثرت الرمال بجوار المدرج. تلك الرمال جعلت كلارا تسأل نفسها على الفور فيما إذا كانت هذه التربةُ الجافة ستتمكن من تغذية ورد البنفسج الذي تحمله في حقيبة ظهرها؟ بالطبع لا، وهي تعلم ذلك جيداً، إذ إنه بدون الظل والماء والقليل من التربةِ الخصبة تضمحلُّ فرصة ورد البنفسج من العيش في التربة تلك. ثم إنَّ المسألة تكمن فيما لو أنها ستصمد إزاء هذا كله. غير أن كلارا شعرتْ بالارتياح مبدئياً لتحمل البنفسج هواء الطائرة الجاف والسقي بالمياه المعدنية بشكلٍ جيد.

يبدو أن قاعة استرداد الأمتعة صغيرةٌ وفارغة، وأن إلقاء نظرةٍ خاطفة على الشاشةِ الإلكترونية تؤكد لكلارا بأنه باستثناء الركاب الذين كانوا معها على الطائرة فإنه ليس هناك الآن أحد في القاعة ينتظر حقائبه، فالرحلات القادمة إلى هنا تقتصرُ على طائرةٍ واحدة أو طائرتين في الساعة. وقفت كلارا صوب حزام نقل الأمتعة الذي ما زال متوقفاً، أخرجت نقّالها من جيبها وأطفأت خاصية وضع الطيران. وبشكلٍ مذهلٍ وبسرعةٍ خاطفة وصلها وميض إشارة شبكتين من الإنترنت مما يمكّنها من اختيار إحداهما، وفعلاً اتصلت بإحداهما بعد وقتٍ قصير. أيُعد هذا ضربة حظ لها لأنها موجودةً في المطار؟ أياً كان سبب اشتغال الإنترنت بشكلٍ جيد فالمهم هو أن كلارا اغتنمت الفرصة وفتحت بريدها الإلكتروني للاطلاع على الإيميلات المُستلَمة في أثناء الرحلة. لكن هذا يتطلب وقتاً طويلاً، إذ إن تحميل الرسائل ما زال مستمراً ومستمراً... نظرت كلارا حولها ورأت أن الصبي الذي يحمل جواز السفر العراقي في جيب قميصه والذي كان جالساً في مقدمة الطائرة في كابينة رجال الأعمال وهو آخر مَن نزل من الطائرة، يُحدِّق إليها الآن علانيةً من النافذة المفتوحة حيث يقف المدخنون. كانت نظرته لا تتناسب مع ما تعرفه كلارا عن كيفية معاملة الرجال والنساء بعضهم لبعض في هذا البلد، أو هي كذلك بالفعل؟ هل يريد الصبي بهذه الطريقة أن يبين بأنها غريبةٌ هنا، وعليه فإنَّ القواعد المحلية لا تنطبقُ عليها، لذا يجوز التحديق إليها، هذه المرأةُ البيضاء، كما لو كانت كائناً غريباً، جسماً غريباً؟ هل يُريد بهذه النظرة غير الجنسية صراحةً بل الفاحصة المريبة أن يجبرها على تبرير وشرح سبب مجيئها إلى العراق بمفردها وهي شابةٌ في مقتبل العمر؟ أو ينتظر منها أن تسحب كيساً من القماش من حقيبة ظهرها مطبوعٌ عليه شعار منظمة غير حكومية، منظمة أطباء بلا حدود أو منظمة تابعة للأمم المتحدة؟ على أيةٍ حال، فإن هناك شيئاً واحداً واضحٌ: وهو أن الصبي الذي بالتأكيد لم يبلغ من العمر الثامنة عشرة بعد بل على الأرجح في الخامسة أو السادسة عشرة، يبدو واثقاً بنفسه بشكلٍ غير عادي. إنه لا يتظاهر بثقةٍ بالنفس مثل العديد من أقرانه، ولكن في هدوئه كان يكادُ ينبضُ بالثقةِ بالنفس. فسألت كلارا نفسها من أين جاء بهذه الثقة بالنفس كي لا نقول الرضا عن النفس؟ كان يرتدي ملابس غالية الثمن وتقليدية، قميصاً مخططاً وبنطالاً رمادياً من الفانيلا ـ على الرغم من درجة الحرارة المعلنة في الخارج البالغة تسعاً وعشرين درجة ـ وله أيضاً حذاء جلدي أحمر اللون أدكنه. اعتقدت كلارا أنه ربما جاء من مدرسةٍ داخلية إنجليزية كي يزور والديه، لكنها سرعان ما تراجعت عن تكهنها هذا. فإن كل ما تعلمه هي، هو أنها لا تريد أن تعلم، ولا تريد حتى أن تلعب معه اللعبة التي تلعبها معها نظرته الملحة القائلة: «ماذا تفعلين هنا؟ وضحي ذلك».

نظرت كلارا إلى نقالها ثانيةً حينما أدركت فجأة أن آمال لم تتحدث لها إطلاقاً عن صبي عراقي أو صديق أو حبيب. هل لأنه لم يكن هناك أحد في حياتها، أو أن آمال قبل هروبها قطعت كل اتصال كان لديها أو أية إمكانية تصبُّ في هذا الاتجاه مما سيكون من المؤلم جداً الحديث عنه الآن هنا في الغربة؟

بدأ حزام سير الأمتعة بالتحرك فجأة وبعد ثوانٍ قليلة أخذت الحقائب تنزلقُ من ثقبٍ في الحائط وتخرج منها على الحزام. وكانت حقيبة كلارا هي الثالثة في سلسلة الحقائب بالفعل. رفعتها إليها ووضعتها على الأرضية الرخامية وذهبت نحو منفذ الخروج من المطار. وقبل أن تصل إلى الباب الآلي المزدَوج سمعت رنين نقالها في حقيبة ظهرها يُعلن عن تحميل إيميلاتٍ جديدةٍ لها الآن. ومن وراءِ حاجز ممر الخروج رأت كلارا رجلاً في الخمسين من العمر يرتدي نظارةً وقميصاً كارير ويحمل ورقةً على صدره مكتوباً عليها اسمها بحروفٍ لاتينيةٍ كبيرة. سارتْ نحوه وقدمت نفسها، أومأ الرجل برأسه بأدب وابتسم، ويبدو عليه الارتياح لأنه وجدَ كلارا بهذه السرعة. عرّف نفسه إليها بأنه السائق «ياسر»، أخذ منها الحقيبة ووضح لها بلغةٍ إنجليزية مفهومة أن سيارته تقفُ مباشرةً قرب ممر الخروج في المكان المخصص لوقوف السيارات.

تبعت كلارا ياسر عبر القاعة الرئيسة للمطار التي بدت لها بسقفها المقَبَّب بالفولاذ الأبيض وأعمدة المرايا كأنها نتاج شاق وكذلك بهِيّ وباهظ وحديث في الوقت ذاته. هذا هو إذاً الذوق البذيء المشؤوم لصَدّام الذي ثارت عليه آمال بكلماتٍ بليغة للغاية.

وبالفعل كانت سيارة ياسر تقفُ خارج القاعة تحت حرارة الشمس على بُعد بعض الخطوات من ممر الخروج. وبينما فتحَ ياسر صندوق السيارة ليضع حقيبة كلارا بين الأغطية وبعض قناني الماء وبعض المصابيح، فتحت كلارا نقالها لتتصفح الرسائل الإلكترونية غير المقروءة. وعلى رأس القائمة كانت هناك رسالةٌ من تارون. فرحت كلارا قائلةً: وأخيراً! نقرت عليها فظهر مضمون الرسالة بعد وقتٍ قصيرٍ ويبدأ بـ: «حبيبتي كلارا». أدركت كلارا وهي تمرُّ بسرعةٍ إلى أسفل الرسالة أنها رسالةٌ طويلة بل طويلةٌ جداً، بحيث لا يمكن قراءتها الآن ـ في أثناء ذلك قال لها ياسر وهو يفتحُ باب السيارة: «نستطيع الذهاب الآن ـ» وضعت كلارا نقالها مرةً أخرى في حقيبة ظهرها وصَعِدت في السيارة.

آمال

كان نسرُ جمهورية ألمانيا الاتحادية منقوشاً في أعلى يسار الظرف. أجنحتهُ مفتوحةً وينظرُ إلى اليمين بعيداً عن عبارة «المكتب الاتحادي للهجرة واللاجئين». على رغم ذلك تعلمُ آمال أن هذا لا يعني إشارةً ما إليها. فتحت الظرف بالفعل، وأخذت تنتظرُ الآن اللحظة المناسبة لسحب الرد النهائي {من الظرف}. إنها لا تريدُ ليديها أن ترتعش عندما تكشف ذلك، بل تريد أن تحافظ على هدوئها وأن تكون مستعدةً لكل شيء. بالإضافة إلى الظرف توغلت إلى يدها أيضاً القصاصة التي أعدها مجلس اللاجئين في براندنبورغ لهذه اللحظة، والتي كُتِبَ عليها كلمتان بحروفٍ كبيرة، هاتان الكلمتان المهمتان هما: تمت الموافقة والاعتراف. إنَّ آمال تعرف هاتين الكلمتين على ظهرِ القلب، وكلُّ نزيلٍ في السكن يعرفهما ويستطيع فكّهما إن كان متمكناً من قراءة الحروف الأبجدية اللاتينية. ومع ذلك فإن آمال ما زالت تحملُ القصاصة معها لأنه مذكورٌ فيها بالحروف الكبيرة والصغيرة شيء آخر، إنها كلمات ومعلومات للحالةِ السلبية. أغمضت آمال عينيها، رفعت رأسها عالياً ونظرت إلى السماء: إنها بيضاءَ، مملوءةٌ بالضباب ولكن على رغم ذلك عالية. كل شيء سيكون على ما يرام يا آمال. ما الذي يجعلك متأكدة جداً يا جدتي؟ فأنتِ ميتة أيضاً أولاً وأخيراً. كنتُ عجوزة يا آمال، وكامرأة عجوز أقول لكِ: كل شيء سيكون على ما يرام بالتأكيد. كوني يقظة، نعم، وتحلي بالثقة أيضاً! انقسمتْ السماءُ من فوقها إلى نصفين، على النصف الأيسر رأت آمال نفسها تحملُ حقيبةً جلدية باللون البني الفاتح، وتقفُ على درجاتِ سلم جامعة برلين، قسم الآثار، وماذا غير ذلك إذاً بالذات هنا... وعلى النصف الأيمن رأت صورةً أخرى أمامها، صورةَ بابٍ مفتوحٍ تجلسُ أمامه راوية تنتظرها وبيدها جريدة.

سحبت آمال الرد من المظروف وأفردت الأوراق المطبوعة:

لقد تمت الموافقة والاعتراف.

الاعتراف.

فهمست آمال قائلةً: لقد حصلتَ على اللجوء. اللجوء! في ألمانيا.

كلارا

إن الطريق السريع الذي يقود كلارا إلى وسط بغداد محفوفٌ بأشجار النخيل ومُراقَب بعناية. وعلى جانبي الطريق تنتشرُ بشكلٍ غير منتظم ولكن على مسافاتٍ ليست بعيدة بعضها عن البعض الآخر، ميليشيات الشرطة وهم يحملون بنادقهم على صدورهم ويراقبون المركبات المقتربة منهم ويلوحون بين الحين والآخر إلى إحدى السيارات كي تقترب نحوهم، ثم يَدعَون جميع الركاب ينزلون ويقودون سائق السيارة إلى إحدى مركبات الدفع الرباعي الواقفة جانباً على حافةِ الشارع. إن ياسر الذي لم يَفُته الانتباه إلى كلارا في كل مرة تدورُ فيها رأسها حينما ترى أمامها سيارةً يُلوح إليها للوقوف جانباً، أشارَ إلى عناصر الشرطة وأوْضحَ: «كلُّ شهرٍ يزدادُ عددهم أكثر وأكثر». ثم تنهَّد وقال: «وإذا استمرَّ الحال هكذا سيصبح الوضع قريباً كما كان في عهد الأمريكان».

التفتتْ كلارا إلى ياسر ونظرتْ إليه وأرادت أن تعلم فيما لو أنه بشكل عام يشعر الآن بالأمان أكثر مما كان عليه في زمن الاحتلال.

أحنى ياسر رأسه وردَّ: «لو كان الأمريكان قد مكثوا مدةً أطول لأصبحت الكراهية والعنف في بلادنا أسوأ بكثير. وعلى الرغم من رحيل الأمريكان فإنَّ الأمور لم تتحسن الآن، بل أصبحت العكس من ذلك تماماً». نظرَ ياسر عبر النافذة وبدت عليه الحيرة وخيبة الأمل.

وهنا أرادت كلارا أن تُبْدِيَ لهذا الشخص المهذب اللطيف تعاطفها معه، وبينما هي تفكرُ فيما ستقوله له واصلَ ياسر القول من تلقاءِ نفسه: «إن القتال الدامي في البلد الجار سوريا ما زال مستمرًّا وهنا أيضاً ما زالت العدوانية والتوتر والخوف تزداد. أما الحكومة (يشيرُ ياسر بيده)، ويتساءل المرء أحياناً كيف يمكن للاستقرار والهدوء السلمي أن يتحققا هنا بشكلٍ تام..»..

أومأ ياسر برأسه صامتاً. ورأت كلارا أن هناك الكثير من الأقراص المدمجةِ في الجيوب الجانبية للسيارة وحاولت أن تتخيل ياسراً وهو يجوبُ الشوارع فرِحاً منصتاً إلى موسيقى صاخبة وفاتحاً نوافذ سيارته. خرج ياسر عن الطريق السريع وأخذ مساراً باتجاه «مركز المدينة». إن وجود لافتات الشوارع في الأقل على جميع طرق الخط السريع تقريباً مكتوبةٌ بلغةٍ ثنائية جعلَ كلارا تشعرُ بالارتياح، ومع ذلك قالت لها آمال إن التركيز والانتباه في هذه المدينة على وجه الخصوص هو أمرٌ مهمٌ. عندما انعطفوا بعد ذلك بقليل صوبَ شارعٍ تجاري مزدحم سألت كلارا عن اسم الحي وعلمت أنهم على مقربةٍ من الجامعة التي تُدرِّس فيها راوية، فتطلعت بفضولٍ وحماسة إلى الناس الموجودين على الأرصفة. إلا أنَّ اللافت للانتباه كان هو أنها لم ترَ شباباً كُثراً، بل رجالاً يرتدون قمصاناً ضيقةً ملونة، في حين ترتدي الكثير من النساء سراويل طويلةً فضفاضة، وقليلٌ منهن كنَّ يرتدين الحجاب. ورأت كلارا كلباً يَعَضُّ على برتقالةٍ في فمه. وكانت الهواتف النقالة دائماً بأيدي الشباب والكبار، السائرين والواقفين، المحجبات وكذلك الموشومين من العراقيين. تقريباً من بين كل اثنين من المارّة تجد واحداً يتحدث في نقّاله، يُنصتُ مُحَدِثاً إيماءةً برأسهِ أو يرفعُ بغضب يده الأخرى الطليقة عالياً. وعندما سألتِ كلارا ياسراً عن الهواتف أشارَ فقط إلى هاتفه الشخصي في وَحدة التحكم المركزية ووضَّح أنه منذ زمنٍ طويل لم يعتمد أحدٌ هنا على خطوط الهواتف الأرضية. ثم أردفَ القول وهو يشير إلى صبي يمسك بيد أمه: «وفي أثناء ذلك كبر الأطفال مع الهواتف المحمولة بينما شهدَ كبار السن هنا حروباً عدة. ففي كل عقدٍ من الزمن نجد حرباً واحدةً على الأقل»، فرك ياسر صدغه ثم قال: «أتعلمين أن الأشخاص العاديين لا يعتمدون هنا على الهواتف الأرضية في اتصالاتهم». وعندما وصلوا بعد مدةٍ وجيزة من انعطافهم إلى إحدى نقاط التفتيش فجأة وتحديداً إلى ركام نقطةِ تفتيشٍ ما بقيت كلارا تفكر في ما يعنيه ياسر بالضبط بـ«الأشخاص العاديين» و«عن مَن يُميزها هو». شتمَ ياسرٍ بالعربية، أنزلَ نافذة سيارته وأخرجَ رأسه منها: «هناك أربعة سيارات تقفُ أمامنا لن يستغرق الأمرُ وقتاً طويلاً»، أخبرَ كلارا بذلك وأضاف مباشرةً، «أنا آسفٌ حقاً ولكن ببساطة لا أحد يستطيع أن يتوقع نقاط التفتيش تلك».

أومأت كلارا برأسها فقط ونظرت عبر النافذة. والآن حيثما يقفون هم أصبحت تشعرُ فجأة بأمانٍ أقل على الرغم من أنهم لا يزالون في الحي ذاته. وربما يعودُ سبب ذلك إلى وقوف المزيد من السياراتِ خلفهما، وهكذا فإنهما لن يتمكنا ـ في حالات الطوارئ ـ من الهروبِ بالسيارةِ. إن مسارَ القدوم المعاكس لاتجاههما مزدحمٌ بالسيارات للغاية وفصِل عنهما بحواجزَ كونكريتية. سارَ ياسرُ بضعةَ أمتارٍ إذ يبدو أن عدد السيارات الأربع التي أمامهم تناقص إلى ثلاثةٍ بالفعل. أمسكت كلارا بحقيبة ظهرها الموجودة بين قدميها لأنها تريد استثمار وقت الانتظار لقراءة بريد تارون، فهي ما زالت تتذكرُ عبارة «حبيبتي كلارا»، تلك العبارةُ الحنونة غير المألوفة من تارون... سحبت كلارا حقيبة ظهرها، فتحتها ونقرت على صندوق بريدها حينما رأت ياسر يشيرُ بسبابته إلى النقال قائلاً بحذر: «لا أظُنُّ أن هذا جيدٌ، فإذا رأتِ عناصر الشرطة هاتفاً أمريكياً باهظ الثمن فإنهم غالباً ما يفحصونه، وحتى لو صُودِرت أجهزة كهذه في حالاتٍ استثنائية فقط فإنه لا أحد سوف يعلم ذلك أبداً ـ »، سعلَ ياسر بعض الشيء: «ربما يكون من الأفضل أن تُخَبِّئي الهاتف كإجراءٍ احترازي لحين اجتياز نقطة التفتيش».

أومأت كلارا برأسها لكنها ترددت بعدها، نظرت إلى الشاشة، فتحت إيميل تارون وقرأت للمرة الثانية: «حبيبتي كلارا»، في حين شغَّل ياسرُ السيارةَ مرة أخرى. نظرت كلارا وهي تنتظرُ أن تتوقف السيارة مرةً أخرى كيف أن شرطياً أمامهما يُجهِد نفسه بالفعل عند باب مرافق سائق السيارة التي فحِصَت للتو ويفتحه بنفسه ويطلب منه النزول، الأمر الذي جعل كلارا تُخَبّئ نقالها على الفور في حقيبة ظهرها دون أن تكمل قراءة إيميل تارون الذي ما زال ظاهراً على شاشة النقال، وبدلاً منه أخذت جواز سفرها وأمسكت عليه بأصابعها.

حبيبتي كلارا،

أكتبُ إليك عند حرارة المساء الضبابي في هاورا، مضطرباً على أمل أن تفهميني.

حتى الآن تسيرُ الأمور هنا على ما يرام، في كل صباح وغالباً في المساء أيضاً أكونُ في موقع البناء وأُشرفُ على الأساس، أتسلقُ السقالات وأتحدث إلى الناس، فإن استراتيجيتي هي: أن تسمع وتتحدث. أتعلمين يا كلارا أن الكثير من العمال لا يعلمون بالضبط ما يقومون ببنائهِ هنا؟ لقد أقمتُ جلساتٍ إعلامية وقدمنا فيها مشروباتٍ مجانية عند حافلةٍ صغيرة بمثابة مكانٍ لتقديم الوجبات الخفيفة وقوفاً، الأمرُ الذي جعل مدير الموقع يبتسمُ بازدراء قائلاً: «أثناء الدوام»؟ إن كان ذلك سيرفعُ من كفاءة العمل؟ في المرة الأولى كان هناك عشرةُ أشخاص، وفي المرة الثانية كانوا أكثر من عشرين شخصاً. وفي الأسابيع القليلةِ المقبلة أريدُ أن أوجه دعوةً أيضاً للتجار والمُورّدين الذين سنحتاج إليهم في الأشهر القليلة القادمة. إنه لأمرٌ ممتعٌ التحدث أمام الناس ورؤيتهم كيف يصبحون أكثر انتباهاً حتى يطرحون الأسئلةَ في النهاية.

في الليلةِ الماضية تناولتُ الطعام عند والديَّ. أصبح بطنُ بريا كبيراً جداً بالفعل وأصبحَ كل شيء الآن جاهزاً للولادة في دلهي. أما ميدري، فتخيلي أنها قرأت أمسِ نشيداً بنغالياً قديماً! وكان رائعاً جداً الاستماعُ إلى صوتها وإلى تدفق الكلمات الإيقاعي، إذ إن الأطفال الصغار لديهم بالفعل أهميةٌ هكذا ليس بالجمال فقط ولكن بالكرامةِ أيضاً.

الجميعُ يبعثون لكِ تحياتهم القلبية.

وأنت يا كلارا، كيفٍ هو حالكِ؟ بالكاد أستطيع أن أتخيل أين أنت الآن، إذ إنني أتخيلُ صور الأخبار التي يُفتَرض أنها حقيقةٌ ـ وآمل ألا تكون كذلك ـ . أتمنى أن تكوني بصحةٍ جيدة وراضيةً وحققتِ ولو القليل من انطباعاتكِ، مثلما أعهدكِ في السفر.

كلارا، أنا لا أريد أن أبتعد عن الموضوع كثيراً حتى إن كان ذلك صعباً عليَّ، لذا آتي الآن إلى صُلب الموضوع: إذ يتوجب عليَّ البقاء في هاورا لمدةٍ أطول، أطول بكثير مما كان مخططاً له، من أجل مرافقة عملية البناء ودعمِ البرج لدى عملائنا. إنَّ الاجتماع الأخير مع ممثلي حكومة الولايةِ والمدينة أوضحَ أن القرارات المهمة التي وصفناها أنا وأندرياس عبارة عن شكليات لم تكن سهلةً كما كنا نعتقد. في الحقيقةِ هناك جدولٌ زمني والجميع يريد رسمياً تشييد البرج كما هو مخططٌ له، لكن مع ذلك يُريد السياسيون أو ينبغي لهم معرفة كل شيء خطوةً بخطوة بل والاقتناع به. وهذا يعني أنه ينبغي الحصول على دعم الأغلبية وتبديد الشائعات الكاذبة وخلق الشفافية والثقة. إن

المقال الصحفي الذي نُشر قبل مدة قصيرة حول البرج كان له العون في أن يتذكره الكثيرون ويتذكروني. الجميع محترمون ومنفتحون لكن مع ذلك عليَّ إقناع السادة بشغف وبالحجج الصحيحة. كلارا، عندما أفكر في هذا كله أشعرُ بالتوتر لكني أعلم أنني سأتمكن من ذلك، وعلينا جميعاً التمكن منه.

تحدثنا أنا وأندرياس عن الوضع وقررنا معاً أن أبقى أنا هنا لإجادتي لغة الناس هنا. سننشئ مكتباً صغيراً في هاورا يكون بمثابة فرعٍ لمكتبنا في برلين ليكون حلقةَ وصل لكل ما يتعلق بالبرج.

أتدركين هذا يا كلارا؟ لأول مرة في حياتي أشعرُ بأنني أستطيع أن أحرك شيئاً ما، شيئاً أعلمُ أنه جيدٌ ومهم. لقد أخطأ الأمريكي المتغطرس في مؤتمر كالكوتا آنذاك حينما زَعَمَ أن هذه المنطقة كانت تقاتل عبثاً، فالأمرُ يستحقُّ بذل قصارى الجهد والقتال من أجله، إذ ليس هناك طريق آخر حيال ذلك.

عندما أرى مساءً العمال المهاجرين يغسلون أقدامهم في ماء النهر وقد امتلأ باطنها كله تقريباً بالندب، وأظافر أقدامهم غالباً ما تنغرزُ تحت الجلد، والجانب الخلفي لسيقانهم مملوء بالكدمات، آه يا كلارا لو ترين هذه الأقدام! أو عندما أمرُّ صباحاً بالأولاد الذين يُلمّعون الأحذية على جانبي الطريق والذين ينبغي أن يكونوا الآن تقريباً صُمًّا جرّاء ضجيج الشارع على رغم سدّادات القطن في آذانهم – فإن كل ذلك يجعلني أتساءل لا إرادياً كيف من الممكن أن نجعل «قاعة الهدوء» في البرج في متناول كل مَن يحتاجُ إليها. حتى لو كان هذا الأمرُ يبدو خيالياً فإنه يتعلق بالتوافق الفكري، أتفهمين ذلك يا كلارا؟ إنه يتعلق بخطواتٍ نحو الاتجاه الصحيح وإحدى الخطوات تلك هي برجنا. ومع ذلك، ومن أجل أن ينمو البرج كما هو مخططٌ له في الوقت المحدد وبالميزانية التي رصدناها له، فإن هذا يتطلب قوةَ إقناعٍ ومثابرةً وتنسيقاً أكثر كفايةً في موقع البناء وقبل كل شيء المزيد من الإرادة المشتركة، وهذا ما ظننته أنا منذ أن بدأتُ البناء قبل بضعة أشهر. ثم إنني لم أعلم بعد أين سأعيش بالتحديد، إذ إن هاورا ستكون عمليةً أكثر بالنسبة إلي، أما كالكوتا فهي أقرب إلى عائلتي، لكن هذا يعتمدُ أيضاً على عواملَ أخرى، لأن هناك شيئاً آخر، كلارا.

هل تتذكرين البروفسور الجامعي الذي اتصلَ بأندرياس يوم مغادرتي وأرادَ التعرفُ إليّ؟ لقد التقيتُ به في كالكوتا أمس الأول. إنَّ بيرن هو أكبر سناً مني ببضع سنوات، إنه ذكيٌّ وأنيقٌ للغاية وله بُعد نظر وكذلك هو يرأسُ حركةَ إصلاحٍ وطنية في مجال التعليم وسألني عما إذا كنتُ أرغب في المشاركة في حركتهِ ودعم برنامجهِ والمساعدة في تطوير قطاع الهندسة العِمَارية والانفتاح على الدول الأجنبية، فطلبتُ منه أن يمنحني وقتاً للتفكير في الأمر، ولا أعلم حتى الآن ما إذا كنتُ سأفعل ذلك أو لا، لذلك لا بد لي من دراسة ورقةِ مبادئ الحركة بشكلٍ أدق، لكني مبدئياً أتصور أنه بإمكاني المشاركة بشيء كهذا. ففي النهاية إنَّ هذا البلد هو موطني على الرغم من أنني ابتعدتُ عنه مدة طويلة وأشعرُ بأن شيئاً ما بدأ يبزغُ ويتحرك سواء كان في ولاية البنغال الغربية أو في الهند كلها. إذ يوجد الآن هنا «حركةٌ» كما قد ينعتها الإنكليز، «ديناميكيةٌ» افتقدتها في شبابي أو لم أشعر بها حينها – ربما بسبب منصبي؟ – لكنني أشعرُ بها الآن وأعرفُ كيفية تطويع معرفتي ومهاراتي في خدمة هذه «الحركة» الكبيرة.

إنَّ الإصلاحات المرجُوّة من مجموعة بيرن على مستوى الجامعة تدورُ في الأساس حول تحقيق المزيد من التبادل مع الجامعات الأجنبية، وهذا شيءٌ أهملته حكومة الدولة الشيوعية لسنوات طويلة أو أرادته مشروطاً فقط. ويأمل بيرن في الحصول على دعم مؤتمر ترينامول على مستوى الدولة لتكون ورقته الإصلاحية من الناحية المثالية جزءاً من البرنامج الانتخابي الوطني لمؤتمر ترينامول. ويبدو أن الفرص لذلك جيدة، فالمحادثات مستمرة لكن لم يتم اتخاذ القرار بعد، إذ إن الأحزاب تقدمت بالفعل لخوض الانتخابات الوطنية للعام المقبل. كلارا تخيلي، إن حزب بهاراتيا جاناتا، الحزب الهندوسي القومي يهدّد بالفعل بطرد المهاجرين غير الشرعيين القادمين من بنغلاديش الذين يعيشون هنا منذ سنوات، من ولاية البنغال الغربية في حال فوزه بالانتخابات، إذ نسمع من حزب بهاراتيا جاناتا أن هؤلاء «المتسللين» عليهم أن «يحزموا حقائبهم». ولكن لحسن الحظ انتقدت الحكومة البنغالية ذلك على الفور وبشكلٍ لاذع، كما لو أن هذا البلد لم يرَ ما يكفي مما تؤولُ إليه عمليات التطهير الديني، من أجل مزيدٍ من الفرار ليس إلا، وربما من أجل اضطراباتٍ جديدة.

بالمناسبة، عندما كنتُ الأسبوع الماضي في الاجتماع في البار التابع إلى موقع البناء أظهرتُ صورةَ معبد كانتاجي وذكرتُ أن المعبد موجودٌ الآن في ما يُعرَف اليوم بنغلاديش، فلاحظتُ حينها كيف نظر بعض العمال بعضهم إلى البعض الآخر خلسةً، فمن المحتمل أنهم ينحدرون من هناك أيضاً. وعندما تحدثتُ بعدها عن «ثقافتنا» مراتٍ عدة رأيتُ كيف أن وجوههم بدا عليها الاسترخاء بحذر.

كلارا، لا أعرف تماماً كم من الوقت سأبقى هنا أو ينبغي لي بقاؤه هنا. على أية حال سأبقى هنا حتى الانتهاء من تشييد البرج، أي سنتين ونصف في الأقل وربما أكثر، فالأمرُ يبدو هكذا حتى الآن. وبهذا آمل أن أكون قد جعلتُ الوضعَ هنا وقراري أوضح. فهل نجحتُ في هذا يا كلارا، أيمكنك فهم ذلك، أو أن الغضب سيسيطر عليكِ وتسألين نفسكِ غاضبةً عن سبب اتخاذي لهذا القرار دون أن أتحدث معك أولاً عن سبب استبعادك عن هذا القرار على الرغم من أنه سيؤثر فينا على حد سواء؟ كلارا، هل تسألين نفسك عن ذلك؟ هل تريدين إجابةً لهذا السؤال؟ حبيبتي، أنا وحدي قررتُ ذلك لأنني أنا فقط مَن يعرف تاريخ حياتي كلها، ولأنني أنا فقط مَن يستطيع الآن أن يعلم أين هو المكان الذي أكون فيه إنساناً كاملا لا ينقصه شيء. كان عليَّ أن أغادر لأكون ما أنا عليه اليوم، ولكوني المهندس الذي أصبحتُ عليه اليوم، بصفة «البنغالي القادم من أوروبا» كما يدعونني البعض مازحين هنا، فإن مكاني هو هنا الآن، بالقرب من مدينتي الأصل حيث يتم بناء منطقة سكنية جديدة صديقة للإنسان. لقد تعلمتُ الكثير في الغرب، ويمكنك القول إنني استفدتُ الكثير من الغرب كما استفاد الغرب منا لزمنٍ طويل. أما الآن فالأمرُ يتعلق بنحت هذه المعرفة على الحجر، في الطين وخشب الساج والزجاج. سواء كنتُ بهذا «ألمانياً بحتاً» أو واحداً من «ما بعد الإمبريالية»، مثلما أسماه النرويجي في المؤتمر، أو واحداً يفكرُ مرةً أخرى بطريقةٍ مختلفة، فإن كل هذا لا يهمني، إذ ربما أكونُ مزيجاً من كل شيء لا يمثله مصطلح واحد، فالشيء المهم الآن هو أن يزدهر البرج الذي خططتُ له بكل ما أملكه من علمٍ ومعرفة.

أتفهمين ذلك يا حبيبتي؟ هل يمكنك استيعاب قراري؟ عندما كان الأمرُ يتعلق بالمال الخاص بولادة بريا تولَّدَ لديَّ انطباع بأنكِ لا تستطيعين أو لا تريدين إدراك حقيقة أن هناك أشياءَ يستطيع الفرد المعني وحده أن يقررها ويحكُم عليها. وقد أذهلني ذلك وأزعجني وأربكني. ولكن عندما أخبرتِني بعد ذلك بقليل عن قراركِ بالذهاب إلى العراق «لأنه يتوجب عليك القيام بذلك»، لأنك فقط مَن يستطيع القيام بهذه الرحلة ولا حجة في العالم يمكن أن توقفكِ عن ذلك القرار، كان لديَّ انطباع بأنك أيضاً تدركين وتعلمين مسألة أنه: في النهاية أنتِ فقط مَن يعرف نفسه تماماً وبالتالي يمكنكِ أنتِ فقط أن تُقرري أشياءَ معينةً بمفردكِ.

كيف سيؤثر قراري هذا فينا يا كلارا؟ هل تسألين نفسكِ ذلك أيضاً؟ هلاّ أخبرتني؟ في الحقيقة أنا لا أعلم ذلك. لا أعلم ما الأفضل، ولا أعلم فيما إذا كان هناك أحد بإمكانه معرفة ذلك بالفعل اليوم، لكن كل ما أعلمه هو أنني سأفهم كل قرار تريدينه أو تتخذينه أنتِ. عندما كان الجو هذا الصباح حاراً في موقع البناء ورأيتُ القضبان الفولاذية تتلألأ في ضوء الشمس قلتُ في ذهني: كلارا، تعالي لزيارتي وللعيش معي هنا في كالكوتا واعملي من هنا كـ«طبيبة بلا حدود..». ولكن هل ترغبين أنتِ في ذلك، أو تبقين أنتِ في برلين، وأنا هنا في هاورا، ونزور بعضنا بعضاً ثم نرى كيف ستسير الأمور؟ كلارا، هل تجدين هذا غير مجدٍ، أو منطقياً؟ هل أنتِ مثلي تجهلين الحل المناسب؟ إن جهلنا للحل يوحّدنا. ربما علينا فقط أن ننتظر ونرى؟ ماذا تعتقدين؟

كلارا، كلارا، أحبكِ وأقبلكِ على جبينكِ، على شعركِ المجعد الناعم الجميل، على فمكِ وعظمة الترقوة والجوف المجاور لها حتى ترتجفي وترتعشي قليلاً، على نهديك المكتنزين... هذا يكفي الآن.

تحياتي من هاورا التي بدأ الليلُ يخيُّم عليها بعض الشيء.

حبيبك

تارون

آمال

تركت الرسالة تسقط من يدها ونظرت، نظرت إلى السماء، إلى ذلك البياض المكنون في شمال أوروبا فقط: بياض صافٍ ومشرق لكنه ليس ثاقباً، ومشرق فقط بما يكفي لتتمكن العيون المفتوحة من النظر إليه والتوغل فيه. «اللجوء. جدتي، لقد حصلتُ على حق اللجوء هنا في ألمانيا، هل سمعتِ ذلك؟ هل أنتِ سعيدة؟ إنكِ كنت على حق ــ وستظلين على حق، هل كل شيء على ما يرام، هل الثقة مهمة؟ راوية، أُمي ماذا تقولين؟ ماذا ستفعلين عندما ستعلمين بما كنتِ تتمنينه لي، هل ستقفزين من مقعدكِ وترفعين ذراعيكِ حتى تكاد تصطدم بكلارا التي ستجلس في غضون دقائق بجانبكِ في المكتب؟ هل سنحتفل ونهتف نحن الثلاثة معاً ونرقصُ أمام شاشة الكمبيوتر وندورُ حول أنفسنا كما بدأتُ أنا أدورُ هنا في المروج، وكأنكِ عالقةٌ في مهب الريح، والعشب تحت قدمي والقيقب وجدران السكن تدور معي أيضاً، ذلك السكن المتقشف الذي سرعان ما سأدير له ظهري متوجهةً في طريقي إلى برلين... حيث كورس اللغة الألمانية وقاعة المحاضرات ووظيفة النادل، أو أقوم بجولاتٍ بالمتحف ومعي حقيبة الجلد ذات اللون البني الفاتح ــ نعم. هل يمكنني فعل ذلك الآن؟ وهل من الممكن أن أفكر في كل شيء وأتخيله وأتطلع إليه؟ مسموحٌ لي أن أفعل ذلكِ كله، مَن يستطيع أن يخبرني ذلك؟ مَن يُدرك مخاطر الضمانات الزائفة أفضل منك يا أبي؟ أخبرني ما رأيك بهذا الخبر، الخبر المذهل هذا، هل أنتَ سعيد؟ أما زلتَ سعيداً»؟ بقيتِ آمال تلهث. أعادت خصلات شعرها المنسدلة مرةً أخرى إلى داخل تسريحة شعرها أو بالأحرى تسريحة عشتار، التقطتْ الأوراق المتساقطة على الأرض، فتحتْ المُغلف وسارتْ مسرعةً إلى السكن لتصل بسرعة إلى كمبيوتر كلارا، إلى غرفتها التي عن قريب لن تكون غرفتها بعد.

كلارا

آمال، تمتمت كلارا وانتظرت. ثم جلست مرهقةً في الظل قرب جدار المنزل، سحبت الدفتر الذي ما يزال فارغاً وأخذت قلماً من حقيبتها وبدأت تكتب:

آمال

أكتبُ لكِ ولي، أكتب في الدفتر الذي أضعه على ركبتيَّ، دفتر مذكرات السفر الخاص بي لأنني فقط هنا في تلك الأوراق البيض المطيعة أجرؤ على البحث عن الكلمات التي سأخبركِ من خلالها بما رأيتُهُ اليوم هنا، في بغداد، منطقتك، في منزلك. لن أصف المدينة لكِ، لأنك تعرفينها أفضل مني، ثم إنني قد لا أبقى هنا طويلاً بعد أن وجدتُ ما أتى بي إلى هنا.

توقفت كلارا مؤقتاً لكنها أجبرت نفسها على إبقاء القلم في يدها.

بادئ قبل كل بدء يا آمال: فقد زرعتُ البنفسج بجانب قبر عشتار تحت شجرة البرتقال. وكانت الزهور الزرق متجعدةً بعض الشيء لكنها تفتحت، كما سترينها في الصورةِ التي التقطتها لكِ. وليس البنفسج وحده أزهرَ يا آمال، بل تخيلي: حتى شجيرة الدفلى أزهرَت أيضاً في حديقة عشتار على الرغم من أنها، كما قال ياسر، لم تمطر هنا منذ أكثر من أسبوع، الأمر الذي يجعلني أتساءل: تُرى من يسقي الشجيرة تلك؟ وربما كل يوم، لأن التربة فوق جذورها كانت رطبة نوعاً ما حينما لمستها. مَن يدخل حديقة عشتار في المساء أو عند الصباح الباكر؟ فالبوابة عند المدخل كما تعلمين يا آمال مقفلةٌ بترباسٍ فقط ويُمكن لكل شخص فتحه وبهذا يستطيع أي فرد دخولها. لكن مَن يستطيع الدخول من البوابة ويشق طريقه وفق مسارٍ ضيق عبر أشجار النخيل ويرفع الخرطومَ من الأرض ويفتح صنبور الماء ليسقي نبات الدفلى الوردي المفضل لدى جدتكِ؟ إنها ليست راوية، صدقيني يا آمال، وسأخبركِ المزيد عن ذلك فيما بعد. ربما يكون والدكِ عبر طريقةٍ ما؟ أيرسل والدكِ، إذا كان ما يزال على قيد الحياة ولا يستطيع المجيء بنفسه، رسولاً في الليل ليرسل لكم إشارةً منه؟ أو إن كان ذلك يبدو سخيفاً فمن الأرجح أن تكون نهرين هي مَن تُلقي نظرةً سريعة على الحديقة في أثناء عودتها من العمل؟ ولكن بعد ذلك سوف تدق نهرين جرس بابكم أيضاً... أو يَسقي الدفلى طارق صاحب محل المعجنات.

آمال كما ذكرتُ لكِ سابقاً، فإنه من غير الممكن أن تكون راوية هي مَن يعتني بالدفلى. لأن ما حدث لوالدتكِ هو... إن راوية كانت مُعلقة بحبلٍ في مكتبها تحت السقف الخشبي. عُلّقت هناك منذ مدة، في الأقل منذ يومين أو ربما ثلاثة أيام، فأنا طبيبة وأستطيع الحُكم على شيء من هذا القبيل من خلال رائحتها ومن خلال جلدها. إن راوية، أمكِ، كانت معلقةً هنا، أتذكر ذلك وأشعر بالبرد. وقفتُ في المدخل لبرهة ثم اقتربتُ أكثر فرأيتها بشكلٍ أفضل، رأيتُ وجهها المشوه، رأيتُ كدمة رقبتها، ذراعيها المتدليتين، والاخضرار الكامن تحت جلدها وقدميها الحافيتين بأصابعها الملطخة... إنها جثةٌ بدأت تتلاشى بالفعل حتى بلغت حد التفسخ الذاتي وتغلغلت إليها فطريات الردم ــ وهنا توقفت كلارا وتأملت: ما عسى آمال أن تفعل بهذه المفردات؟ فمسحت الجُمَل الأخيرة بدءاً من عبارة «الاخضرار» وتابعت: آمال صدقيني، إنكِ لا تودين رؤيتها بهذا الشكل. لقد كانت راوية كما عهدتها أنتِ بأم عينيك وكما رأيتها أنا من على الشاشة، هي ذاتها راوية المقاتلة والقوية.

حينها قلتُ لنفسي: عليكِ البحث في المطبخ عن سكين لتقفي على كرسي راوية وتقطعي بها ذلك الحبل الذي سُحِبَ مراتٍ عدة من خلال ثقبٍ في عوارض السقف. كما قلتُ: عليكِ إنزال الجثة بعناية وتنظيفها ولفها بقطعٍ من قماش الكتان الذي ربما يمكن العثور عليه في غرفة النوم أو في الحمام. وقد قمتُ بهذا كلهِ فيما بعد. ففي بادئ الأمر وقفتُ هناك وأدركتُ أن الوقت المناسب للقيامِ بطقوس غسل الموتى والجنازة المهمة للغاية في بلدكم قد فات، قد فات الأوان بالفعل. وهذا يُعد بمثابة كارثة لكل مسلم حتى إن كانت والدتكِ نفسها غير متدينة. ترى هل خُطط للكارثةِ تلك؟ هل أرادت راوية بهذه الجثة أن تُثير الاستفزاز وتصرخ عالياً وتقول: انظروا ماذا فعلتم بالبشر، أو لم تفكر راوية على الإطلاق بمصير جثتها بعد أن أعثر عليها أنا؟ هل كان مهماً لها وحدها أن تفعل ذلك في الوقت المناسب والمضبوط، بالشكل الذي يجعلها متأكدةً أن أية مساعدة تأتي ستكون بعد فوات الأوان...؟ ولكن فجأةً خطرَ لي أنه لو كانت راوية تعلمُ بأنني سآتي، فلربما تركت شيئاً ما، على سبيل المثال رسالةً، لذا قررتُ البحث أولاً عن آثارٍ لذلك، فتفحصتُ مكتب راوية وكان فارغاً ومرتباً وكانت الأوراق والأقلام مُرَتبة في الأدراج، أما كمبيوترها فإنني لم أرهُ في أي مكانٍ هناك. هل تعلمين يا آمال أين ممكن أن تضعه راوية، وهل ممكن أن يكون في مكتبها؟ إذ إنني وجدتُ بدلاً من ذلك أقمشة السرير البيض مطويةً بشكلٍ أنيق على الأريكة في المكتب بجانب خزانة الكتب. وكانت نظارات راوية ما تزالُ هناك على الرف بجانب مصباح القراءة. يبدو كأنها أمضت ليالي الأخيرة على هذه الأريكة. لقد تجولتُ في المنزل وذهبتُ إلى غرفة النوم والغرفة التي كانت على ما يبدو غرفتكِ. يا لها من لحظةٍ غريبةٍ وأنا أقفُ بين كتبكِ، وصوركِ، والقلائد، والملفات. وكانَ العودُ ملفوفاً بعنايةٍ بجانب الكرسي في الزاوية، لقد تعرفتُ على الآلة تلك من خلال شكلها. آمال، هل تجيدين العزف على العود؟ أما مكتبكِ وسريركِ فكانا مغطَّيان بمناشف رملية اللون. وكذلك الحال للأسرَّة في غرفةِ النوم وطقم الجلوس في الصالون. يبدو أن جميع الغرف تلك لم تُستعمل منذ مدةٍ طويلة وربما لم يدخلها أحد. فعلى مقابض الأبواب كان هناك غبار وكان الهواء في الغرف قديماً، وكانت جميع المصاريع أمام النوافذ مغلقةً باستثناء المصاريع الموجودة أمام مكتب راوية. إلا أنه في المطبخ فقط كان الضوء ما يزال يتخلل من المصاريع التي لم تُقفَل بعد ويسقط على منضدة المطبخ والموقد. وبجانب ألواح التسخين كانت هناك أطباق وكوب من السيراميك الأزرق، وطبقٍ، وأدوات طعام متفرقة في حوض التصفية. وعندما أدرتُ الضوء من خلال النقر على الزر فقط رأيتُ رسالةً هنا على منضدة الطعام في المطبخ مكتوباً عليها اسم المتَسَلم باللغتين العربيَّة واللاتينية: آمال. حينها فهمتُ على الفور لمن كانت الكتابة بالأحرف اللاتينية، إنها كانت إلى الرسول، لي. وبجانب الظرف كان هناك مشبك شعرٍ أصلي وقديم نوعاً ما وحلقة قرنية الشكل تتخللها أحجار عسلية اللون وطوق عاجي لغرض تثبيت عقدة الشعر. ربما كان المشبك هذا يعود إلى عشتار.

حملتُ الظرفَ في يدي بعناية، تأملتُ خطَّ الحبر الأسود وخمنتُ أن عدد الأوراق المطوية بداخله يبلغ في الأقل اثنتين. وأظنُّ أنني شعرتُ أيضاً بوجود شيءٍ رائع نحيف وطويل قد يكون بعضاً من خصلات شعرٍ ما؟ وربما أكون أخطأت في ظني هذا. وقفتُ هناك والرسالةُ في يدي ولم أرغب في التفكير في ما هو مكتوبٌ فيها إلا في وقتٍ لاحق حينما أكون في الخارج، لكنني خشيتُ ذلك ولم أستطع عدم التفكير فيه، فتخيلتُ ما كتبته راوية على الورق، قد تكون كتبت عن الحياة في ظل الحرية والسلام، وربما كتبتْ أيضاً عن مستقبلكِ أنتِ يا آمال... ولكن مَن يدري ربما كان هناك في الرسالة شيء مختلف تماماً، شيء لم يوضح أمراً ما وإنما شيء حانق يائس؟ إنها لائحة اتهام ضد جميع أولئك الذين جعلوا من بلد راوية الحبيب مكاناً غير صالحٍ للسكن. فأنتِ وحدكِ يا آمال مَن سيقرأ الرسالة وربما يخبرني عنها. عندما غادرتُ منزلكم وأُغلق باب المدخل خلفي واضطررتُ إلى إيجاد طريقي أولاً إلى الخارج بعد أن أعمتني أشعة الشمس فقد لفتَ انتباهي محل معجنات طارق، أي كوب القهوة الساخنة «المرسوم على خارطتك». كانت ستارة المدخل مسحوبةً إلى الجانب وبشَّرَت المظلة الخضراء بالظل فشعرتُ فجأة بالعطش. ذهبتُ إلى المحل ودخلتُ إليه فذُهلتُ للرفوف العالية على الجدران المملوءة حتى السقف بعلبٍ خُضر، والكعك مكدسٌ بشكلٍ هرمي، وحلويات السمسم والمربيات، ولكن عن ماذا أكتبُ لكِ وأنتِ تعرفين المحل. أتى إلى المنضدة رجلٌ كبيرٌ في السن يبدو أنه طارق، إذ خرجَ من غرفةٍ تقع خلف الجانب الأيسر الذي يوجد فيه الموقد، أومأ إليّ وابتسم بسرور. إنه لم يبدُ متفاجئاً بشكلٍ خاص لوجود امرأة أجنبية في محله لا تتكلم من العربية سوى كلمة «مرحباً». قد تكون راوية أخبرته بأنها تتوقع زيارة من ألمانيا؟ على أية حال تمكنتُ من شراء أكبر علبة بقلاوة في

المحل من أجلكِ يا آمال، بالإضافة إلى ذلك تناولتَ عصير الشمام وقهوةً مع قطعتين من البقلاوة على طبقٍ من الورق المقوى. ثم خرجتَ من المحل مع كل ما كنتَ محملةً به وبحثتُ لي عن مكانٍ تحت المظلة وجلستُ قرب الحائط.

وها أنا ذا ما زلتُ جالسةً والدفترُ أمامي بكل صفحاتهِ البيض الكثيرة، أما على اليمين مني فتوجد حقيبة ظهري وفيها مشبك الشعر والرسالة وخارطتك يا آمال مع أرقام هواتف ياسر ونهرين. وبجانب حقيبة الظهر توجد علبة البقلاوة الخضراء. لقد انتهيتُ الآن من أكل البقلاوة تماماً وأنا أفكرُ في الوقت ذاته بأفضل طريقةٍ تضمنُ وصول المعجنات والرسالة لكِ، فاتضح لي أن هناك تسلسلاً واحداً ممكنٌ لهذا فقط، وهو: أولاً الحلويات ثم الحكي. فبعد أن أكون قد أخبرتك عن راوية لن تتمكني من تناول الطعام بعد، ولن تتمكني من رسم المزيد من الرسومات لمدة من الوقت، وكذلك لن ترقصي في الحفلات التي تُقام على العشب أمام السكن، ثم إنه لن يكون هناك المزيد من الرجوع إلى اللاوعي، ولهذا السبب فإنه من المهم أن تحصلي على علبة الحلويات أولاً، إنها واحدة من تلك العلب النفيسة «السحرية» كما كانت عشتار تسميها، التي حملتها أنتِ يا آمال عبر الشارع هذا إلى عشتار وراوية ووالدكِ حسن حينما كنتِ طفلةً. ستكون تلك بمثابة تحيةٍ لكِ من الوطن. وسنفتحُ العلبةَ معاً حتى تصبح أصابعنا دبقةً حقاً. سنشعرُ بشراب القطران على لساننا وسنتذوق ماء الورد في كتلة اللوز وسوف تتكسر قطع الفستق في أسناننا. وأنتِ يا آمال ستغمضين عينيك ولا ترغبين في سماع أي شيءٍ حتى اللحظة الأخيرة، فسوف تتذوقين فقط، تتذوقين بلذةٍ وستجدين مرةً أخرى ما كنتِ حُرِمْتِ منه لمدةٍ طويلة.